المُسْتقبلُ العَرَبيّ

ISSN 1024 – 9834

تصدر عن مركز دراسات الوحدة العربية

مؤسسة دولية غير حكومية مقرها لبنان

(مرسوم رقم 4174 عام 2000)

شروط النشر

يمكن المساهمة في مجلة **المستقبل العربي** من خلال عدة أبواب وفق شروط النشر التالية:

1 ـ **الدراسات**: يجب أن تتوافر في الدراسة شروط البحث العلمي، لناحية المنهج والتأصيل، والاستناد إلى معطيات ووقائع حسية، وصحة المعلومات، والأمانة في الاقتباس، والدقة في ذكر الهوامش والمراجع، والبناء النصي واللغوي المتماسك والواضح، البعيد من الحشو والتكرار، والابتعاد من التعميمات والانتقائية، ومن الأحكام المسبقة غير المستندة إلى براهين وإلى تراكمات معرفية ونتائج بحثية سابقة وجديدة. على أن تكون الدراسة في حدود 5000 – 7000 كلمة.

2 ـ **مقالات وآراء**: تناقش المقالة التي تدرج في هذا الباب موضوعًا خلافيًا، بلغة عقلانية وموضوعية، أو ملفًا ساخنًا، أو مقاربة تطرح وجهة نظر مغايرة، أو تقدم رؤية أو مقترحًا مستقبليًا لشأن عربي ما أو شأن عالمي مؤثر عربيًا؛ كل ذلك بنمط تفكير وبأسلوب تحليل معمّقين، بعيدين من الخطاب اليومي والارتجالية. على أن تكون المقالة في حدود 3000 – 4000 كلمة.

3 – **مراجعات كتب**: تتضمن المراجعة عرضًا لمضمون كتاب صادر حديثًا، باللغة العربية أو بلغة أجنبية، ومناقشة هذا المضمون ونقده، مع ضرورة إلقاء الضوء على هيكلية الكتاب والمنهجيات التي يعتمدها والخلفية النظرية والفكرية التي تحكمه. على أن تكون المراجعة في حدود 2000 – 2500 كلمة.

4 ـ أبواب غير ثابتة مثل باب **أعلام** الذي يلقي الضوء على الأعمال الفكرية والتجربة الحياتية لأحد الأعلام العرب الذين تستحق أعمالهم وتجاربهم وإنجازاتهم التوقف عندها واستخلاص الدروس منها؛ أو باب **مقابلات** الذي يحاور أحد الأعلام العرب، أو غير العرب، حول تجربته أو آرائه الفكرية أو السياسية أو الثقافية؛ أو باب **مؤتمرات** الذي يلخِّص ويناقش نقديًا وقائع مؤتمر أو ندوة علمية، على أن يقع النص في هذه الأبواب في حدود 2000 ـ 3000 كلمة.

5 ـ تخضع النصوص للتحكيم المعمي من جانب لجنة من الباحثين والأكاديميين المتخصصين.

تفهرس بيانات المجلة وملخصاتها في قواعد البيانات التالية:

1 ـ قاعدة البيانات العربية المتكاملة «معرفة» <http://www.e-marefa.net/ar>

2 ـ قاعدة المعلومات التربوية «شمعة» <http://www.search.shamaa.or3g>

3 ـ دار المنظومة <http://www.mandumah.com>

4 ـ EBSCO Publishing <http://www.ebsco.com>

المُسْتقبلُ العَرَبيّ

وعي الوحدة العربية
وحدة الوعي العربي

السنة الخامسة والأربعون | السادس والعشرون والخمسمئة | كانون الأول/ديسمبر 2022

المحتويات

■ **افتتاحية**

□ **مأزق السلطة الفلسطينية والصعود الجديد للمقاومة في الضفة الغربية**.....عمرو علّان 7

■ **دراسات**

□ **التموضعات الجيوستراتيجية للقوى البحرية في المواقع المتاخمة للمنطقة العربية** ..... عبد الرحيم رحموني 10

تعد المنطقة العربية إحدى أبرز المناطق أهمية في مسارات الصراع الداخلي والخارجي، الذي تعزز ببروز الفاعل الخارجي بوصفه فاعلًا أساسيًا في معادلة الحرب والسلام في المنطقة. تتناول هذه الدراسة طبيعة المنطقة العربية ومركزيتها في الحسابات الاستراتيجية البحرية لهذه الفواعل التي أخذت في التموضع أكثر في التخوم القريبة من المنطقة. تهدف هذه الدراسة إلى معرفة مدى وموقع المنطقة العربية كمجال جيوسياسي ـ بحري في حسابات القوى البحرية الأخرى (الأمريكية، الروسية، الإيرانية، التركية)، وتحليل تأثر هذه المنطقة بالمنطلقات العسكرية لهذه القوى، كما أنها تجيب عن عدة أسئلة تتعلق بواقع المنطقة العربية في ظل الاستراتيجيات العسكرية ـ البحرية لهذه القوى.

□ **العلاقات المغربية ـ الخليجية في ظل المتغيرات الجيوسياسية** ... رشيد باجي 27

تبدو العلاقات المغربية ـ الخليجية من أكثر العلاقات العربية البينية إثارة؛ فالمغرب يعدّ من الدول العربية الأكثر بعدًا جغرافيًا من منطقة الخليج العربي، ومن الناحية الإثنية يمثِّل سكانه مزيجًا من العرب والأمازيغ، ومذهبيًا كان المذهب المالكي عبر التاريخ عقيدة المملكة الشريفة على خلاف منطقة الخليج التي تبنَّت المذهب الحنبلي. إلا أن عوامل الاختلاف الظاهرة ساهمت بطريقة عكسية في نسج علاقات متميزة بين المملكة المغربية ودول الخليج العربية، وقد تماهت سياسة المغرب العربية عمومًا مع توجهات السلوك الخارجي للدول الخليجية، مع احتفاظ المغرب باستقلالية قراره السياسي وحياده الإيجابي ولا سيّما في بعض الصراعات العربية ـ العربية.

□ **الحراك الشعبي الجزائري بين تقابلية الشارع والسلطة:**

المنطق والدلالات ..... مختار مروفل 48

إن سؤال الحراك الشعبي الجزائري، لا يمكن الجواب عنه دونما الوقوف على البعد الثنائي الذي تتقابل فيه السلطة والشعب بوصفهما ضدين انفرط عقد الثقة بينهما. تبحث هذه الورقة في تفاصيل المشهد الحراكي الجزائري، وإظهار مساحات الاختلاف المحتدم بين السلطة والشعب، والدلالات الصادرة عن الخطابات والأفعال المواكبة للحراك لدى الطرفين. وتحاول الدراسة الإجابة عن عدد من الإشكاليات الأنثروبولوجية المتخفِّية وراء ما ينتجه طرفا الصراع، من قناعات وأدوات متوسل بها في معركة كسب الحجة والعدد. يمثِّل سِجل الجسد والذاكرة والشتائم والسِّباب، أهم الملفات والعناصر التي اشتغلت عليها الورقة، بهدف التنقيب عن الخلفيات التي تمنح لظاهرة الحراك الدلالة والمعنى.

□ **تحولات السلطة في موريتانيا قبل الدولة وبعدها:**
قراءة سوسيولوجية .....باب ولد سيد أحمد أعل 64

تطرح مسألة السلطة في المجتمع الموريتاني الكثير من التساؤلات والإشكاليات، سواء على مستوى الواقعية، أو على مستوى ما تضمره السلطة من معانٍ تتجسد غالبًا في القوة الخفية التي تسيطر على المجتمع وتضبطه. تبحث هذه الدراسة في تجليات السلطة وملامحها في المجتمع الموريتاني الحديث (مجتمع الدولة) مقارنة بأنموذج التناصر والتنافر الذي كانت تعبِّر عنه نماذج السلطة القديمة في المجتمع الموريتاني؛ وهي تناقش تعارضات مفهوم السلطة ودلالاته، مع التركيز على النظرية الخلدونية انتقالًا من وحدة نسب الدم إلى عصبية الاصطناع، ثم تبحث في ملامح تحولات السلطة في المجتمع الموريتاني قبل الدولة وبعدها من خلال التعرض للسلطة التقليدية وتعارضات وظيفتها ودورها.

□ **الخطاب الوطني الفلسطيني في مواقع التواصل الاجتماعي:**
الفيسبوك إنموذجاً .....بسّام عويضة 79

لم تبقَ السياسة الفلسطينية على حالها طوال الأعوام الستين الماضية، فالسياسة مثل الظواهر الاجتماعية الأخرى، تتعرض لعوامل ومُؤثرات وتغيرات وتدخلات داخلية وخارجية. ولعل من أبرز هذه العوامل تغيُّر موازين القوى طرفي الصراع الفلسطيني ـ الإسرائيلي وتحول الرهانات والمشاريع الوطنية على الساحة الفلسطينية، وبخاصة في مرحلة ما بعد أوسلو، وتكوّن السلطة الفلسطينية وما حملته من تغيُّر في المشروع الوطني وتغيُّر الخيارات من المقاومة إلى «التسوية» السلمية. تسعى هذه الدراسة إلى الكشف عن التحولات التي حدثت في الخطاب الوطني الفلسطيني في منصة الفيسبوك ودراسة مضمون هذا التحول وقياس الأثر الناتج من هذا التحول، ومضمون الخطاب الوطني على منصة التواصل الفيسبوك.

□ **أزمة أمننة المناخ في العالم العربي:**
دراسة نقدية للنظرية الليبرالية .....الحسين شكراني وخالد القضاوي 98

أصبح تأثير التحولات المناخية في أمن الدول والشعوب أمراً واقعاً، بعدما كان حقلاً نظرياً للدراسات الاستشرافية. من هذا المنطلق، تعمل هذه الدراسة على تفكيك مفهوم الكابيتالوسين الغربي وتطبيقاته، ومدى ارتباطه بأزمة أمننة المناخ في العالم العربي، مع التركيز على تقديم منظور نقدي عربي للنظرية الليبرالية، والنظر في التداعيات الأمنية للتحولات المناخية، ومن ثم نقد السياسات الليبرالية المناهضة لحماية المشترك البيئي، من أجل الإسهام في بناء مقاربة عربية تستشعر حتمية حماية الحقوق البيئية المشتركة، من خلال عرض الأسس الليبرالية للكابيتالوسين الغربي وعلاقته بمخاطر أزمة أمننة المناخ في الوطن العربي، وتقديم أطروحة مُغايرة لحماية المشترك البيئي.

■ مقالات وآراء

□ **رسالة مفتوحة إلى المثقفين العرب**.....ميلود عامر حاج 114

□ **خطاب التطرف بين السلفية الجهادية واليمين المتطرف**..... محمود أحمد عبد الله 123

■ أعلام

□ **يوسف الرويسي والاتجاه القومي العربي الوحدوي في الحركة الوطنية التونسية** .....هاني الشهيدي 135

■ كتب وقراءات

□ **تشنُّج العلاقة بين الغرب والمسلمين:**
الأسباب والحلول (هانس كوكلر) .....محمد وحدو 147

□ **كتب عربية وأجنبية وتقارير بحثية** .....كابي الخوري 151

الكتب العربية: تدمير سورية وتشريد شعبها: من المسؤول؟؛ الإسلام والمواطنة الليبرالية بحثًا عن إجماع متشابك؛ نهاية الدولة العثمانية وتشكيل الشرق الأوسط؛ تحولات النخبة الفلسطينية: مراجعات في التاريخ والهوية.

الكتب الأجنبية: The Untold Story of the Golan Heights: Occupation, Colonization and Jawlani Resistance; How the West Brought War to Ukraine: Understanding How U. S. and NATO Policies Led to Crisis, War, and the Risk of Nuclear Catastrophe; The Economic Weapon: The Rise of Sanctions as a Tool of Modern War; The Withdrawal: Iraq, Libya, Afghanistan, and the Fragility of U. S. Power.

التقارير البحثية: Why Israel Is Hesitant About Supplying Ukraine with Air Defense Systems; ««Reunification» with Taiwan through Force Would Be a Pyrrhic Victory for China.

■ **ملف إحصائي (145)**

□ **التجارة الخارجية للبلدان العربية: مؤشرات مختارة**..... كابي الخوري 160

آراء الكتّاب لا تعبِّر بالضرورة عن اتجاهات يتبنّاها
«مركز دراسات الوحدة العربية» أو مجلة «المستقبل العربي»

المدير المسؤول: فارس أبي صعب

صورة الغلاف:
لوحة زيتية بعنوان «الربابة والعصفورة»
للفنان التشكيلي المصري حسين بيكار

مأزق السلطة الفلسطينية والصعود الجديد للمقاومة في الضفة الغربية

عمرو علاَّن(*)

كاتب سياسي فلسطيني.

لا نبالغ إذا قلنا إنّ المقاومة في ساحة الضفَّة الغربية قد عانت الأمرَّين منذ تولِّي محمود عباس رئاسة السلطة الفلسطينية، إذ إن «التنسيق الأمني» كان إلى حدٍّ بعيدٍ قد حرم المقاومة «البيئة الحاضنة» التي طالما تمتعت بها في تلك الساحة.

ولعلّ من أبرز الأسباب التي مكَّنت الأجهزة الأمنية للسلطة الفلسطينية، من خلخلة «البيئة الحاضنة» للمقاومة في الضفَّة الغربية بتلك الفاعلية، كان الوهم الذي خلقه مسار «أوسلو» لدى شريحة واسعة في الشارع الفلسطيني، ولا سيَّما بين أبناء حركة «فتح» وعناصر أجهزة السلطة الفلسطينية الأمنية، إذ باتت تلك الشريحة مقتنعةً بإمكان استرجاع شيءٍ من الحقوق الفلسطينية المسلوبة عن طريق المفاوضات، فصارت عناصر الأمن الفلسطيني، تقمع المقاومين من أبناء جلدتهم، وتسهر على حماية أمن المستوطنات وقطعان المستوطنين، معتقدة أنها تخدم بذلك «المشروع الوطني الفلسطيني».

من هنا برز الحديث عن أن الضفَّة الغربية قد مرَّت بسنوات «موت سريري» من ناحية الفعل المقاوم، وعن أن الاحتلال في الضفَّة الغربية قد تحوَّل إلى احتلال «خمس نجوم»، إذ لم يعد الاحتلال يتحمل أي أعباء من جرَّاء استمرار احتلاله مع وجود السلطة الفلسطينية، سواءٌ أكان ذلك على صعيد التكلفة البشرية للاحتلال، أو على صعيد تكلفته المادية.

إلا أنّ الضفَّة الغربية قد بدأت تستعيد حيويتها منذ حين، وكانت البداية مع عمليات الطعن والدَّهس الفردية ضد جنود الاحتلال ومستوطنيه، ومن ثم تطورت أعمال المقاومة لتضم هجماتٍ بالأسلحة النارية، حتى أصابت بعض تلك الهجمات المسلَّحة أراضي 1948، ناهيك بهبَّات الأقصى المتكررة، على نسق «هبَّة كاميرات الأقصى» ومثيلاتها.

(*) البريد الإلكتروني: amro_bilal@msn.com

أما ما ميَّز عام الضفَّة الغربية الراهن، فقد كان ولادة حالة التشكيلات المقاوِمة شبه المنظَّمة، فجاءت البداية مع مجموعة «كتيبة جنين»، التي سرعان ما انتقلت عدواها إلى البلدة القديمة في نابلس، وذلك مع ولادة مجموعة «كتيبة نابلس»، لتتحول تلك الأخيرة إلى مجموعة «عرين الأسود» عقب انضمام مجموعات مقاوِمة أخرى إليها، لتغدو مجموعة «عرين الأسـود» بعد ذلك الحالة المقاوِمة الأبرز في الضفَّة الغربية إلى حينه.

ويمكن تفسير الحالة الثورية المتجددة في الضفَّة الغربية، وتبدل المزاج العام فيها، كنتيجةٍ لتظافر أمرين أساسيين: الأول كان التراجع الملموس لفاعلية أجهزة «التنسيق الأمني» في قمع الحالة المقاوِمة المتصاعدة في الضفَّة الغربية، ويعزو البعض ذلك التراجع إلى تبدُّل المزاج العام عند أكثرية الشريحة الفلسطينية التي اقتنعت يومًا ما بجدوى مسار «أوسلو»؛ فعقب وصول مسار «أوسلو» إلى طريقٍ مسدودٍ، وبعد اختبار عواقبه الكارثية، على مدى العقود الثلاثة الماضية، على عموم «المشروع الوطني الفلسطيني»، تبدَّدت أوهام «السلام» عند أغلبية الفلسطينيين ممن خدعوا يومًا به، بما في ذلك أعدادٌ لا يستهان بها من أفراد السلطة الفلسطينية وأجهزتها الأمنية نفسها.

أما الأمر الثاني، الذي ساهم أساسًا في تبدُّل المزاج الشعبي الفلسطيني في الضفَّة الغربية، فقد كان التقاط عموم الشعب الفلسطيني، بحسِّه الفطري، اللحظةَ التاريخية، وحقيقة اختلال موازين القوى التي حكمت الصراع العربي ـ «الإسرائيلي» لعقودٍ خلت، إذ إن الحروب التي خاضها العدو «الإسرائيلي» ضد حركات المقاومة الفلسطينية، وكذا الإقليمية، منذ عام 2006، قد أظهرت تعاظم قدرات حركات المقاومة عمومًا، وتراجع قدرة «الكيان المؤقت» في المقابل، ناهيك بالحروب التي كان يفترض أن يشنها «الكيان المؤقت»، إذا ما كانت موازين القوى لم تختل بالفعل لغير مصلحته، فما كان لهذا الكيان العدواني ليسمح مثلًا بتعاظم قوة المقاومة في جنوب لبنان، لتصل إلى ما وصلت إليه من اقتدارٍ، من دون شنّ حربٍ حاسمةٍ للقضاء عليها، كما كان سابقًا يواجه حركات التحرر العربي والدول العربية المناهضة له.

حتى إن «حزب الله» كان قد تمكن مؤخرًا من إرغام «الكيان المؤقت» على الرضوخ لمطالب الدولة اللبنانية في غاز شرق المتوسط، بمجرَّد التلويح بإمكان فتح جبهة جنوب لبنان.

ولعلّ معركة «سيف القدس» 2021، كان لها الأثر الأكبر في تبدُّل المزاج العام الفلسطيني، فالأداء المميَّز لفصائل المقاومة الفلسطينية في تلك المعركة، قد أعطى لخيار المقاومة دفعةً لا يستهان بها، وظهر ذلك جليًا في تفاعل عموم الشعب الفلسطيني معها، في الداخل وفي أراضي 1948 وفي الشتات.

وعليه، نجد أن ما أفضى إلى مسار تجدُّد الحالة الثورية في الضفَّة الغربية، كان تضافر مجموعة ظروف موضوعية في الداخل الفلسطيني، وأخرى في الإقليم، والمرجَّح أن يستمر هذا المسار ويتطور، إذ إن إعادة عقارب الساعة في الضفَّة الغربية إلى الوراء، يلزمه إبطال مفاعيل تلك الظروف الموضوعية التي أفضت إليه في المقام الأول، وهذا ما لا مؤشرات عليه، وذلك ضمن المدى المنظور للأوضاع الفلسطينية والإقليمية، وكذلك تلك الدولية المستجدة.

ويعد الدور الذي تؤديه في هذا المسار مجموعات المقاومة شبه المنظَّمة دورًا محوريًا، إذ إنَّها تحفِّز «البيئة الحاضنة» في الضفَّة الغربية من حولها، وتربك بصورة كبيرة عمل أجهزة «التنسيق الأمني»، إضافة إلى أنَّها تمثِّل نواة استقطاب للمقاومين الجدد، وتمثِّل أيضًا مثالًا يحتذى به، يمكن استنساخه في مناطق جديدة في الضفَّة الغربية، على غرار استنساخ مجموعة «عرين الأسود» لتجربة مجموعة «كتيبة جنين».

ولعل مجموعة «عرين الأسود»، كانت الأقدر من بين المجموعات الأخرى، على إرباك عمَل أجهزة «التنسيق الأمني»، إذ إن أكثرية عناصرها، مع كونهم ينحدرون من خلفيات فصائلية فلسطينية متعدِّدة، هم من أبناء حركة «فتح». لذلك قد نجحت مجموعة «عرين الأسود» في استثارة الروح الوطنية لدى قطاعات واسعة في حركة «فتح»، في حين كانت على الأرجح ستستدعي نقمة «فتح القبيلة»، لو كانت أغلبية عناصرها تنحدر من فصيل فلسطيني آخر منافس.

لكن في كل الأحوال، تظل هذه المجموعات المقاوِمة في الضفَّة الغربية على تعدُّدها، تمثِّل «حالةً مقاوِمةً»، وذلك ضمن مسار مستمر، لكن تلزمه خطوات إضافية كي تكتمل فاعليته، ليصير مؤثرًا إلى الدرجة التي يمكنه معها من تحقيق إنجازات ملموسة، على طريق تحرير كامل الأرض الفلسطينية من نهرها إلى بحرها.

ويكفي في هذه المرحلة، أن تبقي هذه المجموعات المقاوِمة على حالة الاشتباك مع الاحتلال متَّقدًا، بحيث تكون ملهمةً للجيل الفلسطيني الصاعد، على اختلاف انتماءاته الفصائلية، المتحمس إلى مقارعة الاحتلال، وأن تكون هذه المجموعات المقاوِمة نواةً تكبر وتقوى مع مرور الزمن، وهو ما سيفضي حتمًا إلى توسع هذه «الحالة المقاوِمة»، لتصل إلى مدنٍ أخرى في الضفَّة الغربية، الأمر الذي سيفاقم من ضعف القبضة الأمنية لأجهزة «التنسيق الأمني»، ويعمِّق من عزلتها داخل المجتمع الفلسطيني.

وحينها، تغدو الأرض ممهدةً أمام قوى المقاومة في فلسطين، وكذا الإقليم، لتدعم تشكيلات المقاومة الناشئة في ساحة الضفَّة الغربية، بما يقتضيه الأمر لتحقيق نقلةٍ أخرى على مسار إزالة «الكيان المؤقت»، ولا يعد فرض الانسحاب على الاحتلال من الضفَّة الغربية، وتفكيك المستوطنات، من دون قيد أو شرط، بالأمر غير الواقعي في هذه الحقبة، وذلك ضمن موازين القوى المستجدة، فإجبار الاحتلال على الانسحاب سابقًا تحت ضربات المقاومة، من دون قيدٍ أو شرطٍ، من جنوب لبنان، وبعدها من قطاع غزَّة، بات تكراره في الضفَّة الغربية في متناول اليد □

التموقعات الجيوستراتيجية للقوى البحرية في المواقع الجيوسياسية المتاخمة للمنطقة العربية

عبد الرحيم رحموني(*)

جامعة سعيدة، مولاي الطاهر ـ الجزائر.

مقدمة

تعَدّ المنطقة العربية من بين أهم النقاط الحساسة ذات المجال الجيوسياسي الحيوي وفقًا لما تعرفه سياقات السياسات العالمية، فهي من جهة ذات مجالات محورية قائمة على امتلاكها كل مقومات القوة الشاملة التي قد تجعل منها إحدى أبرز القوى الدولية لو أحسنت استخدامًا، ومن جهة أخرى تحظى بجملة من الإغراءات الجيوسياسية لبقية الفواعل، وهو ما يمكن إرجاعه إلى أنّ المنطقة العربية عانت في مراحل سابقة الاستعمار الذي لا يزال يلقي بظلاله عليها، وبخاصة أنّ الرغبة في النفوذ داخل المنطقة لا تزال الصبغة المحورية لكل المبادرات التي تكون فيها المنطقة العربية أحد الأطراف.

كما أن هذه الرؤية الجيوسياسية التي جعلت المنطقة العربية إحدى أهم النقاط العالمية أهمية أكدت في مرات كثيرة مكانة المنطقة ضمن الحسابات الخارجية، أو كما يطلق عليها «الفاعل الخارجي» ودوره داخل المنطقة. ومن دون الغوص أكثر في تأثيرات الفاعل الخارجي في المنظومة الشاملة العربية سيتم التركيز على أبرز القوى البحرية المتمركزة أو التي لها تداخلات مع الإقليم العربي، بدءًا بالولايات المتحدة الأمريكية مرورًا بروسيا وتركيا وإيران.

أولًا: البحرية الأمريكية والمجالات الحيوية العربية: الفاعلية والتموقع

تعَدّ البحرية الأمريكية من بين أهم القوى البحرية المحاذية للمنطقة العربية، ذلك أنّها تمثل مكوّنًا محوريًا ضمن المنظومة البحرية العالمية، من منطلق أنها قوة بحرية دولية تكتسب مركزيتها من موقع الولايات المتحدة الأمريكية ضمن منظومة السياسة العالمية، وعلى افتراض حيويتها فإنه

(*) البريد الإلكتروني: abderrahimrahmouni99@gmail.com

وجب على الباحثين العرب في الشؤون العسكرية والحربية الإلمام أكثر بجوانب كثيرة مرتبطة ومتداخلة مع هذه التموجات.

بحسب قائد سلاح مشاة البحرية العميد جيمس تي. كونواي وقائد العمليات البحرية في البحرية الأمريكية الأميرال غاري روغهيد وقائد خفر السواحل الأميرال ثاد و. ألين فإن القوات البحرية الأمريكية قادرة بصورة محورية على الاستجابة لمتطلبات الأمة الأمريكية لمواجهة الأزمات من جميع الجهات البحرية القائمة بالدفاع عن الوطن، وهذا من خلال الاستخدام الفعال لأجهزة الاستشعار والأسلحة المدعمة ببنية تحتية استخباراتية ولوجستية شاملة، وفي هذا السياق فإن للبحرية موقعًا مركزيًا ضمن السياسات العامة العسكرية للولايات المتحدة الأمريكية معزِّزة بذلك متطلبات الأمن القومي الذي يعدّ لب السياسة الأمريكية. تجدر الإشارة هنا إلى أنّ الأمن في أي فاعل دولاتي يمثل محورًا أساسيًا في السياسات العامة للدول تؤكده طبيعة تكوينات القوات البحرية التي تتأسس على الدقة وفعالية تدريب الأفراد على التصدي لكل المخاطر التي تهدد الأمن الأمريكي[1].

لا يختلف منظور الولايات المتحدة عن بقية منظورات الفواعل الأخرى في مدى مركزية القوات البحرية ضمن البناء الاستراتيجي للقوات العسكرية، عزز من ذلك استفادة أمريكا من التطور التكنولوجي الذي بلغته والذي عرفت كيف توظفه لخدمة أبنيتها البحرية، سواء في المعدات القتالية أو في البنية التحتية، الأمر الذي أكده الخبراء الجيوستراتيجيون في تطلعاتهم إلى جعل القوات البحرية الأمريكية القوة البحرية المسيطرة على المناطق المحورية في الساحة الأمنية العالمية، وهو ما يُلاحظ أساسًا في إسهامات علماء الجغرافيا السياسية البحرية من خلال توظيفهم أطر النظرية الجيوسياسية البحرية ميدانيًا.

من المفيد الذكر أنّ الأهداف المحددة لسياسات الولايات المتحدة تجاه البحر الأبيض المتوسط عام 1982 بحسب سيرو إليوت زوبو تحددت حينما دخلت الولايات المتحدة في السياسة المتوسطية حقبة ما بعد الحرب، وبخاصة أنّ مهمة الحفاظ على توازن القوى مع الاتحاد السوفياتي هي في الأصل المهمة المركزية لهذه السياسة، وهو ما تبرزه مركزية الأسطول الأمريكي السادس، كما جاء هذا التوجه لمساعدة الدول الأوروبية ضد الضغوط العسكرية السوفياتية. وعليه فإنّ للكيان الإسرائيلي مكانة مركزية ضمن السياسات الأمريكية في كل النواحي وهو الأمر الذي عكسته السياسة المتوسطية الأمريكية التي تأسست للحفاظ على هذا الكيان، أضف إلى ذلك أنّ كل هذه السياسات إنّما تهدف الولايات المتحدة الأمريكية من ورائها إلى تعزيز أمنها القومي والإقليمي والدولي وبخاصة في المسطحات المائية في ظل الحفاظ على التماسك السياسي لحلف الأطلسي ودعم أطروحات الديمقراطية[2].

من خلال ذلك حمل هذا التوجه ثلاثة سياقات مختلفة متباينة فيما بينها، يرتكز السياق الأول على ضرورة بناء قوة عسكرية قادرة على حماية الأمن الأمريكي ضد التهديدات الأمنية، وفي الوقت

---

(1) James T. Conway, Gary Roughead and Thad W. Allen, «Naval Doctrine Publication 1 -Naval .Warfare,» (United States of America, March 2010), p. 45

(2) Ciro Elliott Zoppo, "The Mediterranean In American Foreign Policy,» *Revista de Estudios Internacionales* (Institutes of International Studies), vol. 3, no. 1 (January-March 1982), pp. 71- 72.

نفسه تعزيز مكانة أمريكا كقوة عظمى في الساحة العالمية؛ في حين يرتكز السياق الثاني على مقاربة ناعمة تسعى أمريكا من خلالها لمساعدة القوى الأوروبية من أجل استعادة مركزها ضد الاتحاد السوفياتي؛ وصولًا إلى السياق الأخير وهو حماية الكيان الإسرائيلي من الهجمات العربية أو من القوى المناهضة لوجوده، وهو ما يعدّ أكثر فاعلية إذا ما تم الاعتماد على وزن اللوبي الإسرائيلي في صنع السياسة العامة الأمريكية.

الشكل الرقم (1)
الأساطيل البحرية الأمريكية

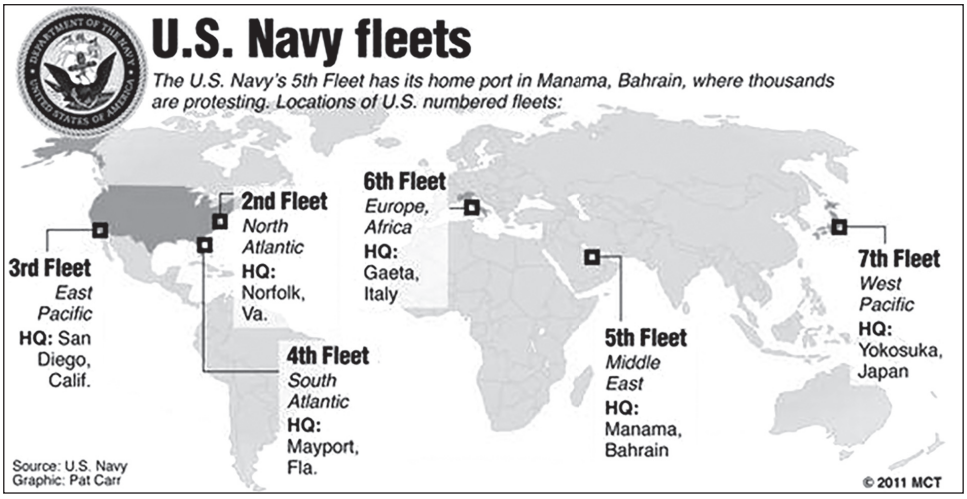

المصدر: <https://bit.ly/3E6BrM0>.

تجدر الإشارة إلى أنّ مهمات القوات البحرية الأمريكية في البحر الأبيض المتوسط المحاذي لكثير من الأقاليم العربية تتنوع بين الترقب والاستراتيجيا والتدخل، إذ تمثل الاستعادة التكتيكية للطائرات مهمة محورية جديدة للقوات البحرية نجحت خلال النزاع في البوسنة، وهي وحدة جوية مساعدة لسلاح البحرية، أما مهمة الاستطلاع فهي مركزية في أي قوة مهما كانت تشكيلاتها، وهي تعمل على جمع البيانات حول المواقع والأفراد وتحليلها ومن ثم دراستها، مع استخدام الأقمار الصناعية الخاصة والطائرات والسفن والغواصات وتقنيات جمع الاستخبارات البشرية لجمع أنواع مختلفة من المعلومات الحيوية عن العدو[3]، حيث جاء في موقع The Sofia Globe أنّ إحدى السفن القيادية التابعة للأسطول السادس الأمريكي قد دخلت إلى البحر الأسود الأسبوع الأول من تموز/ يوليو 2018 وهي بذلك ثاني سفينة تقوم بهذه الطلعات في غضون أيام بعد مدمرة الصواريخ USS Arleigh Burke DDG-51. وبحسب القيادة المركزية في الأسطول السادس الأمريكي فإنّ سفينة القيادة من طراز Mount Whitney Blue Ridge-class ستقوم بعمليات أمنية بحرية لتعزيز

(3) Timothy E. Kalley, «Importance of United States Naval forward Presence in Mediterranean Affairs,» (Master's Thesis, Naval Postgraduate School, 2001), pp. 69- 71.

الاستقرار البحري الإقليمي، إضافة إلى تعزيز الاستعداد المشترك والقدرات البحرية بين الدول المنضوية في حلف الناتو[4].

كما أنّ هذه الترسانة شاركت في تمرين سي بريز 2018 (Sea Breeze 2018) انطلاقًا من أنّه يعَدّ تمرينًا سنويًا يُجرى في البحر الأسود، وبحسب قيادة الأسطول السادس سيركز هذا التدريب على كثير من النقاط الميدانية في مناطق الحرب، بما في ذلك عمليات الاعتراض البحري والدفاع الجوي والحرب المضادة للغواصات وتكتيكات السيطرة على الأضرار والبحث والإنقاذ والحرب البرمائية[5]. كما تطرق موقع **مباشر** في إحدى الدراسات المنشورة لديه إلى أنّ الأسطول السادس الأمريكي يتكون من سفينة لقوات الإنزال، وسفينتين نوويتين حاملتين للطائرات، و4 طرادات صاروخية، و15 مدمرة مزودة بصواريخ موجهة من طراز «آرلي بيورك»، و5 سفن هجومية برمائية من طراز «وسب»، و4 غواصات نووية من طراز «فيرجينيا»، و175 طائرة، و21 ألف عسكري. وهي تشكيلة تعدّ على قدر كبير من الفعالية قامت بكثير من العمليات المحورية في البحر المتوسط كالوقوف أمام السوفيات والتدخل المباشر في ليبيا[6].

يضاف إلى ذلك مركزية تدريب أفراد القوات البحرية الأمريكية على الاستخدام الأمثل للعتاد القتالي وفي الوقت نفسه على تخطيط أفضل لتحقيق أعلى قدر من المكاسب، إذ إنّ التدريب المادي الذي يرتكز على ضرورة تحسين الأداء القتالي للقوات البحرية ينطلق في خضم التوجهات الحديثة للقوى البحرية في الفضاءات البحرية العالمية والذي يرتكز على ضرورة سيطرة طرف على طرف آخر، في سياق تحسين أدائهم في مجال التخطيط الحربي الذي تسعى وفقه القوة البحرية الأمريكية إلى استغلال كل المقومات التكنولوجية لتحقيق أعلى قدر من المكاسب باستخدام أدنى قدر من القدرات العسكرية، وهو منظور يكاد يكون لب السياقات الدفاعية والهجومية للقوات البحرية الأمريكية.

كما تمتلك البحرية الأمريكية بحسب الباحث تيموثي إي كالي (Timothy E. Kalley) القدرة على شن ضربات صاروخية بعيدة المدى ودقيقة من السفن والغواصات كطرادات إيجيس كروزر (Aegis Cruisers) من طراز تيكونديروغا (The Ticonderoga-class) ومدمرات سبراونس (Spruance-class Destroyers) ومدمرات أرلي بيرك (Arleigh Burke-class Destroyers)؛ وهي تحمل جميعها صواريخ توماهوك عالية الدقة بحرية لضرب المواقع على اليابسة، كما أدّت قدرة قوات البحرية على توفير الردع إلى تعزيز الموقع الأمريكي في المحيطات كما أن هذه القوات قادرة على التدخل المسلح[7]. وفي هذا السياق يرى الخبير بيتر سوارتز (Peter M. Swartz) أن الحركية التي تعرفها البحرية الأمريكية الخاصة بالجاهزية والفعالية والمؤسَسة على التطوير الفعلي

---

(4) The Sofia Globe Staff, «US Sixth Fleet's USS Mount Whitney Enters Black Sea,» The Sofia Globe, 9 July 2018, <https://bit.ly/3fGxqVo> (accessed on 7 September 2018).

(5) Ibid

(6) « بالصور ـ 9 معلومات عن الأسطول السادس الأمريكي في البحر المتوسط،» موقع «مباشر»، 11 نيسان/أبريل 2018، <https://bit.ly/2NsRL0i> (اطلع عليه بتاريخ 7 أيلول/سبتمبر 2018).

(7) Kalley, «Importance of United States Naval forward Presence in Mediterranean Affairs,» pp. 71 - 72.

لترسانتها المنشورة في كثير من النقاط الجيوستراتيجية في المسرح العالمي؛ لهي الأساس الذي ستحافظ به الولايات المتحدة الأمريكية على الأمة الأمريكية في ظل تحقيق الازدهار الاقتصادي والأمن العسكري والحرية السياسية من خلال الصيانة والدفاع عن نظام عالمي يحقق المنفعة المتبادلة لأمريكا[8].

تعَدّ روسيا من بين أكثر القوى العالمية فاعلية في المجال الحربي، وتستند تصوراتها النظرية والميدانية من موقعها – الاتحاد السوفياتي سابقًا ـ كقوة عظمى ساهمت في قلب موازين العالم، فكانت بذلك القوة العسكرية الوحيدة المنافسة للولايات المتحدة الأمريكية.

رأى كان كازابوغلو (Can Kasapoglu) أنه من المتوقع أن تطلب إدارة الرئيس الأمريكي دونالد ترامب مزيدًا من المساهمات من حلفائها في الناتو من منطلق أن وضع الحلفاء البحري في البحر المتوسط قد يكون أكثر من قضية اقتصادية دفاعية وقضية سياسة خارجية في مقابل حسابات استراتيجية عسكرية معنية، ومن ثم فإنه نظرًا إلى زيادة الإنفاق العسكري الأمريكي في حلف الناتو يجب أنّ تقترن الجهود الأمريكية بزيادة ملموسة في القدرات البحرية للدول الحليفة، لو تمّ التسليم بما جاء سابقًا فإنّ الاهتمام البحري الأمريكي لم يقتصر على حوض البحر المتوسط وغرب المحيط الهادي والقطب الشمالي، الذي كان ضمن اهتمامات البحرية الأمريكية منذ الحرب الباردة؛ بل تعداه ليشمل الاهتمام بمنطقة الخليج العربي، وهو ما أدى إلى تعزيز هذه الحسابات بواسطة هياكل القوة المشتركة وقدرة عمليات النشر المرة من الولايات المتحدة القارية، وبالفعل فقد قامت البحرية الأمريكية بنشر أنظمة متقدمة في شرق البحر الأبيض المتوسط بسبب التحديات الحالية من ضمنها مدمرات كمدمرة USS Arleigh Burke DDG-51 وسفينة القيادة Mount Whitney Blue Ridge-class[9].

ثانيًا: البحرية الروسية وجيوبوليتيك اختراق الإقليم العربي

تعَدّ روسيا من بين أكثر القوى العالمية فاعلية في المجال الحربي، وتستند تصوراتها النظرية والميدانية من موقعها – الاتحاد السوفياتي سابقًا ـ كقوة عظمى ساهمت في قلب موازين العالم، فكانت بذلك القوة العسكرية الوحيدة المنافسة للولايات المتحدة الأمريكية. قبل البدء بالحديث بالتفصيل عن البحرية الروسية أمكن القول بأن البحرية الروسية يرجى منها تحقيق ثلاثة أدوار أساسية وجدت لها

(8) Peter M. Swartz, «American Naval Policy, Strategy, Plans and Operations in the Second Decade of the Twenty-first Century,» (Center for Naval Analyses, January 2017), p. 67, <https://bit.ly/3NNWUwz> .

(9) Can Kasapoglu, «Naval Balance of Power in the Mediterranean and Political Military Trends,» Mediterranean Dialogue Series (Konrad-Adenauer-Stiftung), no. 7, p. 10, <https://bit.ly/3fBUpRx>.

في الأصل، وهي بهذا المنطق قائمة على مقومات كثيرة ترتكز عليها القاطرة العسكرية الحربية الروسية سواء في إقليمها أو في المناطق الجيوسياسية التي تسعى لتعزيز نفوذها فيها.

يتأسس الدور الأول على مهمة محورية جدًا تكاد تكون مشتركة في جميع العقائد العسكرية للفواعل الدولاتية، وهي مهمة ردع العدوان أو التهديد بالعدوان في المسارح البحرية ضد روسيا أو حلفائها؛ وبطبيعة الحال صد العدوان إن حدث؛ في حين تتأسس المهمة أو الدور الثاني حول الدفاع عن الحدود البحرية الروسية التي تعد خطوطًا حمرًا لا يمكن لأي فاعل معادي تعدّيها، في المقابل فإن الدور الآخر الذي لا يقل أهمية عن سابقيه يتمحور حول حماية المياه الإقليمية وكذا الأنشطة الروسية إضافة إلى المصالح الروسية في المحيط العالمي[10]. هذه الأدوار تختلف في سياقاتها عن الأدوار الأمريكية الساعية لحماية مصالحها ومصالح حلفائها بالأساس، حيث ترتكز القوات البحرية الروسية على حماية مصالحها بالدرجة الأولى ويقع على عاتقها قدسية المصالح القوية ضد أي أخطار أو تهديدات أمنية.

في حين أنّ البحرية الروسية، ونظرًا إلى التطور الكبير على المسرح البحري العسكري أصبح لزامًا عليها التصدي لعدد العقبات والتحديات التي تقف في وجه البروز المركزي الروسي في كل نقطة قريبة من إقليمه الجغرافي البراغماتي. وهنا فإنّ المشكلة الحقيقية التي لا تزال تتخبط فيها البحرية الروسية هي أنّ روسيا لا تزال تعتمد على التوريد الخارجي الذي أصبح لازمًا نظرًا إلى الحداثة في المعدات الأجنبية، أضف إلى ذلك أنّ هذه الحداثة التي تتمركز أساسًا في الفاعلية والدقة لا بد للبحرية الروسية من مواكبتها نظرًا إلى حساسية المجال البحري العالمي وبخاصة إذا تعلق الأمر بالتطور التكنولوجي العسكري، ومن ثم فإنّ هذا الاعتماد على المصدر الخارجي يعدّ بطبيعة الحال عامل ضعف لا بد للروس من الحذر من مغبته، أضف إلى ذلك أن روسيا لم تتمكن حتى الآن من تأمين القواعد الخارجية التي تعد أساسًا محوريًا لاستراتيجيتها البحرية[11]، قد يتساءل كثيرون هل تستورد روسيا معداتها الحربية من الخارج؟ تبقى الإجابة حبيسة التخطيط الحربي الروسي وإدراكه لمدى التطور التكنولوجي الذي بلغته بعض الدول في صناعاتها الحربية.

جدير بالإشارة أنه منذ عام 2008 شرعت موسكو في تبنّي برنامج واسع النطاق للتوسع البحري الغرض منه إعادة بناء الأسطول الحربي وهو كجزء من عملية إتمام الإصلاح العسكري الشامل، كذلك تلقت إعادة بناء الأسطول أولوية محورية ضمن برنامج التسلح المسطر 2011 ـ 2020، ومن ثم تعمل روسيا على تعزيز القدرات البحرية الحربية التي تعد في عالم التكنولوجيا الحربية القوة الضاربة. كذلك لم يقتصر تطوير البحرية على الجانب المادي بل تعدّاه إلى تبني خطط واستراتيجيات تطويرية ضمن خطة العمل 2013 – 2020 والتي تعد من مركزيتها الحيوية خريطة طريق ضمن التطوير الحربي، أضف إلى ذلك أنه بالتزامن مع هذه الخطة من المتوقع أن ترتفع النسبة المئوية للمعدّات الحديثة في البحرية الروسية من مستوى يقارب 40 بالمئة في عام

Yoshiaki Sakaguchi, «Russia's Policy on Strengthening the Navy and the Defense Industry,» *NIDS*(10) *Journal of Defense and Security* (15 December 2014), p. 52.

Yoshiaki Sakaguchi, «Briefing Memo-Russia's Military Reform and the Navy,» *The National*(11) *Institute for Defense Studies News*, no. 172 (January 2013), pp. 3-4.

2013 إلى أكثر من 70 بالمئة بحلول عام 2020 [12]، وهو ما يعدّ مؤشرًا حقيقيًا على الاستراتيجية العسكرية التي تتبناها روسيا في سياق بناء أسطولها البحري الحربي بصورة متجددة دائمًا، مع الأخذ في الحسبان سياسات صانع القرار الروسي الذي يرتكز على التخطيط الحربي وإعادة إرجاع روسيا إلى ما كانت عليه قبل تولّي فلاديمير بوتين مقاليد السلطة.

لنقل إذًا إنّ الإصلاح الدفاعي الذي يعّدّ ركيزة محورية ضمن الهندسة الدفاعية الروسية هو في الأصل عبارة عن تغييرات وإصلاحات في المؤسسة العسكرية التي لا بد من أن تأخذ التطور التكنولوجي الهائل في الحسبان، شريطة الحفاظ على المقومات والمبادئ المركزية لموسكو، ومن ثمّ وجب إعادة النظر في حجم القوات في كل السياقات التي وجب عليها الجاهزية للتعامل مع الرهانات والتهديدات الدولية والإقليمية[13]، عزز من ذلك نشر البحرية الروسية عدة سفن حربية في البحر الأبيض المتوسط مثل الأميرال كوزنيتسوف (Admiral Kuznetsov) وبيتر فيليكي (Petr Velikiy) وفرقاطات من فئة أودالوي (The Udaloi-class Frigates) بحسب رأي الخبير الاستراتيجي ريتشارد كونولي (Richard Connolly) في دراسته المتعلقة بالقيود الاقتصادية والتكنولوجية على طموحات روسيا البحرية، التي تعبّر بالضرورة عن السياسة العسكرية البحرية الحازمة التي ترتكز عليها روسيا حاليًا، وهو الأمر نفسه الذي عززت منه طبيعة السفن المنتشرة التي تتميز بالعصرنة والدقة العالية كفرقاطة الأميرال غريغوروفتش (Admiral Grigorovich Frigate) وطرادة بويان فئة M-(Buyan M-class Corvettes) وهي تكوينات مهمة ومركزية ضمن البحرية الروسية[14]، الأمر الذي يؤكد ازدواجية تبنّي روسيا لاستراتيجيات الحفاظ على المقدرات العسكرية التي تتمتع بها إلى جانب تبنّيها لسياقات تطوير منظوماتها البحرية الحربية للحفاظ على أمنها في المسطحات المائية ذات التماس الجغرافي أو الاستراتيجي مع روسيا.

تجدر الإشارة هنا إلى أن حرب الانتشار الروسي البحري في مواقع قريبة من إقليمها من عام 1731 إلى غاية 1991 مرت بمرحلتين أساسيتين، المرحلة الأولى تتحدد كرونولوجيًا من 1731 إلى 1945 التي تتلخص في عدد من النقاط المحورية المهمة تبدأ بتأسيس وجود البحرية الروسية الدائمة في الشرق الأقصى حتى عام 1905 تخلله التوجه إلى النشاط البحري الدبلوماسي في منطقتي المحيط الهادي والمحيط الهندي من 1850 إلى 1905، وتنخفض فيما بعد القوة البحرية الروسية (من 1905 إلى 1932) ثم تستعيد قدرتها وقوتها من جديد من 1932 إلى 1945، لتبدأ مرحلة جديدة من المواجهة البحرية في المحيط الهادي والمحيط الهندي من عام 1945 إلى حين سقوط الاتحاد السوفياتي، وهي مرحلة تميزت بتطورات مهمة في البحرية الروسية المرتكزة أساسًا على الجيوبوليتيك البحري[15]، وهي مسارات تاريخية تؤسس لمنظومة بحرية عالمية تتمتع بها

(12) Paul Schwartz, *Admiral Gorshkov Frigate Reveals Serious Shortcomings in Russia's Naval Modernization Program* (Washington, DC: Center for Strategic and International Studies (CSIS), 2016), p. 1.

(13) Yuri Krupnov, *Defense Reform and the Russian Navy* (Roma: Nato Defense College, 2006), p. 2.

(14) Richard Connolly, *Economic and Technological Constraints on Russia's Naval Ambitions* (Stockholm: Swedish Defence Research Agency FOI, 2016), p. 2.

(15) Alexey D. Muraviev, *The Russian Pacific Fleet: From the Crimean War to Perestroika*, Papers in Australian Maritime Affairs; no. 20 (Canberra, Australia: Department of Defence, Sea Power Centre, 2007), pp. 3-31.

روسيا في الفضاء الحربي البحري مع الأخذ في الحسبان وزن المقاربة التاريخية وخبرة البحرية في الحروب كمدخلات أساسية لقياس القوة الدفاعية والهجومية للبحرية الروسية.

وهكذا فإنّ تحديد أهداف السياسة البحرية الروسية يتوقف على المتغيرات المحورية التي تمثل لب هذه السياسة، حيث تؤدي الظروف الجيوسياسية والوضع العسكري العالمي دورًا بارزًا في تحديد هذه الأهداف من منطلق أنها تمثل أبرز المتغيرات المؤثرة في كل الفواعل، مع العلم أن للوضع الاجتماعي والاقتصادي الروسي مهمة محورية في هذا التحديد القائم على تضافر عدة عوامل على كل الصعد في ظل التقدم التكنولوجي العالمي وفعالية النشاط البحري[16]. أما في صلب الحديث عن القواعد البحرية الروسية الخارجية بحسب الباحث في الشؤون العسكرية كريستوفر هارمر في دراسته الصادرة سنة 2012 عن معهد دراسة الحرب فإن ميناء طرطوس السوري يمثل القاعدة البحرية الوحيدة خارج روسيا التي لا يزال يسيطر عليها الجيش الروسي، وبخاصة أن هذه القاعدة البحرية تعدّها روسيا محورية في استراتيجيتها القائمة على التوظيف الجيوسياسي لديناميات السيطرة في الشرق الأوسط[17].

الشكل الرقم (2)
القاعدة البحرية الروسية طرطوس

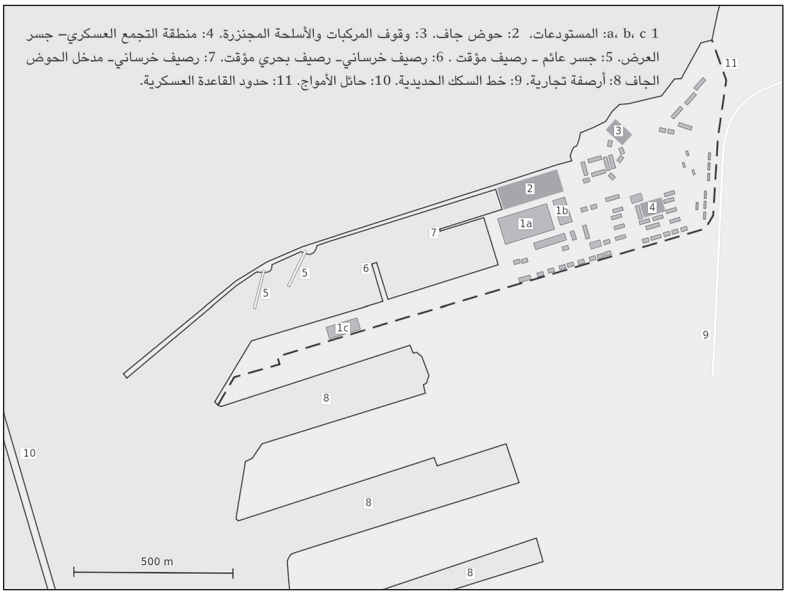

المصدر: Christopher Harmer, *Russian Naval Facility Tartus* (Washington, DC Institute for the Study of War - ISW, 2012), p. 2.

(16) Researcher, «The Marine Doctrine of the Russian Federation for the Period till 2020,» Center for Strategic Assessment and Forecasts, 28 September 2017, <https://bit.ly/3E6UKVH> (accessed on 6 September 2018).

(17) Christopher Harmer, *Russian Naval Facility Tartus* (Washington, DC Institute for the Study of War - ISW, 2012), p. 1.

كل هذا في ظل مزاعم صانع القرار الروسي الذي يؤكد أطروحة أن هذه القاعدة البحرية تحول دون حدوث حرب أهلية في الوسط السوري قد تؤثر في الداخل الروسي، وهو ذات الأمر نفسه الذي يؤكد العلاقة المركزية بين النظامين الروسي والسوري، ومنه فإن استغلال موسكو لهذه القاعدة الاستراتيجية إنما هو في الأساس قائم على الأهمية الجيوستراتيجية لقاعدة طرطوس[18]. جدير بالإشارة إلى أنّ العقيدة البحرية الروسية الجديدة لسنة 2015 تغيرت عما كانت عليه لسنة 2001 من حيث إنه خلال هذه السنوات تطور الاقتصاد الروسي بنسب عالية في عدة مجالات، كما أنّ التخطيط الاستراتيجي أصبح ذا فعالية وجدّية يتم توثيقه بصفة منسقة ومدروسة قائمة على التماسك وفق المعطيات الراهنة بالتركيز على أسس العقيدة العسكرية الروسية. كما أن للبيئة الدولية دورًا كبيرًا في هذا المجال من منطلق أنها في وقت مضى كانت المخاوف الروسية تنحصر فقط في حلف شمال الأطلسي، في حين تعمل روسيا في الوقت الحالي على تقوية أساطيلها في كل المياه الموجودة فيها من منطلق امتلاكها عوامل قوة جديدة ومتجددة، ومن ثم فقد توسع إدراك صانع القرار للتهديد الخارجي لروسيا بتكاثر الأبعاد الجديدة للحروب، وما يمكن تأكيده هنا هو أن كل عقيدة عسكرية تتبناها روسيا ترتكز بالأساس على مبادئ حرمة السيادة الروسية على أقاليمها وحماية الحدود الروسية من كل تهديد مهما كان نوعه و مصدره[19]، الأمر الذي كشف عن رغبة روسيا في إعادة بناء أمجادها التاريخية كقوة ذات فاعلية قصوى في الفضاء البحري العالمي، وهو ما يؤكد السياسات الجيوسياسية التي تتبناها روسيا في فضائها القاري والعالمي.

مجال إيران الحيوي يحتم عليها التعامل الفعلي مع الفواعل الدولاتية القريبة منها رغبة في حماية مجالها الإقليمي من التهديدات التي تمثل عنصراً مشتركاً بين جيرانها.

هذا الطرح يقود إلى أن روسيا في عهد بوتين دخلت في مرحلة من النزعة القومية الشديدة التدخل قائمة على المناهضة الكاملة للغرب لتحقيق أمنها وأمن إقليمها، إذ أصبحت مهمة البحرية تتمحور بين الردع النووي والتحكم في المجال البحري والمياه المجاورة، وبخاصة المجالات الطاقية في البحار البعيدة. ومن ثم فإن القومية بحسب عدد من المهتمين بالشأن الروسي فإن القومية أكسبت موسكو طبيعة يغلب عليها الطابع الدفاعي أكثر من الهجومي، إذ إن ما قد يعرقل البحرية هو التقشف في الميزانية، وهذا ناتج من العقوبات الغربية وانخفاض أسعار الطاقة الذي

(18) Ibid., p. 1.

(19) Richard Connolly, *Towards a Dual Fleet? The Maritime Doctrine of the Russian Federation and the Modernisation of Russian Naval Capabilities* (Zürich: Center for Security Studies, 2017), p. 2.

سيعمل على تأخير الخطط المتعلقة بتطوير البحرية[20]. وهذا يؤكد الدور البارز في التوجه الذي يتبناه صانع القرار في روسيا في توظيف الفكر الاستراتيجي التاريخي لإعادة إحياء الأمجاد التي كان عليها الاتحاد السوفياتي.

ثالثًا: البحرية الإيرانية وديناميةاستغلال مقومات القوة لتعزيز النفوذ

إنّ الموقع الاستراتيجي لإيران القريب من بعض البلدان العربية هو الأساس الذي سيتم التركيز عليه في هذا المستوى من الدراسة، آخذين عددًا من النقاط التي قد توضح الديناميات الحيوية للبحرية الإيرانية في الفضاء الإقليمي والدولي. فمجال إيران الحيوي يحتم عليها التعامل الفعلي مع الفواعل الدولاتية القريبة منها رغبة في حماية مجالها الإقليمي من التهديدات التي تمثل عنصرًا مشتركًا بين جيرانها. وعليه فإنّ المجال البحري يعد من أبرز المجالات الحيوية في الأمن الدولي وحتى الإقليمي والأكثر منه الداخلي، من منطلق أنّ الأمن الداخلي للدولة مرهون بمدى فعالية سياقاتها وتشكيلاتها الأمنية في مواجهة التهديدات والحفاظ على الأمن الوطني للدولة ومن ثمّ حماية أمن الدولة والأفراد، وهو ما قد يمثل معادلة محورية في كل الدراسات الأمنية التي تأخذ في الحسبان الأبعاد الأمنية الجديدة كمجال لإعادة رسملة الأمن.

في هذا الشأن، فإنه نظرًا إلى المجال الحيوي لإيران والذي يعد أحد أعقد المجالات الحيوية العالمية ويتسم بكثير من بؤر التوتر، وهو في الوقت نفسه غني بنقاط القوة التي تسعى من خلالها كل الفواعل الدولية إلى تعزيز قواها مركزة على المجالات الجيوسياسية. أصبح لزامًا على إيران ونظرًا إلى رهانات الساحة العالمية إعادة النظر في مدى فاعلية قواها البحرية في الحفاظ على أمن مجالها الإقليمي والوطني.

يعود تاريخ البحرية الإيرانية إلى قرون مضت، وبالتحديد إلى نشأة الإمبراطورية الفارسية تحت حكم قورش العظيم خلال حقبة حكم الأخمينية (550 ق. م ـ 330 ق. م) والتي عرفت فيها الأساطيل البحرية عدة مشاكل كقضايا الولاء نظرًا إلى وجود بعض السفن الأجنبية ضمن أسطولها. إلا أنه في عهد زركيس (486 ق. م ـ 465 ق.م) عرفت البحرية تطورًا ملحوظًا، إذ وصل أسطولها البحري إلى 800 سفينة. حتى لا نغوص أكثر في الأعماق التاريخية المليئة بكثير من علامات الاستفهام، التي لا يمكن لباحث الأمن أن يعرف خباياها من دون اللجوء إلى المهتمين بالتاريخ وبخاصة التاريخ الإيراني، فالعصر الحديث بعد نهاية الحرب العالمية الأولى شهد بروز رضا شاه

(20) David Rudd, «The Russian Federation Navy Post-2015: Implications for Western Navies,» *Canadian Naval Review*, vol. 11, no. 1 (2015), p. 9.

كزعيم جديد لإيران عمل على تحديث القوة العسكرية الإيرانية في وقت تم اكتشاف البترول وهو عامل قوة يدفع إلى تعزيز القوات البحرية، لتبدأ بذلك سلسلة تطوير البحرية الإيرانية حتى سنة 1979. في بداية الحرب العراقية ـ الإيرانية 1980ـ 1988، تعرضت البحرية ـ الإيرانية لضربات قوية مباشرة عراقية، فردت إيران بضرب بعض الناقلات النفطية العراقية. بعد نهاية الأزمة أدركت إيران ضرورة إعادة تعزيز بنيتها البحرية التي تعرضت لاختراقات جمة من جانب العراق، وهو ما حتم إعادة النظر في تقوية القوات البحرية التي تعد الدرع الحامي لإيران، لتبدأ فيما بعد مرحلة جديدة من إعادة تطوير البحرية استمرت حتى سنة 2017 وتميزت بالفعالية والدقة العالية والقدرة على صد الهجمات المباشرة[21].

إنّ الفعالية الهائلة التي تمتلكها البحرية الإيرانية بكل تكويناتها القائمة على إدراك صانع القرار الإيراني لمكانة القوات البحرية في العصر الحديث؛ تستمر في التوسع والانتشار القائم على الفعالية الدفاعية والهجومية، ومن ثم فإنّ هذه التطلعات الإيرانية لمكانة القوات البحرية قائمة في الأساس من المجال الحيوي الذي تتمتع به إيران والذي يحتم عليها إعادة إنتاج استراتيجيات بحرية جديدة؛ تكون أكثر فعالية وتمثل بدورها عامل تهديد حقيقيًا في المنطقة[22]. أكد الوزن الجيوسياسي لإيران والذي يعَدّ حاضنًا جيوسياسيًا غنيًا بنقاط القوة التي تمثل معاملات فاعلية متحكمة في الوزن الدفاعي والهجومي للقوات البحرية الإيرانية.

من وجهــة نظر القائد في سلاح البحريـة الأمريكيـة جوشوا سي هيميس فإنّ هذا التطور الكبير الذي تشهده البحرية الإيرانية في الوقت الحالي والقائم على الدقة والسرعة لتشكيلات في البحرية، هو ما يشكل تحديًا كبيرًا للقوى الدولية والإقليمية، وبالأخص الأقاليم العربية، وبخاصة أنّ إيران تمثِّل أحد أبرز القوى المحورية المحاذية للمنطقة العربية، وعليه وجب على الولايات المتحدة الأمريكية كقوة دولية مركزية التركيز على تعزيز الشراكات البحرية القائمة على التعاون مع دول مجلس التعاون الخليجي لمواجهة التهديد الإيراني، في ظل إجراء تقييمات شاملة مسحية لقدرة إيران على الحرب البحرية، وهو ما قد يحتم على الولايات المتحدة أخذ زمام القيادة في تدريب قوات التحالف البحرية لمواجهة الاستراتيجية الإيرانية المتطورة[23] التي تعد إحدى العقبات التي واجهتها البحرية الأمريكية في فضائها الإقليمي والقاري، يضاف إلى ذلك طبيعة صانع القرار في إيران المتغذية بالعداء تجاه كل ما هو مؤيد للكيان الإسرائيلي.

---

(21) *A Tale of Two Navies* (Washington, DC : États Office of Naval Intelligence, *Iranian Naval Forces:* Department of the Navy, 2017), pp. 7-9. Unis:

(22) Joshua Himes, «Iran's Two Navies: A Maturing Maritime Strate,» Middle East Security Report; 1 (Washington, DC: Institute for the Study of War ISW, October 2011), p. 23.

(23) Joshua C. Himes, «Iran's Maritime Evolution,» CSIS Middle East Program-Gulf Analysis Paper (Washington, Center for Strategic And International Studies, 2011), p. 6.

هناك من يرى أنّ السياق التاريخي للاستراتيجية الإيرانية الجديدة يبدأ في سياق الحرب الإيرانية ـ العراقية، وهو الأمر نفسه الذي تزامن مع ميلاد الجمهورية الإسلامية في إيران، قامت من خلالها البحرية الإيرانية بإعادة تشكيل قواتها البحرية مستغلة بذلك الخبرات المحلية التي تعد رائدة في هذا المجال نظرًا إلى التدريبات التي تقوم بها والتمارين التي تختبر قواتها من خلالها. في بداية الحرب أجرت إيران هجماتها بطريقة تقليدية على ناقلات النفط باستخدام السفن والطائرات والمنصات الساحلية، إلا أنّ هذه الاستراتيجية التقليدية لم تحقق لإيران أي نجاح حربي، لتبدأ في استخدام تشكيلات حربية جديدة تمثلت بالقاذفات الصغيرة لتنفيذ هجمات مفاجئة وكمائن ضد الطرف الآخر، وهو ما أكسب إيران تكتيكات جديدة حققت من خلالها على مدى ثلاثة عقود نجاحات بحرية للدفاع عن أمنها الداخلي والخارجي معزِّزة بذلك مكانتها كقوة إقليمية في الشرق الأوسط[24].

باختصار، إنّ العقيدة الحربية الإيرانية يحسب لها ألف حساب في المنطقة وحتى في الساحة العالمية ككل، ذلك أنها قائمة على مقومات القوة التي تعد لب أي معادلة حربية، دفاعية كانت أو هجومية، هذه العقيدة قائمة على خبرتها المكتسبة خلال الحرب الإيرانية ـ العراقية التي طورت إيران من خلالها استراتيجيتها العسكرية، وهو ما جعلها بطبيعة الحال رقمًا صعبًا في المعادلة الشرق الأوسطية والعالمية. وفي هذا السياق فإنّ القوات البحرية الإيرانية مثلت أحد أبرز الاستثناءات في الخبرة الحربية التي تم اكتسابها كما سبق القول بفعل الأزمات التي مثلت إيران فاعلًا أساسيا فيها، وهو بطبيعة الحال أمر يحسب لها ضمن النجاحات التكتيكية لتعزيز وجودها في المنطقة، وبخاصة أنّ استراتيجيتها البحرية الجديدة منذ تسعينيات القرن الماضي تم بناؤها على أسس مدروسة ذات فاعلية تستطيع من خلالها البحرية تنفيذ أي هجمة أو رد هجمة في أسرع وقت[25]، وهذا يؤكد الخبرة الحربية التي تتمتع بها البحرية الإيرانية والتي أوجدت لها مكانة محورية في سياق البعد الجغرافي والاستراتيجي لتمركزها في الشرق الأوسط، الأمر الذي يؤكد الدور الريادي – نوعًا ما ـ للبحرية الإيرانية المستفيدة من الكرونولوجية الجيوتاريخية.

---

(24) The Office of Naval Intelligence, «Iran's Naval Forces: From Guerilla Warfare to a Modern Naval Strategy,» (Report Presented to the Iranian Naval Forces) (Fall 2009), pp. 6- 26, <https://www.hsdl.org/c/view?docid=697317>.

(25) Fariborz Haghshenass, *Iran's Asymmetric Naval Warfare* (Washington, DC: The Washington Institute for Near East Policy, 2008), p. 25.

الشكل الرقم (3)
مضيق هرمز

المصدر: محمد كريم الخاقاني ومروان محمد الطيارة، «مستقبل التفاهم العُماني الإيراني في مضيق هرمز،» مركز البيان للدراسات والتخطيط، 6 أيلول/سبتمبر 2020، <https://www.bayancenter.org/2020/09/6301> (تاريخ الاطلاع 4 شباط/فبراير 2022).

يعد مضيق هرمز في الاستراتيجية الإيرانية إحدى أبرز النقاط الجيوسياسية المحورية ضمن استراتيجيتها ككل بمختلف تشكيلاتها، ذلك أنّه يمثل ممرًا بحريًا حيويًا ضمن الممار المحورية في الساحة العالمية، وهذا بحكم الموقع الذي يوجد في إحدى أبرز بؤر التوتر في العالم، أضف إلى ذلك أنّه يحمل أهمية حيوية في نقل النفط بين دول الخليج العربي[26]. هكذا يرى مايكل كونيل أنّ العقيدة العسكرية الإيرانية في مقامها الأول عقيدة دفاعية قائمة على ردع الخصوم المحتملين، وهو ما يؤكد احتمالية عدم سعي إيران إلى مواجهة مباشرة مع الولايات المتحدة الأمريكية، إلا أنّ هناك مجالًا واسعًا بحسب مايكل للتصادم، وبخاصة أنّ القيادة البحرية الإيرانية تشهد نوعًا من عدم التنسيق بين الحرس الثوري الإيراني والقوات المسلحة للجمهورية الإيرانية، وهو ما يمثل نقطة ضعف حقيقية في التخطيط العسكري الإيراني[27].

(26) The Office of Naval Intelligence, «Iran's Naval Forces: From Guerilla Warfare to a Modern Naval Strategy,» pp. 2-3.

(27) Michael Connell, «Iran's Military Doctrine,» The Iran Primer, 11 October 2010, <https://iranprimer.usip.org/resource/irans-military-doctrine> (accessed on 9 September 2018).

هذا السعي البحري الإيراني لتطوير المنظومة الحربية قابله بروز أزمات كثيرة في المنطقة التي أتاحت لإيران تأدية دور محوري فيها وبخاصة في ظل الحديث عن الاختراقات الإيرانية لبعض الأقاليم العربية كما حدث في سورية، الأمر الذي عقّد بدوره معادلة حل هذه الأزمة التي تعددت فواعلها وتعقدت حلقاتها بفعل تداخل الأدوار بين الفاعلين الدوليين والإقليميين. هذا التفاعل مع القضية السورية غذته البراغماتيات الجيوسياسية لتعزيز قوة الفواعل كون القوة محددًا رئيسيًا في العلاقات الدولة، ومن ثم فإنّ هذه التميزات العسكرية البحرية التي تزخر بها إيران جعلها في معادلة حساسة تكون فيها إيران فاعلًا محوريًا في كل قضايا منطقة الشرق الأوسط، وقوة بحرية محاذية للمنطقة العربية، وهو الأمر نفسه الذي قد يمثل خطرًا على الأقاليم العربية نظرًا إلى تذبذب العلاقات العربية ـ الإيرانية وبخاصة أنّ سياسة إيران قائمة على توظيف المتغير العقيدي كسببًا وتأييدًا لبراغماتيتها الخاصة في المنطقة العربية والأقاليم القريبة منها.

رابعًا: المنطقة العربية ضمن حسابات البحرية التركية

في البداية لا بد من الانطلاق من مسلمة أنّ تركيا تمثل تلك القوة الإقليمية التي يعدّها البعض دولية من منطلق أنّها أحد أبرز الفواعل الدولاتية في المعادلة العربية سواء في المشرق أو المنطقة المغاربية وما يتوسط هذين الإقليمين المحوريين، وهذا ما أكسب تركيا مكانة محورية ضمن حسابات الدول العربية بالإيجاب أو السلب؛ قابله في الوقت نفسه جيوبولتيك المنطقة العربية ضمن حسابات تركيا وبخاصة في منطقتي المشرق والمغرب.

كما أنّ لتغيير الموازين البحرية في شرق المتوسط انعكاسات على تركيا ربما يدفعها إلى إعادة النظر في ترتيب أولوياتها في المسطحات البحرية التركية وتلك القريبة من إقليمها، وهو ما حاولت تركيا من خلاله احتواء تدخل الولايات المتحدة وحلف الناتو في البحر الأسود.

فالقوات البحرية التركية تشير إلى العنصر العسكري المطلوب لتنفيذ الاستراتيجية البحرية للدولة التركية، إذ إنّ هناك علاقة وطيدة وتفاعلية بين الأسطول البحري والأسطول التجاري التركيين على مدار التاريخ، منذ أن وُجدت القوات البحرية، وهو ما أكدته الأهمية البالغة التي أدّتها البحرية في حماية الأسطول التجاري، ومع التطور الكبير الذي شهده العالم واستخراج النفط من البحار تحتم على تركيا إعادة بناء البحرية بما يتناسب والرهانات الحالية. وعليه، فإنّ هذا الدور الذي أدّته البحرية التركية ضمن مسارات الدولة وفَّر لها مكانة نوعية محورية وبخاصة أنها سبب من أسباب النمو الاقتصادي الذي تعرفه تركيا، فلا اقتصاد من دون توفير الأمن للأسطول التجاري ولا تطور حربي

للبحرية من دون اقتصاد قوي وفعّال، ومن ثمّ فإنّ البحرية التركية هي واحدة من أهم الأدوات في تنفيذ السياسة الخارجية التركية[28].

تحتل تركيا موقعًا استراتيجيًا مهمًا عند ملتقى ثلاث قارات وهو ما يعطيها نقاط قوة كافية لتعزيز النفوذ. ولعل المقوم الجيوسياسي لتركيا هو إحاطتها بثلاثة بحار؛ **البحر الأسود** وبحر **إيجه** و**البحـر الأبيض المتوسط**، وهو ما يمدها بمقوِّم مهم تستطيع من خلاله تعزيز القوة الشاملة العسكرية والاقتصادية. فموقعها هذا يحتم عليها امتلاك قوة بحرية محورية لأنها في هذا المجال الحيوي تكون محل أطماع في محيط يتسم بالتوتر وحالة عدم الاستقرار، وعليه، تعتمد تركيا على البحار حيث يعيش نحو نصف سكانها في المناطق الساحلية في حين يتم نقل السلع والبضائع المستوردة والمصدرة من طريق البحر وبخاصة بحر إيجه[29]. إنّ هذا المدخل المهم في دراسة القوات التركية يؤكد الدور البارز الذي تتمتع به البحرية التركية في المسطحات المائية سواء بطرق مباشرة أو بطرق غير مباشرة، يضاف إلى ذلك ملامستها لأبرز المسطحات المائية أهمية ولا سيما ما تعلق بالبحر الأبيض المتوسط كمسطح مائي ذي مكانة جيوستراتيجية حقيقة.

كما أنّ لتغيير الموازين البحرية في شرق المتوسط انعكاسات على تركيا ربما يدفعها إلى إعادة النظر في ترتيب أولوياتها في المسطحات البحرية التركية وتلك القريبة من إقليمها، وهو ما حاولت تركيا من خلاله احتواء تدخل الولايات المتحدة وحلف الناتو في البحر الأسود واختلافها الشديد مع الدول الساحلية الأخرى الأعضاء في الناتو مثل بلغاريا ورومانيا، الأمر الذي قد يدفع القيادة التركية إلى طلب المساعدة من حلف الناتو حتى لا تسيطر روسيا على البحر الأسود[30]، علمًا بأنّ الأهمية الرئيسية للبحرية التركية ترتكز على كثرة النقاط المحورية التي تزيد من محوريتها ضمن السياسة العامة التركية، ومن ثمّ فإنّ أولى هذه المهمات تتمثل في عمليات دعم وحفظ السلام العالمي والإقليمي وعمليات البحث والإنقاذ في السلم والحرب. كما تشارك البحرية التركية في المساعدات الإنسانية وعمليات الإغاثة في حالات الكوارث، وهو ما يعطيها بعدًا إنسانيًا. تتوسع مهمات البحرية لتشمل المهمات الحربية وحفظ الأمن الوطني والإقليمي والدولي من خلال حماية ومراقبة المناطق القضائية البحرية، أضف إلى ذلك عمليات الإخلاء القتالية، ولها مهمات حاضرة ومستقبلية تتمحور حول التحكم البحري الواسع ومراقبة العمليات البحرية من خلال عامل مهم وهو الأمن الطاي[31].

---

(28) Turkish Naval Forces, *Turkish Naval Forces Strategy,* submitted by Admiral Bülent Bostanoğlu - Commander of Turkish Naval Forces (İstanbul: Printing Office of Turkish Naval Forces, 2016), p. 24.

(29) Researcher, «Turkish Naval Forces – Dependable Incooperation, Deterrent in Crises and Decisive in Combat,» *Defence Turkey*, vol. 12, no. 80 (2018), p. 14, <https://bit.ly/3hhuCyq>.

(30) Serhat Güvenç and Sıtkı Egeli, «Changing Naval Balances in the Eastern Mediterranean: Implications for Turkey,» *Turkish Policy Quarterly*, vol. 15, no. 1 (Spring 2016), p. 105.

(31) Researcher, «Turkish Naval Forces – Dependable Incooperation, Deterrent in Crises and Decisive in Combat,» p. 15.

يمكن الوقوف على مؤسستين تكوينيتين للبحرية التركية تعدان من أهم المؤسسات المحورية ضمن تشكيلات القوات البحرية والقوات المسلحة ككل؛ وهما تابعتان للجامعة التركية للدفاع الوطني، الأولى تسمى الأكاديمية البحرية والمدرسة الثانية لا تقل أهمية عن الأولى هي مدرسة التدريب المهني للبحرية التركية. تأسست جامعة الدفاع الوطني التركي بموجب المرسوم بقانون رقم 669 بتاريخ 25 تموز/يوليو 2016، تحت عنوان «اتخاذ التدابير اللازمة في ظل حالة الطوارئ وإنشاء جامعة الدفاع الوطني وإجراء التعديلات في قوانين معينة»، كما تم تأسيس تنظيم الجامعة بموجب مرسوم مجلس الوزراء تحت رقم 9522/2016 بتاريخ 14 تشرين الثاني/نوفمبر 2016، إذ إنّ هناك ثلاث أكاديميات للحرب وأربع كليات عسكرية وستة معاهد وأربعة مدارس مهنية عليا لضباط صف يقومون بأنشطة تحت سقف جامعة الدفاع الوطني التركي[32]، وهذا ما يعطي للبحرية التركية فرصة استغلال الفرع التكويني لدعم قواتها في الميدان بالتركيز على المنظورات الجوسياسية والجيوستراتيجية المبنية على حماية الأمن الوطني التركي.

في هذا السياق فإن مجمل الجهود التي تبذلها تركيا منذ عام 2000 عكسها التحول الجيوسياسي في البلاد، وهو رد فعل ومعادلة محورية مساعدة ضمن السياسات العامة لتركيا، إلى ذلك تسعى البحرية التركية لبناء سفينة هجومية برمائية يراد منها القيام بدور بارز في الدينامية الدفاعية والهجومية البحرية، وهو ما يقدم إلى البحرية التركية ميزتين أساسيتين قائمتين على امتلاك تركيا قوات نخبة بحرية ذات تدريب عالٍ، أثبتت جدارتها بالمشاركة في كثير من العمليات البحرية العسكرية. وعليه، فإن حصول تركيا على هذه التشكيلة البحرية المحورية سيمكنها لا محالة من زيادة القدرات الدفاعية والهجومية البحرية القائمة على الدقة والفعالية وسرعة الضربة ورد الفعل السريع، وهو ما يمكن تركيا من بناء مجموعة كبيرة من هذه السفن التي تعدّ ميلادًا حقيقيًا للترسانة البحرية التركية، وتجعل منها مركزًا عالميًا ولاعبًا أساسيًا في القضايا البحرية العالمية[33].

خاتمة

حاولت هذه الدراسة التحليلية ملامسة الوقائع الميدانية التي توجد فيها المنطقة العربية متأثرة بواقعها الجيوسياسي البحري الذي يمثّل إغراءً حقيقيًا لكثير من الفواعل، حيث توصلت هذه الدراسة إلى أنّ الموقع الجوسياسي للمنطقة العربية الملامس للأحواض المائية جعلها في موقع الإغراء الذي تحاول الفواعل التماثلية واللاتماثلية تعزيز نفوذها فيها، منتهجة بذلك كل المقاربات القاضية بأن تحظى بمقر جيوسياسي تعيش المنطقة العربية في فلكه، وخلصت هذه الدراسة إلى النتائج التالية:

(32) Naval Petty Officer Vocational School, Naval Academy, Republic of Turkey, p. 5.

(33) Kasapoglu, «Naval Balance of Power in the Mediterranean and Political Military Trends,» p. 5.

ـ تحظى المنطقة العربية بكثير من مقوِّمات القوة البحرية التي لم تستثمر فيها المنطقة كل جهودها، ما جعلها محل تهافت للقوى البحرية الأخرى، مستفيدة من بؤر التوتر في الشرق الأوسط الذي أصبح ساحة صراع بحرية جديدة.

ـ أكدت القوى البحرية من خارج البلدان العربية استعدادها المطلق لتبني رؤى ذات فاعلية تستطيع من خلالها فرض وجودها في المناطق المتاخمة للمنطقة العربية، وهو ما يمكّنها من التموضع البحري تجاه قضايا منطقة الشرق الأوسط.

ـ تعَدّ القوات البحرية الأمريكية أهم قوة فاعلة في المنطقة من خلال امتلاكها قدرًا كبيرًا من المقدرات القتالية نظرًا إلى تاريخها العتيق في المجال البحري، مستغلة بذلك الثغر الحيوية العربية في تموضعاتها ومنتهجة في الوقت نفسه سياسة بحرية فعّالة.

ـ ساهمت الأزمة السورية في إعادة بروز القوات البحرية الروسية كقوة عالمية فاعلة نافست القوات الأمريكية في المنطقة، وبخاصة أنّها استفادت من التوجهات الحربية لصانع القرار مع بروز أطراف ذات نزعة حربية داخل صناع القرار الروس.

ـ لم تتوانَ البحرية الإيرانية في البحث عن مناطق نفوذ في المنطقة العربية أمَلًا منها في إيجاد صبغة جيوسياسية تستطيع من خلالها استغلال مقوِّمات القوة لتعزيز نفوذها في المنطقة العربية، وهذا لخدمة مشروعها العقيدي والحربي في آن واحد.

ـ كذلك نافست القوات التركية نظراءها من القوات البحرية العالمية في السعي لإبراز مكانتها كقوة بحرية إقليمية وعالمية، يكون لها الوزن في إعادة إرجاع أمجاد الأسطول العثماني في المنطقة العربية.

إلا أنّ الطرف الذي لم يحظَ بقدر كبير من التموضع هو القوات الأوروبية التي كانت في وقت مضى من بين القوات البحرية الفاعلة في المجالين الحربي والتجاري، إلا أنّ تراجعها في الساحة البحرية الحربية كان سببًا في بروز قوات أخرى على غرار القوات الإيرانية التي استغلت كل المعطيات الميدانية لتعزيز مقدراتها في المنطقة العربية □

العلاقات المغربية ـ الخليجية في ظل المتغيرات الجيوسياسية

رشيد باجي(*)

أستاذ العلاقات الدولية والقانون الدولي العام في جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء ـ المغرب.

شهدت العلاقات البينية العربية مدًّا وجزرًا على مدى سبعة عقود، حيث اتسم الكثير منها بالتوتر الذي وصل إلى مستوى النزاع المسلح، والقليل منها الذي شهد ثباتًا وتطورًا. وإذا كانت النزاعات الحدودية والصراعات السياسية والأيديولوجية والتنافس على الزعامة العربية أهم المحددات التي أدت إلى الفِرقَة العربية، فإن عوامل أخرى ثابتة من قبيل وحدة التاريخ والدين واللغة والثقافة إضافة إلى تقارب الرؤى السياسية، ساهمت في توطيد مجموعة من العلاقات العربية البينية. وفي هذا الإطار تدخل العلاقات المغربية ـ الخليجية التي تعَدّ من بين العلاقات العربية ـ العربية الأكثر ثباتا واستقرارًا. فبالرغم من بُعد المسافة الجغرافية وكثرة التوترات على مستوى الوطن العربي، فإن هذه العلاقات حافظت على متانتها. ولقد ساهمت مجموعة من العوامل في ترسيخ وتثبيت هذه العلاقة، إلا أن أهمها يتمثل بتشابه أنظمتها السياسية، وابتعاد قادتها من التنافس على الزعامة العربية. هذا المعطى كان أحد أبرز المحركات الأساسية الدافعة لتلك العلاقات إلى ارتياد آفاق جديدة من التكامل والتنسيق والتعاون النشط في المجال السياسي. وما لا شك فيه أن توافر الإرادة السياسية لتوليد هذا المناخ بتجلياته ومؤشراته الإيجابية والبناءة أدى إلى ترسيخ هذه العلاقات في سياق متغيرات إقليمية ودولية تركت آثارًا في مجمل العلاقات الدولية.

ورغبة منا في إغناء البحث العلمي في هذا المجال، تأتي هذه الدراسة للإجابة عن **إشكالية** بسيطة تتمثل بمحاولة فهم السلوك الخارجي المحدد للعلاقات المغربية ـ الخليجية من خلال تحديد ملامح وأسس هاته العلاقات والوقوف على أهم وأبرز محاور قوتها وضعفها، وذلك من خلال الجواب عن بعض **أسئلة** البحث، وهي كالآتي: هل للمغرب سياسة إقليمية موحدة تجاه دول مجلس التعاون الخليجي، أم له سياسات مختلفة تجاه كل دولة على حدة؟ ويُطرح التساؤل نفسه على الجانب الآخر، هل للدول الخليجية سياسة موحدة أم سياسات متعددة تجاه المملكة المغربية؟ إلى أي مدى تؤثر العوامل المجتمعية، وبالذات السياسية منها، في العلاقات المغربية ـ الخليجية؟

(*) البريد الإلكتروني: rachidbaji@gmail.com

وهل يمثل عامل المصلحة وحاجة كل طرف إلى الآخر العنصر الأساس في الثبات الحاصل في هذه العلاقات؟ وإلى أي مدى ساهمت المتغيرات الإقليمية والدولية في توطيد أو اضطراب العلاقات بين الجانبين؟

إن أبرز ما يميز العلاقات المغربية ـ الخليجية هو استمراريتها بمعزل عمّن يتربع على عرش الحكم في الجانبين. وهكذا فإن إخلاص المغرب لأشقائه الخليجيين كان أمراً مفروغًا منه. وقد تُرجمت هذه العلاقات الودية إلى زيادة التنسيق وتبادل الآراء حول أغلب القضايا الإقليمية وبخاصة تلك المتعلقة بالمصالح الاستراتيجية.

يدخل البحث في موضوع العلاقات المغربية ـ الخليجية في إطار دراسة السياسة الإقليمية، التي تعَدّ من مجالات حقل العلاقات الدولية، إلا أن البحث عن أجوبة للأسئلة المطروحة وإيجاد حل للإشكالية، استلزم الاستعانة بتخصصات أخرى من قبيل علم السياسة والتاريخ الدبلوماسي والاقتصاد السياسي، الأمر الذي فرض عدم اتباع منهج علمي واحد، بل الاعتماد على منهج علمي مركب يمزج بين مجموعة من المناهج بغية تحليل متكامل للعلاقات المغربية الخليجية[1].

انطلاقًا من إشكالية البحث والتساؤلات المطروحة والمصادر المعتمدة، يتكون تصميم هذه الدراسة من مبحثين، **الأول** سنتطرق فيه إلى التوافق والثبات في العلاقات المغربية ـ الخليجية وذلك بتناول ورصد السلوك الخارجي المغربي تجاه دول الخليج العربي من خلال مجموعة من المحطات والأحداث الإقليمية والدولية التي عاشها الوطن العربي ودول الجوار. في حين سنرصد في المبحث **الثاني** أهم الاضطرابات التي عاشتها هذه العلاقات في السنوات القليلة الماضية.

أولاً: التوافق والثبات في العلاقات المغربية ـ الخليجية

إن أبرز ما يميز العلاقات المغربية ـ الخليجية هو استمراريتها بمعزل عمّن يتربع على عرش الحكم في الجانبين. وهكذا فإن إخلاص المغرب لأشقائه الخليجيين كان أمرًا مفروغًا منه. وقد تُرجمت هذه العلاقات الودية إلى زيادة التنسيق وتبادل الآراء حول أغلب القضايا الإقليمية وبخاصة تلك المتعلقة بالمصالح الاستراتيجية، ومن خلال رصد هذه العلاقات على مدار ستة عقود، يتضح أن التنسيق والتواصل كان حاضرًا على أعلى مستوى في أغلب القضايا وأن الاختلافات مثلت دائمًا

(1) انطلاقًا من كون العلاقات المغربية ـ الخليجية تدخل في إطار دراسة السياسة الإقليمية، فإن المنهج المعتمد عليه بداية هو المنهج الإقليمي، الذي يساعد على تحقيق دراسة متكاملة وموضوعية للعلاقات البينية لدول الإقليم، ويساهم في إيضاح التشابك الاقتصادي والاجتماعي والسياسي بينهم، ويكشف عن احتمالات التكامل بينهم. للمزيد من التفاصيل، انظر: Louis Cantori and Steven Spiegle, *The International Politics of Regions: A Comparative Approach* (Englewood Cliffs, NJ : Prentice-Hall, 1970), p. 5.

الاستثناء. وفي ظل هذا التناغم السياسي والدبلوماسي جاء اقتراح عضوية المغرب في مجلس التعاون الخليجي.

1 ـ اقتراح انضمام المغرب إلى مجلس التعاون الخليجي

تعامل مجلس التعاون الخليجي منذ تأسيسه عام 1981، بحذر شديد مع أي طلب للانضمام إليه، إذ لم يستجب لطلب العراق في عهد الرئيس الراحل صدام حسين[2] أو بعد إطاحته عندما طالب وزير الدفاع الأمريكي الأسبق روبرت غيتس بضم العراق إلى المجلس[3]، أو عندما تقدمت الحكومة العراقية بطلب الانضمام سنة 2021. أمام هذا الحذر تجاه دولة تربطها بها علاقات إثنية وتاريخية ومذهبية، إضافة إلى أنها تطل على الخليج العربي ولها مع كل من السعودية والكويت حدود برية على امتداد 1056 كلم. اقترحت دول مجلس التعاون الخليجي العضوية على المملكتين المغربية والأردنية. هذا الاقتراح بدا نوعًا ما مفاجئًا حتى بالنسبة إلى البلدين المعنيين، ولا سيما المغرب، حيث لم تسبقه مشاورات تمهيدية، كما أن البعد الجغرافي يمثل عائقًا أمام أي اندماج إقليمي، إذ إن المسافة بين دبي والرباط برًا تبلغ نحو 8769 كلم، كما يجب ألّا نغفل التفاوت على المستوى الاقتصادي بين المغرب وأغلب أضلاع السداسي الخليجي إضافة إلى أن مستوى المبادلات التجارية وحجم الاستثمارات بين الجانبين يبقى ضعيفًا مقارنة بعلاقة الرباط بالدول الأوروبية. وفي ظل هذه المعطيات تغيرت الاستراتيجيات والأهداف وظهرت سيناريوهات جديدة للتعاون بين الجانبين.

لا يعَدّ مجلس التعاون الخليجي تكاملاً جهويًا حقيقيًا كما هو شأن اتفاقية التجارة الحرة بين الولايات المتحدة وكندا والمكسيك، أو الآسيان أو الاتحاد الأوروبي، وإنما يعَدّ تجمعًا جهويًا تعاونيًا يهدف بالأساس إلى تنشيط التضامن ووحدة الموقف السياسي تجاه التهديدات الإقليمية لاستقرار أعضائه ووجودهم.

أ ـ الانتقال من طلب العضوية إلى شراكة اقتصادية

أمام عدم اكتمال مشروع العضوية لغياب الشروط الموضوعية والأركان الأساسية في خلق تجمع إقليمي متباعد الأطراف. ارتأت الدول المعنية تحويل اقتراح العضوية إلى شراكة اقتصادية بين المغرب ودول مجلس التعاون الخليجي، وأهم ما تضمنته هذه الشراكة، تقديم مساعدة مالية قيمتها خمسة مليارات دولار على مدى خمس سنوات (2012ـ2017) لدعم مشاريع التنمية في

(2) Joseph A. Kechichian, «The Gulf Cooperation Council: Search for Security,» *Third World Quarterly*, vol. 7, no. 4 (1985), pp. 853–881, <http://www.jstor.org/stable/3991756>. (accessed 1 January 2022).

(3) Mohammed Dakhil Kareema, «The Regional and International Attitude Towards the Iraqi Invasion of Kuwait in 1990,» *International Journal of Innovation, Creativity and Change*, vol. 10, no. 7 (2019), pp. 84-98.

المغرب تهم مجالات البنى التحتية في قطاعات الصحة والتعليم والإسكان والنقل والزراعة. وتم التوقيع الفعلي لاتفاق الشراكة ذلك في المنامة بتاريخ 7 تشرين الثاني/نوفمبر 2012، خلال الجولة الرسمية التي قام بها العاهل المغربي الملك محمد السادس على دول الخليج (السعودية، والإمارات، والكويت وقطر).

بهذا الانتقال من العضوية إلى الشراكة الاستراتيجية والمساعدات المالية، تكون العلاقة بين المغرب ودول مجلس التعاون الخليجي قد شهدت تطورات سريعة في العقد الأخير. وهكذا فإن «الربيع العربي» لم يتسبب فقط في إعادة بناء النظم الداخلية للدول المعنية به وإنما ساهم أيضًا في تغيير التوازن الإقليمي، كما جلب أنماطًا جديدة من العلاقات الدولية في المنطقة العربية.

في الأدبيات المتعلقة بالوطن العربي، نجد عددًا من الدراسات التي تناولت استدامة الملكيات العربية، ولا سيما بعد سنة 2011، وقد ركزت على الآليات والمقاربات الداخلية لمقاومة ورأب التصدعات التي تهدد هذه الأنظمة الملكية، لكنها لم تتحدث عن انعكاسات ذلك على العلاقات الدولية[4]، بالرغم من أن الوضع الجيوسياسي الإقليمي كان هو الدافع لاقتراح العضوية.

يمكن المتتبع لشؤون الوطن العربي أن يتساءل عمّا إذا كان السلوك الخارجي الذي انتهجته دول مجلس التعاون الخليجي تجاه المملكتين المغربية والأردنية يمثل مقاربة جديدة لمقاومة الاحتجاجات والاضطرابات الداخلية التي تواجهها الملكيات العربية، والتي تخشى العدوى في حال سقوط إحداها، وبالتالي فإنها أصبحت تتقاسم مصيرًا مشتركًا، يتمثَّل بالبقاء والاستمرارية، وهكذا فإن اقتراح العضوية على كل من المغرب والأردن جاء كمحاولة لخلق نظام إقليمي فرعي عربي/ملكي يكون مُوحدًا من حيث المدخلات والمخرجات.

ب ـ نحو خلق نظام إقليمي فرعي للملكيات العربية

لا يعَدّ مجلس التعاون الخليجي تكاملًا جهويًا حقيقيًا كما هو شأن اتفاقية التجارة الحرة بين الولايات المتحدة وكندا والمكسيك (ACEUM)[5]، أو الآسيان أو الاتحاد الأوروبي، وإنما يعَدّ تجمعًا جهويًا تعاونيًا يهدف بالأساس إلى تنشيط التضامن ووحدة الموقف السياسي تجاه التهديدات الإقليمية لاستقرار أعضائه ووجودهم. وعليه، فإن هذه المنظمة الإقليمية تستهدف عنصرين أساسيين: الاستقرار السياسي والبعد الأمني.

(1) التقارب على مستوى آليات مواجهة الاحتجاجات الاجتماعية: منذ ما بعد مرحلة نجاح الثورة الإسلامية الإيرانية وتبنّيها لمبدأ تصدير الثورة، لم تشعر الأنظمة السياسية الملكية في الوطن العربي باهتزازات سياسية، إلا أن مجيء الربيع العربي واندلاع انتفاضاته العنيفة التي أطاحت مجموعة من الزعامات السياسية في بلدان اعتقدت لعقود من الزمن أنها في منأى عن أي

(4) انظر على وجه الخصوص: Frédéric Charillon et Alain Dieckhoff, *Afrique du Nord, Moyen-Orient: La Double recomposition* (Paris: La Documentation Française, 2013); Anna M. Agathangelou and Nevzat Soguk, *Arab Revolutions and World Transformations* (London; New York: Routledge, 2012), and Lin Noueihed and Alex Warren, *The Battle for the Arab Spring: Revolution, Counter-revolution and the Making of a New Era* (New Haven, CT; London: Yale University Press, 2012).

(5) اتفاقية كندا والولايات المتحدة والمكسيك (ACEUM) دخلت حيز التطبيق بتاريخ فاتح تموز/يوليو 2020، وقد حلت محل اتفاقية التجارة الحرة لأمريكا الشمالية (ALENA) التي اعتمدت سنة 1994.

تهديد لاستقرارها، أخاف عروش الملكيات العربية من انتقال العدوى وتنامي انعدام الأمن وزعزعة الاستقرار بالمنطقة.

أمام هذا المتغير انتهجت دول الخليج العربية سياسات خارجية مساندة للأنظمة العربية المحافظة من خلال دعم سياساتها لكبح جماح الحركات الاحتجاجية التي حدثت فيها[6]. وفي هذا السياق ظهر المغرب كدولة مستقرة سياسيًا، تمكنت من تدبير جيد لمرحلة الاحتجاجات الاجتماعية القليلة نسبيًا من خلال جملة من الإصلاحات.

لقيت طريقة إدارة أزمة الاحتجاجات ترحيبًا من جانب الدول الخليجية ولا سيما السعودية التي أشار سفيرها في المغرب سنة 2012 إلى أن هناك تنسيقًا شبه يومي بين البلدين في القضايا التي تتعلق بالسلم والأمن الإقليميين واستقرار المنطقة[7]. وهذا مثال على الدبلوماسية الاستباقية التي نهجتها الرياض في مواجهة الربيع العربي. وفي هذا الإطار فإن مقترح انضمام المغرب كان من المتوقع في حال حدوثه أن يساهم في تعزيز الوزن السياسي لدول مجلس التعاون في المنطقة، الأمر الذي كان من شأنه أن ينتج آثارًا تراوح بين السلبية والإيجابية على علاقات الدول الخليجية مع أطراف ثالثة مثل إيران (التي تخشى من تحالف الأنظمة الملكية ومحاصرة نفوذها) والولايات المتحدة (التي كان من المحتمل مساندتها لذلك المقترح في سبيل إنشاء تحالف إقليمي لمكافحة الإرهاب في المنطقة).

سرعت أحداث سنة 2011 من تطوير سياسة أمنية ودفاعية بين دول مجلس التعاون الخليجي، إذ إنها أول مرة منذ تأسيس المجلس يقوم بها أعضاؤه بعمل عسكري مشترك بتاريخ 14 آذار | مارس 2011 في البحرين، تحت قيادة السعودية، إلا أن اختلاف تصور التهديدات المشتركة من جانب الدول الست الخليجية لم يسمح بتحقيق رؤية جماعية للأمن حتى الآن.

(2) الاستناد إلى الشرعية الدينية لقيام الملكيات العربية: إضافة إلى ما سبق، يمكن تحليل مقترح انضمام المغرب إلى مجلس التعاون الخليجي من زاوية دينية، فطبيعة النظام الديني في المغرب المستند إلى إمارة المؤمنين والمتأصل من المذهب المالكي، زيادة على النسب الشريف للأسرة العلوية المنحدرة من سلالة النبي كما هو الشأن بالنسبة إلى المملكة الهاشمية الأردنية، تمثل لبنة أساسية في بناء محور سني/ملكي، تتزعمه السعودية التي تتمتع برمزية دينية، حيث يحمل ملوكها صفة «خادم الحرمين الشريفين» في إشارة إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة، يمكن أن يمثل جبهة في مواجهة التهديد الشيعي والنفوذ الإيراني في المنطقة، إضافة إلى هذه الرمزية الدينية هناك روابط بين العائلات الملكية في الخليج والمغرب والأردن، كما أنه على مر عقود ارتبطت هذه العائلات بزيجات على نحوٍ مستمر. وهكذا

(6) Eberhard Kienle, «The Security Implications of the Arab Spring,» *GCSP Geneva Papers, Research Series*, no. 10 (January 2013), p. 8.

(7) Déclarations de Mohamed Abderrahmane M. Al Bichr, dans: Ministère des Affaires étrangères du Maroc, «Déclarations de personnalités sur les relations Maroc-pays du Golfe,» 2012, p. 5.

ساهمت هذه العناصر في خلق شعور التضامن والإحساس بالمصير المشترك، وهو ما جعلها تتبنى استراتيجيات متقاربة وغير متضادة.

(3) التقارب في الاستراتيجيات الأمنية: من وجهة نظر أمنية، يمثل المغرب قوة احتياطية من العسكريين والشرطة التي يمكن حشدها في حال حدوث انتفاضة في إحدى دول مجلس التعاون الخليجي. هذا المعطى يكتسي أهمية بالغة، لأن دول الخليج دأبت منذ مدة طويلة على توظيف أفراد من الشرطة المغربية في أجهزتها الأمنية، وقد اعتادت دول الخليج منذ عقود على استخدام «استراتيجيات منع الانقلاب» وذلك بتعيين أفراد الأسَر الحاكمة في المناصب القيادية مع تجنيد أعداد كبيرة من غير المواطنين في المناصب الأخرى؛ فهذه الاستراتيجية تهدف إلى التقليل من مخاطر الانقلابات العسكرية[8].

سرَّعت أحداث سنة 2011 من تطوير سياسة أمنية ودفاعية بين دول مجلس التعاون الخليجي، إذ إنها أول مرة منذ تأسيس المجلس يقوم أعضاؤه بعمل عسكري مشترك بتاريخ 14 آذار/مارس 2011 في البحرين، تحت قيادة السعودية، إلا أن اختلاف تصور التهديدات المشتركة من جانب الدول الست الخليجية لم يسمح بتحقيق رؤية جماعية للأمن حتى الآن، مع العلم أن التهديدات الأمنية في المنطقة كانت هي السبب الرئيس في إنشاء هذه المنظمة الإقليمية، حيث إن الثورة الإيرانية بعد تقويضها للنظام الشاهنشاهي، تبنت مبدأ تصدير الثورة لجيرانها، وعقب ذلك اندلعت الحرب العراقية ـ الإيرانية التي دامت ثماني سنوات، وبعدها جاء ذلك الحدث الجلل والمصيبة الكبرى التي تمثلت باحتلال دولة عربية لشقيقتها، وجاءت بعد ذلك التهديدات الأمنية في اليمن. كل هذه الأحداث ساهمت في خلق تصور لدى الحكام الخليجيين للبيئة «المعادية»[9]. في هذا السياق يعدّ تحالف المغرب مع دول مجلس التعاون الخليجي أمرًا مساعدًا لاستتباب الأمن الإقليمي وداعمًا لاستقرار منطقة الخليج العربي، وفي الوقت نفسه فإن هذا التحالف يعدّ أمرًا حاسمًا بالنسبة إلى المغرب لأنه يضمن دعمًا رسميًا من جانب دول الخليج لمقترح الحكم الذاتي الذي تبناه المغرب لحل النزاع مع جبهة البوليساريو حول الصحراء. وفي هذا الإطار أعلن وزراء خارجية الدول الخليجية والأردن في اجتماع الدوحة المنعقد بتاريخ 25 تشرين الثاني/نوفمبر 2014 في الدوحة «دعمهم لمبادرة الحكم الذاتي الجادة والموثوقة، التي قدمها المغرب كأساس للمفاوضات من أجل إيجاد حل نهائي للنزاع الإقليمي حول الصحراء المغربية»[10].

(4) مراعاة المصالح الوطنية: إذا كان المغرب يعطي أولوية للدول الخليجية في سياسته العربية، ويتفاعل مع كل المتغيرات التي تهدد أمنها الداخلي والإقليمي، فإن هذه الأخيرة تراعي بدورها الأمن الإقليمي للمملكة المغربية وتعمل على استتبابه. نستدل على ذلك بالجهود التي قام

---

(8) Laurence Louër, «Sectarianism and Coup-Proofing Strategies in Bahrain,» *The Journal of Strategic Studies*, vol. 36, no. 2 (2013), pp. 245-260.

(9) James T. Quinlivan, «Coup-Proofing: Its Practice and Consequences in the Middle East,» *International Security*, vol. 24, no. 2 (1999), pp. 131–165.

(10) Morocco World News, «Western Sahara: GCC Countries, Jordan Support Morocco's Autonomy Plan,» 25 November 2014, <https://bit.ly/3tbqDWB>.

بها الملك فهد سنة 1987، وذلك عبر وساطته من أجل تطبيع العلاقات المغربية ـ الجزائرية. ولقد حافظ الملك السعودي على حياده التام بالرغم من علاقته الشخصية الوطيدة جدًا بالملك الحسن الثاني، وبهذا نجح في نيل ثقة القيادة الجزائرية وعلى رأسها الرئيس الجزائري الأسبق الشاذلي بن جديد[11]. تلك الوساطة أثمرت عن عودة العلاقات السياسية بين الرباط والجزائر وفتح الحدود البرية وإلغاء التأشيرات بين البلدين، وأدت تلك الأجواء الأخوية إلى تأسيس منظمة اتحاد المغرب العربي بعد اجتماع قادة دول المغرب العربي بمدينة زرالدة الجزائرية.

وفي سنة 2013، وعقب تقديم المقترح الأمريكي من أجل توسيع صلاحيات بعثة الأمم المتحدة (المينورسو) في الصحراء، واجهت الدبلوماسية المغربية تحديًا عسيرًا[12]، الأمر الذي دفع الملك محمد السادس بالتحرك شخصيًا من أجل حلحلة تلك الأزمة، إذ جنَّد كل أصدقائه وعلى رأسهم القادة الخليجيون[13]، حيث قام الشيخ محمد بن زايد آل نهيان، ولي عهد أبو ظبي ونائب القائد الأعلى للقوات المسلحة بزيارة للولايات المتحدة الأمريكية ومقابلة الرئيس باراك أوباما وتبليغه موقف دولة الإمارات الرافض للتوصية الأمريكية[14]. وبالفعل أثمرت تلك الجهود سحب المقترح الأمريكي وأظهرت المكانة المتميزة التي يتمتع بها المغرب لدى أشقائه الخليجيين. وهذا ما يفسر زيارة العاهل المغربي لدولة الإمارات مباشرة عقب الإعلان عن العدول عن ذلك المقترح.

2 ـ صعوبات الاندماج الإقليمي والاختلاف في التصورات

لا تعَدّ فكرة تأسيس «تحالف أو نادي الملكيات» وليدة اليوم، فالأنظمة الملكية في الوطن العربي كانت تربطها علاقات قوية ومتينة منذ ظهور الدولة العربية الحديثة وانهيار الإمبراطورية العثمانية، وقد كان الملك الراحل الحسن الثاني سباقًا إلى محاولة تأسيس هذا التحالف، إذ عند توليه عرش المملكة في 3 آذار/مارس 1961، جعل من الملك سعود بن عبد العزيز آل سعود ثاني ملك للسعودية ضيف شرف له[15]. وقد عُدت تلك الخطوة الرمزية حينها، اللبنة الأولى لحلف يضم الملكيات العربية التي سميت «الدول المحافظة» مقابل «الدول التقدمية» (الجمهوريات) إبان سطوع الأفكار التقدمية مع مصر الناصرية، ونعتت بعد ذلك بمحور الاعتدال مقابل محور الممانعة لمواقفها من الصراع العربي ـ الإسرائيلي، وتربطها علاقات استراتيجية مع الولايات المتحدة

---

(11) William Zartman, *«Inter-African Negotiation» in Africa in World Politics*, edited by John Harbeson and Donald Rothchild (Boulder, CO: Westview Press, 1995), p. 238.

(12) الحسان بوقنطار، «توسيع صلاحيات المينورسو .. ضربة للعلاقات الإستراتيجية المغربية – الأمريكية،» **القدس العربي**، 2013/4/21.

(13) محمد معروف، «واشنطن تسحب طلب مراقبة حقوق الإنسان من مهنة البعثة الدولية تحت الضغط،» **القدس العربي**، 2013/4/23.

(14) «القصة الكاملة لإنقاذ الملك محمد السادس ملف الصحراء من أيادي أمريكا،» نشره موقع .<https://bit.ly/3t4VEeV>، نقلًا عن مجلة **مغرب اليوم**. تم الاطلاع على الرابط بتاريخ 15 تشرين الأول/أكتوبر 2016.

(15) Samir Bennis, «The Moroccan-Saudi Rift: The Shattering of a Privileged Political Alliance,» Al Jazeera Centre for Studies (3 April 2019), p. 4, <https://bit.ly/3zPlxn0>.

الأمريكية، وتبنّت منذ البداية الليبرالية الاقتصادية بعد أن كانت أغلب الجمهوريات العربية تتبنى الاشتراكية. إلا أن هذه الروابط وأوجه التشابه بينها لا تخفي جملة من الاختلافات بينها[16].

أ ـ صعوبة خلق نظرية للملكيات العربية

على المستوى النظري يصعب التحدث عن «نظرية للملكيات العربية»، نظرًا إلى عدم تجانسها السياسي وتباعدها الجغرافي والتفاوت الكبير بين مساحاتها[17]، فالمملكة المغربية توجد في أقصى الغرب الإسلامي على ساحل المحيط الأطلسي وتبتعد من سلطنة عمان أكثر من 8000 كلم[18]. أما على مستوى المساحة فنجد تفاوتًا كبيرًا، إذ تفوق مساحة السعودية 2 مليون كلم^2، في حين أن دولة البحرين لا تتجاوز مساحتها 765 كلم^2، والأمر إياه ينطبق على المستوى الاقتصادي حيث هناك تباين كبير بين اقتصاديات هذه الملكيات، إذ يبلغ إجمالي الناتج المحلي الخام للسعودية 876 مليار دولار[19]، والإمارات العربية 479 مليارًا، وقطر 192 مليارًا، والكويت 141 مليارًا، والمغرب 118 مليارًا، وسلطنة عمان 82 مليارًا، والأردن 42 مليارًا، والبحرين 38 مليارًا. ومن خلال هذه الأرقام نلاحظ أن الناتج المحلي السعودي يضاعف نظيره لدولة الكويت 5.5 مرة وللمغرب بـ 6.6 مرة في حين يضاعف الناتج المحلي لسلطنة عمان بـ 9.5 مرة، والأردن بـ 18.6 والبحرين 20.5 مرة[20]. وهذا مع مراعاة الاختلاف على مستوى التعداد السكاني. أما بالنسبة إلى الطبيعة السياسية للأنظمة، فهناك بعض الملكيات يعود تاريخ نشأتها إلى عدة قرون، بينما ظهرت أخرى عقب سقوط الإمبراطورية العثمانية أو إنهاء الاستعمار في القرنين التاسع عشر أو العشرين أو لم يكن لها الشكل عينه. وعلى المستوى المؤسسي نجد من الملكيات من لها دستور والبعض الآخر ذات نظام فدرالي ومنها من تبنت التعددية الحزبية وآليات الرقابة المؤسسية بشكل أو بآخر.

تختلف الهياكل الاقتصادية والاجتماعية لكل من المغرب ودول مجلس التعاون الخليجي، فالدول الخليجية تعدّ نسبيًا دولاً ريعية لاعتماد معظم عائداتها على النفط [...] في حين يعَدّ المغرب من جهة أخرى دولة غير نفطية، ويعتمد ناتجه المحلي الاجمالي إلى حد كبير على عائداته من الضرائب.

(16) وليد عبد الحي، «النظام الإقليمي العربي: استراتيجية الاختراق وإعادة التشكيل،» **سياسات عربية**، العدد 1 (آذار/مارس 2013)، ص 7ـ 22.

(17) Philippe Ardant, «Vers une théorie des monarchies arabes?,» dans: Rémy Leveau et Abdellah Hammoudi, dirs., *Monarchies arabes: Transitions et dérives dynastiques* (Paris: La Documentation Française, 2002), pp. 9-11.

(18) المسافة جوًا بين الدار البيضاء ونيويورك هي 5791.

(19) «Les 30 pays les plus riches,» <https://bit.ly/3DIi4Yn> (consulté le 4 janvier 2022).

(20) «FMI: Bases de données des perspectives économiques mondiales,» International Monetary Fund, <https://bit.ly/2YlTp5p> (accessed on 28 novembre 2021).

ب ـ التجانس السياسي ونقل السلطة على مستوى الملكيات العربية

على مستوى نقل السلطة والتوارث على العرش، لا نجد تجانسًا بين هذه الأنظمة، كما أشار إلى ذلك كل من عبد الله حمودي وريمي لوڤو[21]، إذ إن بعض الملكيات في الوطن العربي اختارت ترتيب النسب الأولي، بينما اعتمد البعض الآخر على ترتيب غير منتظم، وهكذا نجد مثلًا العاهل المغربي يحكم بطريقة فردية مع الاعتماد على الشبكات العامة للحكم بدلًا من العائلة الملكية، في حين أن السعودية تعتمد على نظام يحق فيه لعشرة آلاف أمير أن يشغلوا أعلى المناصب الحكومية[22]. وعلى الرغم من الاختلافات الشكلية على مستوى البنى السياسية والمؤسسية، فإن هذه الأنظمة ومن خلال مختلف أشكال العلاقات والروابط التي تجمعها منذ عقود، قادرة على خلق آليات مشتركة لصنع القرار في حال حدوت ما من شأنه زعزعة استقرارها وأمنها الداخلي، وهذا يقودنا إلى تعزيز فرضية وجود جهاز استخباراتي أو تنظيم دبلوماسي يضم كل الملكيات العربية وهدفه ضبط وتنظيم العلاقات البينية وتفادي الأزمات وتجنب الخلافات وإدارتها في حال حدوثها[23].

ج ـ الاختلاف على مستوى التوجهات الاقتصادية والاجتماعية

تختلف الهياكل الاقتصادية والاجتماعية لكل من المغرب ودول مجلس التعاون الخليجي، فالدول الخليجية تعّد نسبيًا دولًا ريعية لاعتماد معظم عائداتها على النفط الذي حققت من خلاله فوائض مالية كبيرة، وهو ما جعلها تتمتع بإمكانيات وقدرات استثمارية قوية. في حين يعَدّ المغرب من جهة أخرى دولة غير نفطية، ويعتمد ناتجه المحلي الاجمالي إلى حد كبير على عائداته من الضرائب، كما تمثل تحويلات المغاربة المقيمين بالخارج أهم مصدر للعملة الصعبة.

حتى لو اعتبرنا أنه يمكن التغلب على هذه الاختلالات الهيكلية على المديين المتوسط والطويل، فإن التباعد الجغرافي لا يسمح بإنشاء منطقة للتجارة الحرة، وإذا أضفنا الوزن الديمغرافي للمغرب (36 مليون نسمة)، الذي سيصبح، في حال انضمامه إلى هذه المنظمة الإقليمية، أكبر قوة ديمغرافية، وهو ما سيؤدي إلى طرح عدة أسئلة حول شكل الأداء والمشاركة التي من الممكن أن يقوم بها المغرب داخل هذا التجمع الإقليمي.

إضافة إلى العاملين الاقتصادي والديمغرافي، فإن الخيارات المجتمعية للطرفين تتباين، فالتوجه العام لقانون الأسرة أو الأحوال الشخصية في المغرب عرف تطورًا في العقدين الأخيرين، إذ إن رؤية المغرب في التعامل مع قضايا المرأة تختلف نسبيًا عما يجري في الدول الخليجية. هذه الاختلافات انعكست منذ البداية على المقترح السعودي ـ الإماراتي، حيث إنه لم يلق الترحيب المأمول له من جانب باقي أعضاء مجلس التعاون الخليجي، كما أن المملكة المغربية فضلت إقامة شراكة متميزة على غرار الوضع المتقدم الممنوح للمغرب من الاتحاد الأوروبي عوض الانضمام

---

(21) Rémy Leveau and Abdellah Hammoudi, *Monarchies arabes: Transitions et dérives dynastiques* (Paris: La Documentation Française, 2002), p. 16.

(22) Ibid.

(23) Frédéric Charillon, «Quelle place pour les monarchies arabes dans les relations internationales?,» dans: Ibid., p. 83.

العضوي إلى المجلس، إضافة إلى أن المغرب وفي ظل العلاقات الدبلوماسية التي كانت مشلولة وأصبحت مقطوعة مع الجزائر، طوّر تعاونه على نحو كبير مع البلدان الأفريقية جنوب الصحراء.

د ـ التعاون جنوب – جنوب في السياسة الإقليمية المغربية

سيطر مفهوم «التعاون جنوب – جنوب» على أدبيات البيانات الرسمية للمملكة المغربية على مستوى سياستها الخارجية في العقدين الأخيرين، وقد حل هذا المفهوم محل شعار «القومية العربية» الذي كان سائدًا منذ ستينيات القرن الماضي على مستوى الخطاب العربي. إلا أن مسألة الانتماء لم تكن مغيبة من خلال أجرأة هذا المفهوم، فالأولوية بالنسبة إلى السلوك الخارجي للمغرب تنصب حول الانتماء المغاربي وإحياء منظمة اتحاد المغرب العربي الذي يظل حلمًا لكل شعوب المنطقة، إلا أنه في ظل جمود هذه المنظمة الإقليمية وتزايد الفرقة بين البلدين الشقيقين الجزائر والمغرب، فإن الرباط سعت إلى تعزيز انتمائها الأفريقي بربط شبكة من العلاقات الاقتصادية مع دول القارة السمراء وبالذات دول غرب أفريقيا (السنغال، غينيا بيساو، موريتانيا، غينيا، سيراليون، ليبيريا، بوركينا فاسو، مالي، النيجر، نيجيريا، بنين وغانا)، حيث يسعى المغرب للانضمام إلى منظمة المجموعة الأفريقية لدول غرب أفريقيا[24] المعروفة اختصارًا بسيدياو (CEDEAO) [25]. كما يمثل البعد العربي في السياسة الإقليمية المغربية بعدًا محوريًا من خلال الشراكة القوية والمتينة بالخصوص مع الدول الخليجية. وهكذا من خلال هذا التوجه وضع المغرب نفسه كمركز أفريقي وهمزة وصل يمكن من خلاله قيام تعاون ثلاثي بينه وبين دول مجلس التعاون الخليجي ودول القارة الأفريقية التي تربطها شراكات قوية مع الرباط، حيث يمكن من خلال هذا التعاون أن يتحول المغرب إلى بوابة للقارة الأفريقية بالنسبة إلى الدول الخليجية.

إن الرباط تضع من بين أهدافها العمل داخل التنظيمات الإقليمية التي تنتمي إليها جغرافيًا، في حين تسعى للحصول على وضع متقدم بالنسبة إلى التجمعات الإقليمية القريبة منها والاستراتيجية كمجلس التعاون الخليجي والاتحاد الأوروبي.

نستشف من خلال التوجه الإقليمي للمملكة المغربية، أن الرباط تضع من بين أهدافها العمل داخل التنظيمات الإقليمية التي تنتمي إليها جغرافيًا، في حين تسعى للحصول على وضع متقدم

(24) Temitayo Isaac Odeyemi, «Regional Integration and the Political Economy of Morocco's Desire for Membership in the Economic Community of West African States (ECOWAS),» 2020, <https://www.springerprofessional.de/en/regional-integration-and-the-political-economy-of-morocco-s-desi/17786616> (consulté le 1 décembre 2021).

(25) Communauté économique des États de l'Afrique de l'Ouest.

بالنسبة إلى التجمعات الإقليمية القريبة منها والاستراتيجية كمجلس التعاون الخليجي والاتحاد الأوروبي.

إجمالًا تمثل العلاقات المغربية ـ الخليجية مثالًا يحتذى به في الوطن العربي، إلا أنها كباقي العلاقات الدولية، يسودها أحيانًا سوء تفاهم أو اضطرابات تكون نتيجة متغيرات إقليمية أو إعادة ترتيبات داخلية، وهذا ما سنتناوله في المبحث التالي.

ثانيًا: اضطراب العلاقات المغربية ـ الخليجية

اتسمت العلاقات المغربية ـ الخليجية في عمومها بالثبات والتحالف الاستراتيجي منذ بداية ستينيات القرن الماضي ولم يشبها أي خلاف بارز، ولا سيما في عهد الراحلين الملك فهد بن عبد العزيز وشقيقه الملك عبد الله، هذا الأخير الذي جعل من إقامته بمنطقة بوسكورة قرب مدينة الدار البيضاء، حيث كان يقضي بها فترات مهمة كل سنة، مكانًا لإدارة شؤون بلاده واستقبال مسؤولين سعوديين وأجانب، إلا أنه مع تولي الأمير محمد بن سلمان ولاية العهد، دخلت العلاقات المغربية ـ السعودية في منطقة رمادية، حيث لم تعد الرؤى والمواقف واضحة كما كانت في السابق، كما أن والده الملك سلمان انقطع عن قضاء عطلته السنوية بإقامته بمدينة طنجة المغربية[26]. وفي شباط/ فبراير 2019 تم تداول إعلامي استدعاء سفير المغرب بالعربية السعودية قصد التشاور[27]، وهكذا فإن حادثة الاستدعاء مثلت سابقة في تاريخ العلاقات الدبلوماسية بين البلدين، وبغضّ النظر عن الموقف الرسمي المغربي الذي حاول في البداية إخفاء أي توتر، فإن الاختلاف في المواقف بين الطرفين بدا في عدة محطات، وهذا ما سنحاول تناوله.

1 ـ تداعيات الربيع العربي واختلاف الرؤى

يمكن حسبان الربيع العربي من المتغيرات الإقليمية التي ألقت بظلالها على المنطقة العربية وساهمت في خلق أنماط جديدة بين علاقات دول المنطقة، فإن كانت السنوات الأولى التي تلت ذلك الحدث قد شهدت تعاونًا أمنيًا واستخباراتيًا واقتصاديًا بين الدول التي لم تتأثر أنظمتها بصورة مباشرة بحراك الربيع العربي، فإن توالي السنوات وخفوت اخضرار ذلك الربيع وخضوع دوله لتدخلات إقليمية ودولية، جعل مواقف الدول الخليجية تتباين فيما بينها. هذا الاختلاف في المواقف والسياسات تحول إلى القطيعة بين أطراف مجلس التعاون الخليجي، ولم يقتصر الأمر على العلاقات البينية الخليجية، بل نجد كذلك أن السلوك الخارجي المغربي تأثر بدوره بتداعيات هذه المتغيرات في علاقاته مع شركائه الخليجيين.

---

(26) آخر عطلة صيفية قضاها الملك سلمان بإقامته الخاصة بمدينة طنجة تعود إلى صيف سنة 2017.

(27) استدعاء السفير المغربي مصطفى المنصوري حدث قبل إشاعته في وسائل الإعلام وهذا ما أكده للباحث حينها مصدر سياسي مسؤول.

أ ـ تباين المواقف حيال وصول الإسلام السياسي إلى السلطة في دول حراك الربيع العربي

إن كان ما لا جدال فيه، أن الدول الخليجية مجتمعة دعمت المغرب إبان اندلاع الحركات الاحتجاجية بالعالم العربي مخافة تأثُّر النظام الملكي في المغرب، فإن رؤية الأطراف لمرحلة ما بعد الربيع العربي كانت متباينة، فعلى المستوى الداخلي نجح المغرب في إخراج خطة ذكية مكنته من عبور الاضطرابات التي عرفها سنة 2011 بسلام، فبعد خروج الحركة الاحتجاجية إلى الشارع في 20 شباط/فبراير 2011، ألقى العاهل المغربي خطابًا في 9 آذار/مارس، وقد وُصف ذلك الخطاب حينها بالثوري. وحدث زواج كاثوليكي لأول مرة بين الإسلام السياسي المعتدل والملكية بعد عقود من انعدام الثقة، ولا سيما بعد أحداث 16 أيار/مايو الإرهابية التي تم تحميل ذلك التيار المسؤولية المعنوية عن ما حدث. وقد ساهم قادة حزب العدالة والتنمية وبالخصوص زعيم الحزب عبد الإله بن كيران، في تنشيط حملة تبشيرية للإصلاحات التي اعتزم العاهل المغربي القيام بها، واختفت عن الأنظار كل الأسماء التي كانت الحركة الاحتجاجية لـ 20 فبراير تطالب بإسقاطها. وبعد نحو أربعة أشهر من بداية الحراك، عرض الملك محمد السادس دستورًا جديدًا على الاستفتاء في حزيران/يونيو من السنة نفسها، وإن كان مضمون الدستور لم يواكب التطلعات التي جاءت بناءً على خطاب العرش السالف الذكر، إلا أن بريق الحركة الاحتجاجية كان قد خفت، وأجريت بعد ذلك انتخابات تشريعية، نال فيها حزب العدالة والتنمية المرتبة الأولى، حيث حاز 105 مقاعد من أصل 395 مقعدًا، وهو أول حزب مغربي يحقق هذه النتيجة. وبرئاسة الإسلاميين للحكومة، استطاع النظام السياسي المغربي أن يظهر نفسه على أنه نظام يمكن أن يتعايش فيه الإسلاميون مع الملكية من دون تعريض وجودها للخطر أو تهديد استقرار البلاد[28]. وقد سعى الساسة المغاربة ورجال الإعلام إلى تسويق التجربة المغربية على مستوى الوطن العربي، وانعكست هذه التجربة على موقف الرباط من الدول التي زعزع الربيع العربي أركانها، وهكذا اختلفت في رؤيتها مع رؤية الرياض وأبو ظبي، اللتين دعمتا الحركات المضادة للثورة في مصر وليبيا وتونس، ولم تكن أزمة الخليج بين قطر من جهة والسعودية ودولة الإمارات من جهة ثانية إلا نتيجة لاختلاف المواقف والتراشق الإعلامي حيال القضايا الإقليمية، والتعاطف الظاهري لدولة قطر مع تيارات الإسلام السياسي في الوطن العربي.

ب ـ الانسحاب العسكري المغربي من عاصفة الحزم في اليمن

تماهى الموقف المغربي مع نظيره الخليجي، وبالذات السعودي والإماراتي، حيال الأحداث في اليمن، فمنذ بداية الاحتجاجات وسقوط نظام على عبد الله صالح وانتخاب الرئيس عبد ربه منصور هادي، لم يتغير الموقف المغربي، وانضم بكل طواعية إلى التحالف الذي تزعمته السعودية ضد الحوثيين، إلا أن تطور الوضع الداخلي في اليمن وإطالة أمد النزاع جعل من المشاركة العسكرية محط تساؤلات الرأي العام الوطني، ولا سيما بعد إسقاط الحوثيين طائرة عسكرية مغربية ومصرع

(28) David Pullock, «A Moroccan Exception?,» Washington Institute for East Policy (16 December 2013), <https://www.washingtoninstitute.org/policy-analysis/moroccan-exception> (accessed on 10 November 2021).

ربّانها. وزاد الموقف المغربي إحراجًا التقرير الذي قدمه الأمين العام للأمم المتحدة إلى مجلس الأمن سنة 2017 الذي تضمن معلومات صادمة[29] تتهم فيها قوات التحالف الذي تقوده السعودية بقتل وإصابة نحو 683 طفلًا في اليمن ومهاجمة العشرات من المدارس والمستشفيات سنة 2016، وذكر في تقريره بالاسم دولة المغرب[30]. وفي نيسان/أبريل 2018، سحب المغرب طائراته من طراز إف 16 من عاصفة الحزم[31]، ولم يتم تأكيد خبر انسحاب المغرب إلا من خلال المقابلة التي أجراها ناصر بوريطة مع قناة الجزيرة في 23 حزيران/يونيو 2019. وقد كان استخدام قناة الجزيرة كوسيلة ليتحدث فيها وزير الخارجية المغربي عن السياسة الخارجية المغربية، في حد ذاته، رسالة غير مشفرة مفادها أن المغرب أصبحت لديه بعض التحفظات عن سياسة حلفائه الخليجيين وبالذات السعودية والإمارات العربية، كما أكد كبير الدبلوماسية المغربية استقلالية القرار الخارجي المغربي وعدم خضوعه لأي أجندات أجنبية. وبالنسبة إلى العلاقات المغربية ـ السعودية نفى ناصر بوريطة وجود أي توتر بين الرباط والرياض وأن قرار انسحاب بلاده من الحرب على اليمن أتى بعد مزيد من التقييم[32].

2 ـ ترتيب المشهد السياسي السعودي وانعكاسه على المحيط الإقليمي

يعَد عهد الملك سلمان بن عبد العزيز الذي خلف أخيه غير الشقيق الراحل عبد الله بن عبد العزيز في كانون الثاني/يناير 2015، من أكثر مراحل النظام السعودي حركية وتطورًا، إذ حدثت خلال الأيام الأولى لتوليه العرش تغييرات مهمة مكّنت أبناء الجيل الثالث (جيل الأحفاد) من شغل المناصب السامية والمؤثرة داخل النظام السياسي السعودي، وبدأت أبرز هذه التغييرات بتعيين الأمير محمد بن سلمان، النجل الأصغر للملك (30 سنة حينها) وزيرًا للدفاع ورئيسًا للديوان الملكي ورئيسًا للمجلس الأعلى لشركة أرامكو السعودية[33]. وفي 29 نيسان/أبريل من السنة نفسها أضيفت إلى مهمات الأمير الابن، رئاسة مجلس الشؤون الاقتصادية والتنمية[34] وولاية العهد مع احتفاظه بالمناصب السابقة، وتم إعفاء أخي الملك الأمير مقرن بن عبد العزيز من ولاية العهد

(29) Michelle Nichols, «U.N. Blacklists Saudi-led Coalition for Killing Children in Yemen,» Reuters, 5 October 2017, <https://reut.rs/3hmGH5y> (accessed on 8 november 2021).

(30) Ali Amar, «Pourquoi le Maroc doit se retirer sans tarder de la guerre au Yémen,» Le Desk, 8 August 201, <https://bit.ly/3FMBhuF> (consulté le 10 novembre 2021).

(31) Ali Amar, «Le Maroc rapatrie ses F-16 du théâtre de guerre yéménite,» Le Desk, 13 avril 2018 <https://ledesk.ma/enoff/le-maroc-rapatrie-ses-f-16-du- théâtre-de-guerre-yéménite/> (consulté le 1 novembre 2021).

(32) Safa Kasraoui, «Gulf Crisis, Saudi Arabia: Bourita Shares Morocco's Position on All Hot Topics,» Morocco World News, 24 janvier 2019, <https://bit.ly/3DAAk5W> (accessed on 14 November 2021).

(33) Yoel Guzansky, «Saudi Arabia After Abdullah,» The Institute for National Security Studies Strategic (INSS Insight), 13 January 2015, <http://www.inss.org.il/publication/saudi-arabia-after-abdullah> (accessed on 15 novembre 2021).

(34) أهم القرارات التي اتخذها مجلس الشؤون الاقتصادية والتنمية منذ أن تولى رئاسته الأمير محمد بن سلمان، تتمثل بتبني استراتيجية تحقيق رؤية المملكة ومجلس الشورى للاقتصاد والتنمية 2030، والإشراف على سير العمل والبرامج التنفيذية للرؤية، ومتابعة نتائج التقارير للتأكد من تحقيق أهدافها.

واستبداله بالأمير محمد بن نايف مع احتفاظه بمنصب وزير الداخلية الذي كان يشغله إضافة إلى ولي ولي العهد، وعلى مستوى وزارة الخارجية حل عادل الجبير محل سعود الفيصل كوزير للخارجية[35].

عُدّت جملة التعيينات والإقالات التي أقدم عليها الملك محاولة جريئة لإعادة ترتيب قواعد الخلافة في السعودية، فبعدما كانت القاعدة تعطي الأولوية في الحكم لأبناء الملك المؤسس، حيث لا يزال البعض منهم في قيد الحياة، انتقل الحكم إلى الأحفاد. وفي 21 حزيران/يونيو 2017 تم تعيين الأمير محمد وليًا للعهد ونائبًا لرئيس مجلس الوزراء الذي يرأسه الملك[36].

هدفت السعودية من خلال هذه التعديلات على مستوى شكل وهرمية السلطة السياسية إلى إحداث إصلاحات سياسية داخلية عميقة تجعل منها دولة أكثر حداثة. وعلى المستوى الخارجي سعت القيادة الشابة إلى تبوؤ المملكة مكانة القوة الإقليمية المهيمنة، وكان لذلك تأثير في مستوى العلاقات المغربية ـ السعودية، حيث تباينت وجهات نظر الطرفين في عدة قضايا أبرزها الأزمة مع قطر، وقضية اغتيال الصحافي جمال خاشقجي، وقضية الصحراء الغربية.

أ ـ الأزمة القطرية

يبدو أن العلاقات القطرية ـ السعودية/الإماراتية لم تكن على ما يرام منذ تولي الشيخ حمد آل ثاني مقاليد الحكم في قطر. وزاد في الخلاف التوجه الذي تبنته قناة الجزيرة الإخبارية ومعالجتها بعض القضايا الداخلية في دول الخليج، وازدادت الخلافات في وجهات النظر بعد اندلاع الربيع العربي والتعامل مع تداعياتها ولا سيما لمواقف الطرفين من الأحداث السياسية التي عاشتها مصر. وهكذا فالقطيعة التي حدثت بين الأقطار الخليجية لم تأتِ نتيجة متغير واحد، وقد كان المغرب ينظر إلى تطور الأحداث من زاوية المحايد الإيجابي، حيث سعى لترك المسافة نفسها بين الإخوة الأشقاء بالرغم من علاقات ملوك المغرب التاريخية مع ملوك وأمراء السعودية وحكام دولة الإمارات.

بالنسبة إلى موقف المغرب من هذه الأزمة فقد كان محط تتبع من جانب كل الباحثين والفاعلين السياسيين. وبالاستناد إلى تاريخ العلاقات بين ملوك المغرب وملوك وأمراء السعودية[37]، لم يتم تسجيل خلاف حول إحدى القضايا الإقليمية، حيث كان موقف الرباط عادة يتماهى مع موقف الرياض، ومن هذا المنطلق ساد اعتقاد لدى بعض السياسيين والباحثين أن الأمر نفسه سينطبق على هذه الأزمة. إلا أن المغرب نظر إلى تطور الأحداث من زاوية الحياد الإيجابي، إذ سعى لترك

---

(35) Glen Carey and Wael Mahdi, «Saudi King Cements Power Around Next Generation in Reshuffle,» Bloomberg, 29 April 2015, <https://bloom.bg/3DJNqOh> (accessed on 15 novembre 2021).

(36) Amjad Ahmad Jibril, «What Happens in Saudi Arabia: Foreign Policy between Continuity and Change: A Study Issued by the Adrak Center for Studies and Consultation,» 11 October 2017.

(37) لم تكن العلاقات المغربية ـ القطرية على مستوى علاقات الرباط بالرياض وأبو ظبي، وقد بدأ التوتر عقب تولي الشيخ حمد بن خليفة مقاليد الحكم بقطر خلف والده خليفة بن حمد آل ثاني في حزيران/يونيو 1995، عقب انقلاب أبيض وذلك أثناء سفر الوالد إلى الخارج، هذا الحادث ألقى بظلاله حينها على علاقة قطر بأغلب الملكيات العربية التي لم تنظر بعين الرضا لطريقة الاستخلاف هاته، كما ساهم توجه قناة الجزيرة الإخبارية التي تم تأسيسها بعد نحو سنة من تولي الشيخ حمد الحكم، وتبنّيها مواقف كانت تثير غضب النظام السياسي المغربي ولا سيما أثناء ضيافة بعض المعارضين في عهد الراحل الحسن الثاني أو من خلال تناول قضية الصحراء في برودة العلاقة بين الدوحة والرباط.

المسافة نفسها بين الإخوة الأشقاء ونأى بنفسه عن هذا الخلاف، على أساس أن أي موقف سلبي لن يزيد الأزمة إلا تعميقًا، وهكذا بعد ستة أيام من إعلان السعودية والإمارات والبحرين إضافة إلى مصر قطع علاقاتها الدبلوماسية مع قطر، صدر أول بلاغ لوزارة الخارجية المغربية، الذي أكد تبنّي الحياد البنّاء[38]. وحتى لا يفهم الموقف المغربي على أساس أنه جاء نتيجة توتر ما في علاقته مع حلفائه الخليجيين التقليديين، أصدرت الرباط بلاغًا ثانيًا متضمنًا سردًا لمجموعة من المحطات التي انصهر فيها الموقف المغربي مع مواقف الدول الخليجية، وبالذات دعمهم لها في حرب الخليج الأولى وتضامنه المطلق مع دولة الإمارات بخصوص سيادتها على جزرها الثلاث إضافة إلى مشاركته في التحالف العربي لدعم الشرعية في اليمن[39]. وعقب إعلان الملك محمد السادس إرسال مواد غذائية إلى قطر أصدرت وزارة الخارجية بلاغًا آخر تؤكد فيه أن هذا القرار لا علاقة له بالجوانب السياسية للأزمة القائمة بين دولة قطر ودول شقيقة أخرى. وفي عز الأزمة قام العاهل المغربي بزيارة قطر في شهر تشرين الثاني/نوفمبر 2017، قادمًا إليها من الإمارات العربية، وقد جاءت تلك الزيارة في سياق تنامي الحديث عن تفعيل وساطة المملكة لتقريب وجهات نظر أطراف النزاع الخليجي.

يتضح من خلال السلوك الخارجي المغربي تجاه هذه الأزمة المتمثل بالزيارة الملكية أو البلاغات التي أصدرتها وزارة الخارجية المغربية، أن المغرب حاول تبرير موقفه وتفسيره على أساس أنه غير مبني على حسابات سابقة أو كردّ فعل على أمر معين، وإنما يأتي انسجامًا مع التوجه المعتاد للمملكة في علاقاتها بالدول الخليجية، ولا سيما أن أسباب الأزمة لم تكن مقنعة للجانب المغربي، إذ ليس هناك نزاع حدودي أو تدخل في الشؤون الداخلية. وبالاستناد إلى نظرية الانقسامية التي تتميز بها المجتمعات العربية، فإن مجرد ظهور تهديد خارجي لهذه الدول كفيل بتذويب الخلافات على أساس قاعدة «أنا وأخي على ابن عمي وأنا وابن عمي على الغريب»، وكذلك على اعتبار أن عامل الزمن يمكن أن يهدئ النفوس وتعود العلاقات إلى سابق عهدها، وهو ما حدث فعلًا، من دون أن نغفل أن الاستثمارات الخليجية في المغرب مثلت سنة 2015 نحو 28 بالمئة من حجم الاستثمارات الأجنبية، وبالتالي فإن المغرب باتخاذه للحياد الإيجابي وعرضه القيام بوساطة بين أطراف الأزمة، كان يهدف إلى الحفاظ على تلك الاستثمارات وتشجيعها.

أكيد أن الموقف المغربي لم يحظَ بقبول لدى قادة السعودية والإمارات، وقد تجلى ذلك في موقفين لهاتين الدولتين، **أولهما** يتعلق بقضية الصحراء التي تعَدّ قضية وطنية ومصيرية للنظام المغربي ومقدسة لدى كل المغاربة بمختلف أطيافهم السياسية، و**ثانيهما** يرتبط بملف ترشح المغرب لاحتضان بطولة العالم لكرة القدم لسنة 2026.

---

(38) «بلاغ: المملكة المغربية تتابع بانشغال بالغ الأزمة الخليجية،» الموقع الرسمي لوزارة الشؤون الخارجية والتعاون الدولي المغربية، 11 حزيران/يونيو 2017، <https://bit.ly/3EaB1o9> (تاريخ الدخول 22 كانون الثاني/يناير 2022). انظر أيضًا: «المغرب: يفضل الحياد البنّاء في الأزمة القطرية الخليجية،» موقع قناة سي إن إن، 11 حزيران/يونيو 2017، <https://cnn.it/3FRBE7b> (تاريخ الدخول 15 آذار/مارس 2022).

(39) بيان وزارة الشؤون الخارجية والتعاون الدولي المغربية، 12 حزيران/يونيو 2017، الموقع الرسمي للوزارة، <https://bit.ly/3NLDb0r> (تاريخ الدخول 22 شباط/فبراير 2022).

ب ـ قضية الصحراء وملف ترشح المغرب لاستضافة بطولة كأس العالم لكرة القدم

بالنسبة إلى القضية **الأولى** (قضية الصحراء) فقد بثت قناة الحدث التابعة لقناة العربية الإخبارية السعودية[40]، ومن دون مناسبة تقريرًا عن قضية الصحراء، حيث وصفت المغرب بالدولة المحتلة وتحدثت عن «الجمهورية العربية الصحراوية» التي أعلنتها جبهة البوليساريو من جانب واحد والتي لا تعترف بها كل من الرياض وأبو ظبي، وتم وصف الإقليم المتنازع عليه بالصحراء الغربية. كما أن قناة أبو ظبي الإماراتية وفي خطوة لا سابقة لها، بثت خريطة المغرب مبتورة من إقليم الصحراء وأصبغت عليه لونًا مغايرًا عن أقاليم الشمال.

ما لا شك فيه أن السعودية والإمارات من خلال هذين الموقفين عبّرتا عن الشعور الذي انتاب قادة قصر المنامة وقصر الوطن على عدم تقبلهم لموقف الحياد الذي اتخذته الرباط في الأزمة الخليجية، وإن كان على المستوى الرسمي لم يصدر أي موقف يزكي ما تبنته القناتان الإخباريتان، بل إن السفارة الإماراتية بالمغرب عدّت ما حدث مجرد خطأ تقني لا غير.

لم تنجرّ الدبلوماسية المغربية إلى التراشق الإعلامي واكتفت بضبط النفس على أساس أن ما بين المغرب والدول الخليجية علاقات ترسخت عبر عدة عقود. وإن كان ذلك بالنسبة إلى الموقف الرسمي، فإن الموقف الشعبي كان مغايرًا، حيث أحدث تقرير قناة العربية جدلًا واسعًا داخل وسائل التواصل الاجتماعي عن صدقية التحالف الاستراتيجي بين المغرب والسعودية، وإلى أي حد يمكن أن يستمر هذا التحالف في ظل الأزمات الحالية والمستقبلية، ما دامت العلاقات الدولية مليئة بالأزمات والخلافات والاختلافات في الرؤى وفي السياسات الخارجية للدول، في حين تبقى مسألة الوحدة الوطنية للحلفاء أمرًا مقدسًا وفي منأى عن أي تحول وتغير في المواقف.

تمثلت القضية **الثانية** بملف ترشح المغرب لاحتضان بطولة كأس العالم لكرة القدم لسنة 2026، حيث لم تساند السعودية والإمارات الملف المغربي ودعمتا علنًا الملف الأمريكي/المكسيكي/الكندي المشترك وقامتا بالترويج له على النطاق الآسيوي. وقد أسفر التصويت الذي أُجري يوم 13 حزيران/يونيو 2018 عن حصول الملف المشترك على 134 صوتًا مقابل 65 لنظيره المغربي، لم تكن أصوات الدول الخليجية الأربعة (السعودية والإمارات والكويت والبحرين) إلى جانب الأردن ولبنان والعراق لتصنع الفارق وتغير النتيجة، ولكن هذا التصويت كان يحمل مرة أخرى دلالة عدم الرضا على طبيعة السلوك الخارجي للمملكة المغربية في القضايا الإقليمية. وهكذا وبعد ساعات قليلة من إفراز عملية التصويت أعلن بلاغ للديوان الملكي أن الملك محمد السادس أجرى مكالمة هاتفية مع أمير قطر الشيخ تميم بن حمد آل ثاني، الذي أبلغ العاهل المغربي عن دعم

(40) أشارت تسريبات ويكيليكس إلى أن محطة العربية ومجموعة الـ أم بي سي في ملكية صهر الملك فهد وليد إبراهيم وأن 50 بالمئة من أرباح القناة هي من نصيب الأمير عبد العزيز بن فهد ابن الملك السعودي الراحل فهد بن عبد العزيز. انظر وثيقة ويكيليكس على الرابط التالي <https://bit.ly/3FWbW1k> (تم الدخول 1 كانون الأول/ديسمبر 2021).

قطر إذا ما قدم المغرب ترشيحه لاستضافة مونديال 2030[41]. وبعد نحو عشرة أيام من تاريخ التصويت قرر المغرب مقاطعة اجتماع وزراء الاتصال للدول المكونة لتحالف دعم الشرعية في اليمن الذي عُقد في 23 حزيران/يونيو في السعودية[42].

ج ـ اغتيال الصحافي السعودي جمال خاشقجي

عقب مقتل الصحافي السعودي جمال خاشقجي داخل القنصلية السعودية في إسطنبول في 2 تشرين الأول/أكتوبر 2018، لم يصدر عن الرباط أي قرار يساند فيه الإجراءات التي اتخذتها الحكومة السعودية بعد نحو أسبوعين في هذه القضية، وذلك من خلال اعترافها بوقوع الجريمة وتقديم المتهمين فيها إلى المحاكمة وبقرارات الإقالة التي باشرها العاهل السعودي في حق مجموعة من الموظفين السامين، بخلاف مجموعة من البلدان العربية التي أيدت ما اتخذته السعودية وفي مقدمتهم مصر والإمارات ، والكويت، والبحرين، وسلطنة عمان، والأردن، وتونس، واليمن، وجيبوتي وفلسطين. كما أن ولي العهد الأمير محمد بن سلمان قام بجولة قادته إلى تونس والأرجنتين مع نهاية شهر تشرين الثاني/نوفمبر، وكان مقررًا أن يزور المغرب، إلا أن هذه الزيارة ألغيت، ولم يصدر من الجانبين أسباب إلغاء الزيارة. وخلال لقائه الصحافي مع قناة الجزيرة أعلن ناصر بوريطة وزير الخارجية المغربي أن عدم استقبال الملك محمد السادس لولي العهد السعودي كان بسبب تضارب المواعيد ونفى أن يكون ذلك نتيجة لأي توتر بين البلدين. إلا أن هذا التصريح لم يفند مظاهر الخلاف بين الدولتين، فخلال اجتماع البرلمان العربي الذي انعقد في القاهرة في كانون الأول/ديسمبر 2018، حدث نقاش ساخن بين المندوب المغربي ونظيره السعودي (الرئيس الدوري)، حيث عارض الدبلوماسي المغربي محاولة ممثل السعودية تقديم اقتراح في البيان الختامي يدين فرنسا من خلال انتهاكها لحقوق الإنسان وعنفها ضد احتجاجات حاملي السترات الصفراء وذلك كرد فعل عن الموقف الفرنسي والحملة التي شنتها الصحافة الفرنسية على السعودية عقب مقتل الصحافي جمال خاشقجي[43].

من خلال تتبع السلوك السياسي الخارجي للطرفين المغربي والخليجي (على الخصوص السلوك السعودي) خلال الحقبة الزمنية 2015ـ2018، يتضح عدم رضى كل طرف على الآخر، وإن كنا قد تحدثنا عن أسباب عدم الرضى السعودي العائد أساسًا إلى عدم تأييد الرباط لمواقف

---

(41) Safa Kasraoui, «Morocco Too Busy for Saudi Arabia's Meeting on Yemen Crisis,» Morocco World News, 15 June 2018, <https://bit.ly/3UbZ1wt> (accessed on 1 March 2022)

(42) Saudi Arabia Unhappy with Morocco's Neutrality in Gulf Crisis: French Analyst,» Morocco World News, 28 June 2017, <https://bit.ly/3tbyseU> (accessed on 25 February 2022).

(43) Tamba François Koundouno, «War of Words between Moroccan and Saudi MPs at the Arab Parliament,» Morocco World News, 18 December 2018, <https://bit.ly/3t7MiPw> (accessed on 22 February 2022).

حسين مجدوبي، «خمسة أسباب وراء امتناع المغرب عن دعم السعودية في أزمتها مع العالم،» **القدس العربي**، 2018/10/19، <https://bit.ly/2PItAZo>.

الرياض في بعض الأزمات الإقليمية، فإنه يمكن وصف سلوك المملكة المغربية برد فعل عن السياسية الخارجية السعودية اتجاهها، إذ إن حكام قصر المنامة لم يتعاملوا مع المغرب بالمقدار عينه الذي أولوه إلى مصر، حيث منذ الإطاحة بالرئيسين المصريين حسني مبارك ومحمد مرسي، ألقت السعودية بثقلها خلف الرئيس الحالي عبد الفتاح السيسي، إذ ضخت السعودية 25 مليار دولار في الاقتصاد المصري للحفاظ عليه من الانهيار ولمساعدة النظام على تثبيت أقدامه ومنع صعود الإسلاميين. ولم يأتِ الدعم السعودي السخي لمصر مرهونًا بشروط، حيث حافظت القاهرة على حريتها في اتخاذ قرارات سياستها الخارجية بما يتمشَّى مع مصلحتها القومية[44].

يمكن عنونة حقبة 2015ـ2018 بسوء الفهم بين المغرب وأغلب الدول الخليجية، وإن لم ينعكس ذلك الاضطراب على جوهر العلاقات الثنائية، وقد سعى كل طرف إلى الابتعاد من المزايدات الإعلامية ووصف ما يحدث بأنه جزء من طبيعة العلاقات الدولية التي لا تتسم بالاستقرار.

ففي ذروة الحرب الأهلية السورية 2015ـ 2016، كانت مصر حينها عضوًا في مجلس الأمن، وقد صوتت لمصلحة مشروع القرار الذي تقدمت به روسيا الاتحادية، وأعلنت حينها القاهرة دعمها لنظام الرئيس بشار الأسد، ولم تتماهَ مع الموقف السعودي الذي أيد مشروع القرار المقدم من جانب فرنسا وبتأييد أمريكي وبريطاني[45]. يضاف إلى ذلك أن مشاركة مصر في التحالف العسكري لدعم الشرعية في اليمن كان رمزيًا ولم يرق إلى مستوى نظرائه الخليجيين. وبالرغم من عدم التوافق في بعض المواقف من القضايا الإقليمية، استمرت المساعدات المالية الخليجية لمصر في التدفق، وأثناء زيارة خادم الحرمين جمهورية مصر في تشرين الأول/أكتوبر 2016، ألقى خطابًا أمام المؤسسة البرلمانية بحضور جميع النواب المصريين، وأعلن البَلدان إنشاء صندوق استثماري بقيمة 16 مليار دولار لدعم الاقتصاد المصري[46].

وهكذا، ومن خلال تفحص الأحداث في السنوات الأولى التي تولى فيها الأمير محمد بن سلمان ولاية العهد، يتضح أن الرباط وجدت نفسها خارج منظور الحليف الاستراتيجي للرياض، بعد أن قدمت عبر عقود دعمًا غير مشروط والتزامًا صارمًا بالدفاع عن جميع التهديدات التي تحيط

(44) Lavergne, «L'économie égyptienne après la tourmente: les défis sont toujours là…,» *Confluences Méditerranée*, vol. 2, no. 101 (2017), pp. 143-154, <https://bit.ly/3NLjl5K> (consulté le 25 mars 2022).

(45) Alain Gresh, «Turbulences dans les relations entre l'Arabie saoudite et l'Égypte,» 2016 <https://bit.ly/3t7edz6> (consulté le 15 mars 2022).
MEE Staff, «Saudi Anger as Egypt Votes with Russia in UN Vote,» Middle East Eye, 13 October 2016, <https://bit.ly/3FRI7yV> (accessed on 19 March 2022).

(46) أشرف عبد الحميد، «مصر.. زيارة الملك سلمان ترسم مستقبلاً جديداً للمنطقة،» العربية.نت، 12 نيسان/أبريل 2016، <https://bit.ly/3t88ZTW> (تاريخ الدخول 1 آذار/مارس 2022).

بالسعودية، وهكذا بدا جليًا اهتمام المغرب بالواجهة الأفريقية وسعيه للانضمام إلى منظمة سيدياو (المجموعة الاقتصادية لغرب أفريقيا)[47].

يمكن عنونة حقبة 2015ـ2018 بسوء الفهم بين المغرب وأغلب الدول الخليجية، وإن لم ينعكس ذلك الاضطراب على جوهر العلاقات الثنائية، وقد سعى كل طرف إلى الابتعاد من المزايدات الإعلامية ووصف ما يحدث بأنه جزء من طبيعة العلاقات الدولية التي لا تتسم بالاستقرار، فحتى بين أكبر الحلفاء تأتي مراحل تسود فيها برودة في العلاقات لكنها لا تصل إلى القطيعة، وهذا ما حدث بالفعل في العلاقات المغربية ـ الخليجية. ولقد أزالت الدول الخليجية كل الشكوك حيال سلوكها الخارجي في القضايا الاستراتيجية التي تهم المصلحة الوطنية للمملكة المغربية، وتجلى ذلك في مواقفها المعلنة تجاه القضية الأولى للمغرب والمتمثلة بوحدته الترابية.

يمكن تقييم العلاقات المغربية ـ الخليجية عمومًا بالجيدة، إلا أنها تظل غير كافية لتطلعات شعوب الطرفين التي تربطها وحدة التاريخ واللغة والدين، فمصلحة الجانبين تقتضي تدارك النقص والفتور الحاصل في بعض أوجه العلاقات.

وهكذا، فمنذ مطلع سنة 2019 انتهج المغرب سياسة جديدة لتكريس سيادته الداخلية والخارجية على الأقاليم الصحراوية، تمثلت بدبلوماسية القنصليات، حيث افتتحت حتى نيسان/أبريل سنة 2022، 26 قنصلية بكل من مدينتي العيون والداخلة. وقد بادرت كل من المملكة الأردنية ودولة البحرين والإمارات العربية المتحدة بإنشاء قنصليات لها في الصحراء الغربية، تجاوبًا مع سياسة المغرب وتكريسًا لاعترافهم بسيادته على هذه الأقاليم. أما السعودية التي لم تنشئ قنصلية لها بعد، بالرغم من صدور الكثير من التقارير الصحافية التي تحدثت عن عزمها القيام بذلك[48]، فإنها أعربت من طريق مندوبها الدائم في الأمم المتحدة عبد الله المعلمي خلال كلمة ألقاها نيابة عن المجموعة العربية بمناسبة جلسة النقاش العام للجنة الرابعة في دورة الجمعية العامة الـ 76 بتاريخ 20 تشرين الأول/أكتوبر 2021، عن دعمها لمبادرة الحكم الذاتي في إقليم الصحراء في إطار سيادة المغرب ووحدته الترابية[49]. الموقف نفسه تبنته دولة قطر من طريق مندوبتها الشيخة علياء أحمد بن سيف آل ثاني، التي دعمت حلًا

(47) Mamoudou Sebego et Ochozias Gbaguidi, «Dynamique de la coopération économique et commerciale entre les pays de la CEDEAO et l'UMA: Cas du Maroc, de la Tunisie et de la Mauritanie,» dans: Cécile Bastidon, Azzedine Ghoufrane et Ahmed Silem, dirs., *Zone de libre-échange continentale et intégration régionale en Afrique* (Paris: L'Harmattan, 2020) p. 81.

(48) علي التومي، «السعودية تستعد لفتح قنصلية بالصحراء المغربية،» جريدة **زنقة** 20/5/2021، <https://rue20.com/510502.html> (تم الإطلاع عليه 1 شباط/فبراير 2022).

(49) Safaa Kasraoui, «Saudi Arabia Reiterates Support for Morocco's Territorial Integrity,» Morocco World News, 20 October 2021, <https://bit.ly/3WBq2v5>. (accessed on 15 February 2022).

سياسيًا في إطار سيادة المملكة المغربية على الأقاليم الصحراوية[50]. ولم يخرج المندوبان الدائمان لدولتي الكويت وسلطنة عمان عن الإجماع الخليجي حول دعمهم مبادرة الحكم الذاتي ووحدة أراضي المملكة المغربية.

خاتمة

يمكن تقييم العلاقات المغربية ـ الخليجية عمومًا بالجيدة، إلا أنها تظل غير كافية لتطلعات شعوب الطرفين التي تربطها وحدة التاريخ واللغة والدين، فمصلحة الجانبين تقتضي تدارك النقص والفتور الحاصل في بعض أوجه العلاقات. فبالنسبة إلى المغرب يظل الوضع الاقتصادي أحد أهم العوامل التي تشغل بال صناع القرار، ولا سيما أن هناك عاملين أساسيين لا يساعدان الاقتصاد المغربي على التطور كثيرًا، **أولهما** تمركز علاقاته الاقتصادية والتجارية مع قطب اقتصادي واحد وهو الاتحاد الأوروبي، و**ثانيهما** ارتفاع الدين الخارجي العام، حيث ارتفع من 33.8 مليار دولار سنة 2012 إلى 42 مليار دولار سنة 2020 بحسب إحصاءات البنك الدولي[51]. ومن أجل مواجهة هذه التحديات فإن الرباط ملزمة بتنويع شركائها الاقتصاديين وتهيئة الظروف المناسبة لتشجيع استقطاب الاستثمارات الأجنبية ولا سيما الخليجية منها، حيث لا يزال هناك ضعف واضح في الاندماج الأفقي لاقتصاد المغرب والدول العربية للخليج، إلا أن هذا لا ينفي التطور الحاصل في إدراك المسؤولين الخليجيين بالمكانة التي أصبح يحظى بها المغرب[52].

أما بالنسبة إلى الدول الخليجية، فالتحدي الأبرز الذي تواجهه هاته الدول مجتمعة يتمثل بالتهديد الخارجي الذي يتمثل بالسلوك الخارجي الإيراني. فبالنظر إلى حجم إمكانيات القوة بين الطرفين يتضح أن هناك اختلالًا لمصلحة إيران، فعلى المستوى الديمغرافي، يلاحظ أن عدد سكان الجمهورية الإسلامية يناهز نحو 84 مليون نسمة، وبهذا الرقم فإنه يفوق ضعفي مجموع مواطني دول مجلس التعاون الخليجي، أما على المستوى العسكري، وبالرغم من تفوق الدول الخليجية في العتاد الذي استوردته بكميات كبيرة من الأسلحة في العقدين الماضيين من الولايات المتحدة الأمريكية، إلا أن هذه الأسلحة تعوزها التقنية لاستعمالها وصيانتها، الأمر الذي يجعلها أقرب إلى مستودعات للأسلحة الأمريكية، وهو ما يجعل هذا التفوق غير ذي جدوى. أما في ما يخص عدد القوات المسلحة فنجد التفوق كبيرًا جدًا لمصلحة إيران ولا سيما بعد تفكك الجيش العراقي على يد القوات الأمريكية.

---

(50) «الانحياز القطري للمغرب في قضية الصحراء يعمق الأزمة الصامتة بين الجزائر ودول الخليج،» **العرب**، 2021/10/27.

(51) «Valeur actuelle de la dette extérieure ($ US courants) - Morocco, South Africa,» La Banque mondiale, <https://bit.ly/3NFejaR> (accessed on 4 March 2022).

(52) قال وزير التجارة والاقتصاد القطري، الشيخ أحمد بن جاسم بمناسبة الملتقى الرابع للاستثمار الخليجي المغربي: «لقد تمَغربنا منذ أن وطئت أقدامنا المغرب، فموقعه الجغرافي والتاريخي يجعل منه خيارًا جذابًا لمختلف دول العالم». انظر: الحسن أبو يحيى، «بنكيران للخليجيين بملتقى استثماري: تأخرتم وتأخرنا،» الجزيرة نت، 28 نيسان/أبريل 2014، <https://bit.ly/3NGBS2M> (تم الاطلاع عليه بتاريخ 22 تشرين الأول/أكتوبر 2016).

هذا اللاتكافؤ في موازين القوى أصبح يفرض على قادة الدول الخليجية توطيد علاقاتها بالبلدان العربية الصديقة لها، وبالخصوص المغرب الذي يمتلك كثافة ديمغرافية مهمة بلغت نحو 37 مليون نسمة سنة 2020، وقوات مسلحة يناهز تعدادها نحو 350,000 جندي. وهكذا فإن الكثافة الديمغرافية وعدد القوات المسلحة المغربية يشكلان عنصرًا مهمًا ومساعدًا للدول الخليجية في مواجهة التهديدات الإقليمية التي تواجهها.

نخلص من خلال ما سبق إلى أن هناك تكاملًا بين الجانب المغربي ونظيره الخليجي، فإذا كان العامل الاقتصادي يصب في مصلحة دول مجلس التعاون ويمثل مصدر قوتها، فإن القوة الديمغرافية والعسكرية من الجانب المغربي تعَدّ عاملًا مهمًا ومساعدًا في اتجاه نسج علاقات اقتصادية وسياسية متطورة جدًا قد تُؤسس لتحالف استراتيجي يصعب فك ارتباطه □

الحراك الشعبي الجزائري بين تقابلية الشارع والسلطة: المنطق والدلالات

مختار مروفل(*)

باحث وأكاديمي جزائري متخصص بالعلم الاجتماع الحضري.

تمهيد

شهدت الجزائر منذ الثاني والعشرين من شباط/فبراير 2019 واقعًا جديدًا، لم يسبق للبلاد أن رأت مثله من قبل. لقد خرج الملايين من الجزائريين في الشوارع، رافضين في البداية ترشح الرئيس المريض عبد العزيز بوتفليقة لعهدة خامسة، وذلك قبل أن ينادوا لاحقًا بتغيير جذري لنظام الحكم. خرج الجزائريون بمختلف أطيافهم وشرائحهم العمرية والمهنية والعقدية نساءً ورجالًا، مرددين شعارات موحدة بلغت أصداؤها التراب الوطني وبلغ وهجها الجالية في الخارج. إن حراك 22 فبراير هو حراك مجتمع نما وترعرع في المناطق الحضرية المأهولة، شبابه ممن ولدوا في عنف التسعينيات وشبّوا على تنوع والآراء وتضاربها، وعلى التواصل من داخل عالم افتراضي فسيح ومفتوح، باحثين في ذلك عن طريقة أفضل في الحياة، قد أصرّوا على إزاحة النظام السياسي بأكمله، الذي حكم البلاد بشرعية ثورة 1954 التاريخية واستأثر هو وذووه بخيرات البلاد العينية والرمزية (أكلتم لبلاد يا السراقين، يهتف الشعب في الشارع).

هذا الحراك المطالب بإعادة التأسيس لقواعد الدولة والحكم (دولة مدنية ليست عسكرية يردد المتظاهرون)، قد ألهب الساحة الإعلامية والفكرية التي تمخضت عن عدة قراءات، أشار البعض منها إلى أهمية التوقيت في تزامن الحراك مع الانتخابات تحت النظام المستبد، وركز البعض الآخر على أهمية الوسائل التكنولوجية ودورها في بناء الشبكات المنظمة للحراك، ورجح آخرون أن تدهور المال العام والفساد، هما العاملان الأساسيان في تغذية احتقان الشارع، لكن هناك من رأى أن الجيل السياسي الجديد، الذي لم يسبق له أن رأى آلام الماضي هو ذاتيًا يحمل عناصر التجديد الديمقراطي، وآن الأوان ليعلن عن نفسه كقوى تغيرية لا تحتمل العيش داخل نظام قديم.

(*) البريد الإلكتروني: hakimmoktar31@gmail.com

إن الملاحِظ لوضع الحراك المجتمعي في الجزائر، لا يمكنه أن يتغاضى عن أهمية الاستقطاب الثنائي الحاصل بين جهتين أساسيتين، جهة الشارع، المنصة الرئيسة التي انتزعها الشباب من الحظر وحوّلها إلى مرفأ رحب يمارس فيه السياسة في أرقى مستوياتها، بعدما همش منها ومن دوائرها ومقارها التقليدية، الجهة الثانية هي السلطة وما تملكه من وسائل إعلامية وقمعية، توظفها في مناوأتها للشارع بغرض مغازلته ومباركة انتفاضته حينًا وشيطنته وتشويهه حينًا آخر. إننا نعتقد أن مصطلح الثنائيات المركب ممن هو مع وممن هو ضد، الذي يتشكل منه الحدث السياسي، هو مدخل مناسب لفهم أعمق، يستجيب للخلفيات الأنثروبولوجية التي يتطور عليها الوضع السوسيو سياسي في جزائر اليوم. يذكرنا ذلك بأنثروبولوجية ك. ستراوس، القائمة على ثنائية مثل القريب والبعيد الطبيعة والثقافة... إلخ، التعامل مع هذه المسائل وفق المنطق الستراوسي، «يقي من التعرج، فهو يقيم التوازن بين القيم الرمزية غير المتقايسة ويضعها في تمظهرات متوازنة»[1].

بناء على هذا سنحاول أن نرصد بعض الثنائيات التي تألف منها المشهد الحراكي الجزائري، وذلك في مشاكسته لنظام الحكم وكيفية مراغمته ومزاحمته، على السلطة بشكل سلمي واحتفالي، ومطالبته بالرحيل وخروجه بالكلية من الساحة السياسية، وحجاجية النظام القائم منذ تموز/ يوليو 1962 في المقابل الداعية إلى العودة إلى النظام والحياة الدستورية، وتعاطيه مع الحراك الشعبي، بمحاولات خرقه أو خنقه «بغرض إدخاله مجددًا إلى بيت الطاعة».

عند نقطة التقاطع تلك، يتكوّن اليوم المنطق والمعنى اللذان يصدران عن حدث الحراك التاريخي، في منازلته لأطروحات السلطة وسردياتها، التي لم تعد تقنع الشارع السياسي الصاخب ذا الطموحات والأحلام العالية السقف. حول هذا الموضوع نتساءل: كيف يتشابك فرقاء السلطة والسياسة في جزائر الحراك اليوم؟ ما الذي تعنيه الأطروحات والأطروحات المضادة في خطاب السلطة والشعب؟ كيف أصبح الشعب حَراكيًا من دون حتى أدلوجة تُحركه أو أحزاب تؤطره؟

لنحكي المشهد الساخن من بدايته، لكن بمنهجية «الخطاب الحَرَاكولوجي المعقلن»، كما يحلو لريحاني الأزهري أن يسميه[2]، الذي نناقش عبر ثناياه حراكَي السلطة والشعب المتدافعين، ففيهما من العناصر ومن الأدوات ما يستدعي القراءة الأنثروبولوجية المعمقة، التي يتواجه فيها القمعي بالسلمي والمقدس بالدنيوي والإثني بالفردي والنوفمبري بـ«الزوافي»، والوطني بالجهوي والداخلي بالخارجي والتذَكري بالتاريخي وغير ذلك من الثنائيات المتشابكة.

(1) Marie-Véronique Amella, «L'organisation dualiste dépassée par elle-même,» *L'Homme*, no. 214 (2015), p. 186 <https://journals.openedition.org/lhomme/23839>. (consulté le 24 mars 2020).

(2) Lazhari Rihani, «Le Hirak, une révolution qui remet l'Algérie au cœur des sciences sociales,» par Frédéric Bobin, *Le Monde*, 8/12/2019 (Mis à jour le 20 février 2020).

أولًا: في خطاب الثكنة وخطاب الشارع

أزيد من ثلاثة وخمسين خطابًا ألقاها قائد الأركان أحمد القايد صالح، خلال زياراته الماراتونية للثكنات العسكرية، مواكبًا بها مجرى الحراك الشعبي وذلك وفق الأجندة التي تنسجم مع ما تصبو إليه قيادة الجيش، التي ساندت ضمنيًا العهدة الخامسة منذ اللحظة الأولى، حيث تعهد قايد صالح «بسير وإجراء الانتخابات الرئاسية المقبلة»، في موعدها يوم 18 نيسان/أبريل 2019، فهو لا يزال يدعم الرئيس عبد العزيز بوتفليقة، فـ«إعادة إقرار الأمن والاستقرار (يقول صالح)، كانت بفضل الرعاية السامية لفخامة رئيس الجمهورية». فالزعيم أو البطل مثلما أُريد له أن يُصور في المخيال الشعبي العام، «قدره في الدنيا هو أن يتمركز في السلطة، في الحاضر والمستقبل ويأخذ على عاتقه تحمل المصاعب الجسام بجسده»[3]، لذلك لم يكن قايد صالح ينتظر الحراك الشعبي، الذي فاجأه وفاجأ معه الجميع، حيث خرج الناس ممتعضين من مشاهد «التوثين» لصور الرئيس المغيب، ومن الاستماتة المبالغ فيها في تقديس شخصه، من جانب السلطة ومن سار في ركبها.

كان صالح ملهمًا لهؤلاء، يخطب من الثكنة ويصف الحراك بـ«النداءات المشبوهة»، ويتهم المتظاهرين «بالدفع ببعض الجزائريين نحو المجهول»، ونعتهم «بالمغرر بهم فهم يجرّون إلى مسالك غير آمنة بل غير آمنة العواقب»، وأطلق فيما بعد على الرافضين لانتخابات 2019/12/12 اسم «الشرذمة التي تعرقل المسار الانتخابي». لقد دعم صالح الانتخابات بكل قوة، فهو دعا في السادس من آذار/مارس 2019 الجزائريين، إلى الذهاب إلى صناديق الاقتراع بكثافة، أي بعد ترشح بوتفليقة مباشرة بثلاثة أيام قبل الخطاب، هذا الأمر كان مستفزًا جدًا للشارع المحتقن من السلطة ومن رموزها، لذلك خرج الجزائريون بالملايين في جمعة 8 مارس مرددين شعارات من قبيل: «جمهورية ماشي (ليست) مملكة» «هاتوا بالشرطة وبالصاعقة، لن تكون الخامسة يا بوتفليقة»، «جزائر حرة ديمقراطية»، «المادة سبعة السلطة للشعب» وغيرها من الشعارات التي تولدت من رحم الغضب، فالغضب مثلما يكتب هـ. ستيفان «يجعل من أصحابه مناضلين أشداء وملتزمين»[4].

وبالفعل فقد أربك الخروج الكبير هذا السلطة، فاضطرت إلى مراجعة حساباتها. وفي محاولة منها لاحتواء الحراك الشعبي، خطب قائد الأركان في السادس والعشرين من شهر آذار/مارس، فذكر أنه سيطبق المادة 102، مضيفًا عليها لاحقًا في 30 من الشهر نفسه، ذكره للمادتين 7 و8 من الدستور، اللتين طالما طالب بها الحراك منذ انطلاقه، لكن سرعان ما سكت عنها صالح فيما بعد ولم يعد يذكرها. لقد ألقى بوتفليقة في إثر ذلك بالمنشفة، فأعلن عن إلغاء انتخابات 18 نيسان/أبريل سنة 2019، أرادت السلطة أن تُجيِّر هذا الحدث لمصلحتها، تمهيدًا منها لاستئناس الحراك والإعلان بعد ذلك عن أن مطالبه قد أنجزت، لكن سرعان ما تفاجأت أن رأت الشعب لا يخرج في احتفالات عارمة، بل الذي حدث أن خرج أحد الشباب من أبناء الأحياء الشعبية بالعاصمة، ليقاطع

(3) Abderrahmane Moussaoui, *De la Violence en Algérie* (Algérie: Barzakh éditions, 2006), pp. 232-233.

(4) Stéphane Hessel, *Indignez-vous!* (Montpellier: Indigène éditions, 2001), p. 3

إحدى وسائل الإعلام، التي كانت تبث وتراقب ردود الأفعال في الشارع ليلًا، وقال لها باللهجة الجزائرية غاضبًا: «أحنا ماخرجناش باش نبدلوا pion بـ pion يتناحاوو قاع (مشيلا بيده)»، هذه الكلمة قد انتشرت كالنار في الهشيم في وسط الجزائريين وتحولت إلى أيقونة شعارات الحراك الأولى، «يتنحاو قاع»: شعار تصدرته هاشتاغات التويتر وكتب على اللافتات يومي الثلاثاء والجمعة، ورفعت صورة الشاب المشيل بيده، كما تنافس فنانو الحراك للتغني بها وأصبحت كلمة السرّ التي أجمع عليها مختلف الحراكيين في الشارع، يرددونها في مختلف الولايات والمدن بحناجر موحدة نساء ورجالًا من مختلف الأعمار يصدحون بها قائلين: «viva l'Algérie é يتنحاو قاع».

غدا الإعلام البديل في يد الضعفاء «الزواولة» الأداة القوية المثلى للمقاومة ومؤشراً من المؤشرات الدالة على هشاشة الرابط الذي يصل الجماعة التقليدية بالنخب السياسية الحاكمة في البلاد.

وصف قائد الأركان هذه الكلمة الملخصة لهدف الحراك، بـ«التعجيزية وغير العملية فلا يمكن الاستجابة لها» وشدد على ضرورة الرجوع إلى الحلول الدستورية، التي جادل الحراك فيها كثيرًا أنها فات أوانها، إذ ما من شرعية لعبد القادر بن صالح الذي استمر في رئاسته المؤقتة للدولة، حتى من بعد انتهاء مدة التسعين يومًا التي نص عليها الدستور، ولا من قانون للإبقاء على حكومة نور الدين بدوي التي طالب الحراك برحيلها. لقد أصر قائد الأركان على هذا المسار، لا بل راح يدعو إلى تشكيل لجنة للحوار، على أن يكون موضوعها الأوحد هو التحضير للانتخابات، يديرها في ذلك رئيس البرلمان الأسبق كريم يونس (KDS) (القبائلي الخادم للسلطة) كما نعته الحراكيون. لقد جاءت هذه اللجنة في 4 آب/أغسطس 2019 في أجواء ثورية غير مسبوقة، رفض فيها المتظاهرون جميع مقترحات السلطة، وألحّوا في الجمعة التاسعة والعشرين على ضرورة تطبيق المادتين 7و8 من الدستور، فهما السبيل الأوحد لإنهاء الوضع القائم، إذ بموجبهما يتم إرجاع السيادة في الحكم إلى الشعب وفي تقرير المصير. ورددوا قائلين: «النظام ارحل».

لكن في المقابل ظل قائد الأركان على موقفه، رافضًا الحلول الثورية، ومشددًا على «تطبيق مخرجات الدستور» لمعالجة ما سمّاه «الأزمة السياسية»، كما رفض كل مقترحات المعارضة للدخول في مرحلة انتقالية أو تعيين هيئة رئاسية، وظل يردد أن «عهد المراحل الانتقالية قد انتهى»، دخل في صراع حاد مع الحراك الشعبي، وأغلق العاصمة الجزائرية أيام الجمعة، ورفض رفع الراية الأمازيغية في تظاهرات الحراك، وأمر باعتقال النشطاء من الحركيين بسبب ذلك. لقد كانت أبرز القرارات تصدر عن مكتبه، فهو من قرر ضرورة إجراء الانتخابات الرئاسية في 12 كانون الأول/ديسمبر 2019، التي جاءت برئيس الحكومة الأسبق عبد المجيد تبون، أحد داعمي العهدة الخامسة وتم تنصيبه في احتفال رسمي، يتصدر مشهده كبار الجنرالات ومسؤولي الدولة يوم 2019/12/18، ليعلن بعدها بخمسة أيام عن وفاة أحمد قايد صالح بسكتة قلبية وخروجه نهائيًا من المشهد.

ثانيًا: إعلام السلطة وإعلام الزواولة

تتصدر مواقع التواصل الاجتماعي لعبة الجدل الاجتماعي بمختلف الطرائق، «اللايفات» الفيسبوك واليوتيوب والتويتر، حيث يدور نقاش محتدم روافعه الأساسية التعاليق والمحاجّة والسخط والسخرية والعمل الفني، الموجهة كلها ضد وسائل الإعلام الرسمية والصحافة المكتوبة بصورة أولية، فعلى أرض «النت» تدور معارك ساخنة، ذخيرتها الأساسية القراءة والقراءة المضادة بالحرف والصورة والفيديو؛ إذ لا يمكن للخطابات الاجتماعية المتداولة ذات الاعتراف العمومي، أن تمر دونما تفكيك وإعادة تشكيل داخل أقنية التواصل الاجتماعي وآلياتها المختلفة من طرف نشطاء الحراك؛ يستهدف الأمر هنا بالأساس فاعلين اجتماعيين، من سياسيين ومسؤولين وإعلاميين وشخصيات عامة، المتصدرين الحديث في الشأن العام والموضوعات الراهنة، حيث «تتعهد مواقع التواصل»[5] الاجتماعي بالتصدي لهم بلا كلل ولا ملل.

يتعالى شأن البدائل الإعلامية هذه، في ظل تصحر الساحة السياسية من العمل، أو تكاد، وترهل النشاط النيابي والنقابي والجمعوي المدجن في الغالب. لقد احتلت وسائط التواصل الاجتماعية التمثيل والعمل السياسيين الصدارة من كل هذا، وهدمت الاحتكار الرسمي للإعلام، وبرهنت عن تحول ثقافي في المجتمع وأنشأت قوة فاعلة في المجال الافتراضي. لقد غدا الإعلام البديل في يد الضعفاء «الزواولة» الأداة القوية المثلى للمقاومة ومؤشرًا من المؤشرات الدالة على هشاشة الرابط الذي يصل الجماعة التقليدية بالنخب السياسية الحاكمة في البلاد. إن الحراك وخلال مدة تزيد على السنة لا يزال يضخ قوته ويفرد اكتساحه على الواقع من على تلك المنصات الرقمية، التي أثرت بفعلها في الحاكم والمحكوم على حد سواء. لذلك فالسؤال الجدير بالطرح هنا، هو كيف تحول ذلك المواطن البسيط المتلقي لما تقدمه له القنوات الرسمية المحتكرة والمكرسة للرؤية الأحادية، إلى مواطن مشارك ومتفاعل قد توَّج نشاطه هذا بثورة شعبية سلمية أصبحت ملء السمع والبصر؟

إن أولى طوالع الوعي قد خرجت من جيوب الغضب المتنامي، ومن رحم الظلم المجتمعي وغياب العدالة الاجتماعية. عن «الحرَّاقة» هنا نتحدث، عنوان للتيه والضياع الشامل لكثير من الشباب الجزائري، الذين تفككت لديهم مختلف أشكال الاندماج والروابط الاجتماعية، فلقد سجَّلت سنة 2018 وحدها ما يربو على 3983 محاولة[6] لاجتياز الضفة الأخرى من البحر، صور جثث الشباب المتناثرة التي أكل منها الحوت وألقت بها أمواج البحر على الشواطئ، كانت ولا تزال صادمة للرأي العام وهي تجول وتجوب بكثافة صفحات التواصل الاجتماعي، وليس الإعلام العمومي المكتفي بتجريم الظاهرة بالدين والقانون. قوارب الموت الصغيرة التي تعج بالشباب الحرَّاق، وهم يصورون من على هواتفهم الذكية اعتذاراتهم لأمهاتهم وتحميلهم للسلطة ما آل إليه وضعهم، هي في منأى عن أعين رقيب الإعلام الرسمي، تروج فقط وتنتشر على حسابات الفيسبوك واليوتيوب بشكل مباشر،

(5) Siham Najar, *Le Cybercivisme au Maghreb et dans le Monde Arabe* (Paris: IRMC Karhtala, 2013), p. 227.

(6) المنظمة الجزائرية للدفاع عن حقوق الإنسان2018 .

بعيدًا من أي رخصة من محافظ أو فتوى من إمام أو إذن من أجهزة النظام، التي طالما اشتكى منها الشباب الحرَّاق وضجر، فهي لم تجبه عن أسباب تحييده عن فرص التمكن من وسائل الحياة الكريمة.

لقد وجد الأخير في منصات التواصل الاجتماعي ما يروي به ظمأه ويحقق مراده وأمله. يمكن التحدث هنا عن الذين اجتازوا ذلك الامتحان العسير بنجاح، أي «الحرَّاقة» ووصلوا إلى الضفة الأخرى وتحولوا بعد ذلك إلى قادة رأي، إلى أولئك الشباب المحبط من غياب المشاريع في بلادهم، وأصبحوا شوكة في خاصرة سلطة الحكم.

ثالثًا: أسماء على معركة الوعي

أمير ديزاد على سبيل المثال، ذلك الشاب الحرَّاق الوافد من أعماق الجزائر المهمشة، هو واحد من هؤلاء، فقد تحول في ظرف قياسي إلى أيقونة، بالنسبة إلى تلك الشريحة اليائسة والمطحونة داخل البلاد. اشتهر أمير عبر مقاطع الفيديو التي كان يبثها في بداية عهده من ألمانيا سنة 2011 يتحدث فيها بلغة الشعب والشارع العفوية، أي بخلاف لغة الإعلاميين والسياسيين المفوهين الذين يجيدون التعبير والكلام الفصيح. يتكلم أمير عن معاناة «الزواولة» بلغتهم، وعن بعض المسؤولين والوزراء ومن هم في «علية القوم»، مواجهًا إياهم بملفات الفساد وبالصور الحارقة، لما هم عليه من ترف ومن حياة باذخة. صفحته على الفيسبوك قبل استهدافها وغلقها، قد تجاوز عدد مشتركيها المليوني شخص. وتصل تدخلاته المباشرة متابعتها حين البث أحيانًا إلى الأربعمئة ألف مشاهد. لقد أصبح مرجعًا لا يُشق له غبار في أخبار الفساد وجنة بعض المسؤولين وذويهم، لقّبه أمازيغ القبائل بمعطوب الوناس الثاني (المطرب القبائلي المعروف بمعارضته لنظام الحكم واغتيل في 25 حزيران/يونيو سنة 1998)، وأطلق عليه مريدوه لقب «قاهر الجنرالات»، واتهمته أذرع السلطة الإعلامية بالعمالة وبالتخابر لجهة أجنبية. صدح الشباب باسمه لأول مرة في تشرين الأول/أكتوبر 2018 وعلى نحو احتفالي من على مدرجات الملاعب مرددين بقولهم: «الله أكبر أمير ديزاد».

دبَّر له القضاء الجزائري في الشهر نفسه قضية، نشرت تفاصيلها قناة النهار المقربة من السلطة. قضية «شبكة أمير ديزاد»، التي راح ضحيتها صحافيون وفنانون ورياضيون، واتضح بعد مدة من احتجازهم ومحاكمتهم، أنها فبركة إعلامية حاكها خصماء أمير ومناوئوه، المنزعجون جدًا من منشوراته غير المنتهية عبر مواقع التواصل الاجتماعي. معارك أمير بهذا الخصوص مع صاحب قناة النهار المثيرة للجدل (قناة العار هكذا ذاع صيتها وتداول في أوساط الشباب خصوصًا)، هي أشهر من نار على علم. هي معارك تشهد على التنازع الشديد والصراع الشرس، على اعتلاء عرش الصورة والخبر بين إعلام السلطة الثقيل الممركز، وما يملكه من وسائل وإمكانات واسعة، وبين إعلام منفلت من قبضة الرقيب الذي ما لبث أن برهن عن علو كعبه، في معركة كسب العدد، وخطاب الخبرة، واللجوء إلى الفضائح التي برز فيها أمير وأمثاله من المدونين. فإمبراطورية الإعلام الرسمي الثقيل، قد واجهها شاب مثل أمير الحرَّاق، بسلطة متخيلة موازية أطلق عليها هو

نفسه في زمن الحراك الشعبي «قيادة أركان الفيسبوك بالنيابة»، في إشارة واضحة منه يحاكي فيها قيادة أركان الجيش التي توسطت العمل السياسي الجزائري، و«استخبثت» شعار «دولة مدنية لا عسكرية».

تأتي منشورات أمير ديزاد في إطار وصلة من أعمال النشطاء والمدونين والبودكاستر على «النت»، الذين تصدروا المشهد وشكلوا بذلك «فضاءً اجتماعيًا وذهنيًا» من خارج المجال الرسمي، هم «الإثنو سكايب»[7] الذين تحفل الشبكة بأسمائهم وبخطاباتهم؛ لطفي D.K واحد من هؤلاء هو مغني الراب الشهير المعارض للسلطة، فعلى صفحته ما يربو على الأربعة ملايين مشترك، أغنيته «ديما عقابهم» الحارقة التي نشرها على صفحته يوم 11 كانون الأول/ديسمبر 2015، حققت 410.000 مشاهدة وأكثر من 10.000 مرة مشاركة. استغل لطفي شهرته هذه، فتحول إلى منشط على قناة المغاربية الممنوعة في الجزائر برنامجه المعروف «بفرغ قلبك» على قناة المغاربية؛ له رواد ومحبون كثر من المتفاعلين والمتدخلين من داخل الوطن وخارجه، فهو قد نال من الشهرة ما نالته من قبل حصة «واش قالوا في الجرنان» لمذيعها الساخر والمميز غاني مهدي، التي كان ينتظرها الكثير من الجزائريين بشغف مساء كل جمعة لما تنشره من توعية سياسية.

السِّباب والشتائم أو حتى السخرية والضحك وإن كانت لا تقتل الشخص المستهدف، مثلما تفعل الأدوات الحادة، إلا أنها تجرح صاحبها وتذهب بهيبته وسمعته ولا تدع له من واجهة يظهر بها بين الناس.

رشيد نكاز رجل الأعمال الجزائري في فرنسا، لا يمل ولا يكل من الحل والترحال والتجوال داخل الوطن وخارجه، إذ استطاع بهاتفه الذكي أن ينشر الكثير من مقاطع الفيديو، تحدث فيها عن مكتسبات بعض المسؤولين الكبار في الخارج، «علي بابا واللصوص الأربعون» مثلما يحلو له أن يسميهم. فهو يجوب أقطار الوطن، يتحدث لعموم الناس في الشوارع، يتصدر المسيرات والاحتجاجات في العاصمة، في الصحراء، في بلاد القبائل، في الشرق وفي الغرب، يزاول ذلك كله بهاتفه النقال، ينظر إليه الكثير من مريديه على أنه «محامي الفقراء»، قد صنع شعبيته وجمهوره من وسط عموم الشعب، وذلك بعمله الميداني الدؤوب الذي لا نظير له في البلاد.

رابعًا: البودكاستر مجادل الانتخابات

نتحدث هنا عن جوكر ديزاد وأنس تينا، شابين من الأحياء الشعبية بعاصمة البلاد، «تنجَّما» على الشبكة العنكبوتية، وخصوصًا بعدما أطلق الأول غداة الانتخابات التشريعية المزمعة في 4 أيار/مايو 2017، عملًا فنيًا مدته لا تتجاوز الأربع دقائق، عنوانه «ما نصوطيش» «لا

(7) Arjun Appadurai, *Après le colonialisme: Les Conséquences culturelles de la globalisation* coll. «Petite Bibliothèque Payot» (Paris: Payot, 2005), pp. 71-72.

أرمي بنفسي»، كلمة قريبة في صياغتها من «ما نفوطيش» «لا انتخب»، هي رسالة درامية كلها إدانة للسلطة على التهميش الذي يعيشه الشباب. لقد حصد هذا العمل ما يزيد على الأربعة ملايين من المشاهدة في أيام قليلة. أنس تينا، في عمل مماثل آخر واضح من عنوانه «رسالة إلى البرلمانيين»، غمر وسائل التواصل الاجتماعي ونال من المشاهدة، ثلاثة ملايين متابعة. فيديو «راني زعفان» «أنا غاضب» للشاب نفسه، قد وصلت مشاهدته إلى الخمسة ملايين، في مشهد فني رائع أبكى فيه الكثير من الناس، لقد تحدث تينا عن الحرقة، البطالة، المسؤولين وأبنائهم المرفهين، شهداء ثورة 54، الخدمات الصحية الرديئة وشيطنة القبائل. لقد أزعج ذلك السلطة أيّما إزعاج، وخصوصًا بعدما ضرب هذان الشابان في مقتل حملة «سمّع صوتك»، التي سخّرت لها السلطة جميع مقدراتها المالية والإعلامية، وذلك من أجل حفز الناس وحثهم على الذهاب للتصويت إلى مراكز الاقتراع.

ففي رد ضمني من وزير الداخلية ذكر أنه لولا «الفراغ القانوني الموجود في مراقبة الفايسبوك» لما حدث ذلك الانفلات، وشدد على ضرورة إيجاد آليات لمراقبة الفضاء الأزرق. أما وزير الشؤون الدينية فقد هاجم علنًا جوكر ديزاد وأنس تينا، ورأى أن ما يقومان به عمل «مخالف للدين ومهدد للاستقرار»، في حين علق وزير الاتصال على «فيديو راني زعفان» الكاسح، بأنه «يذكّر بسنوات الإرهاب وأنه يدر على صاحبه بالأرباح، بينما هو يقدم نظرة سودوية لا تخدم البلاد» على حد زعمه.

ما الذي يعنيه بالمناسبة الفرح والغضب السياسيان هنا؟ ولماذا حركت تلك العواطف صاحب القرار في البلاد؟ لأن المسألة وبكل بساطة وضعت اليد على حبل الروابط الاجتماعية الحساس، إذ على أرض مشاعر الغضب والفرح، والقدح والمدح المتبادلين، تختمر العلاقات وتنجز الروابط. ففي جزائر الحراك تُكَوّن عجينة الرابطة الاجتماعية الجديدة من المواد المعنوية، تحركها في ذلك دوافع السلطة والحكم فالرابطة الاجتماعية؛ يقول أنريكيه «هي قبل أي شيء رابطة للحكم»[8]. وبالفعل فقد نجحت تلك الأقنية الفوق السلطوية مجتمعة، في المساهمة الواضحة في نقل قطاعات واسعة من الجزائريين الغاضبين، إلى حيث لا تريد سلطة الحكم أن تراهم، إلى الشوارع والأمكنة العامة في الولايات الكبرى بل حتى في المناطق النائية والعميقة من البلاد.

خامسًا: النوفمبري البادسي والزوافي الحَرْكِي

في السياسة تأتي جملة النعوت، من قصف وقذف كلامي متبادل بين الفرقاء، في العادة في الاتجاه المخالف والمعاكس لطريق الأخلاق العامة والقيم المتعارف عليها بين الناس، فـ«اللمز بالألقاب» يراد به عادة إصابة شرف الآخر والتهجم على كرامته الأخلاقية والاجتماعية. فالسِّباب والشتائم أو حتى السخرية والضحك وإن كانت لا تقتل الشخص المستهدف، مثلما تفعل الأدوات الحادة، إلا أنها تجرح صاحبها وتذهب بهيبته وسمعته ولا تدع له من واجهة يظهر بها بين الناس.

(8) Eugène Enriquez, *De la Horde à L'Etat, essai de psychanalyse du lien social* (Paris: Gallimard, 1983).

سجلات التجريح المضحك منه والمحزن في هذا الباب وضمن جزائر الحراك، هي على ثلاثة أنواع إذا ما شئنا عدّها وإحصاءها: السجل الدوابّي الذي تتصدره أسماء بعض الحيوانات، والسجل التاريخي بوجهيه المتنافرين المجاهد الشهيد ونقيضه الحَرْكِي، ثم السجل الأخلاقي المستهدف للأجساد وما ينسب إليها من أكل ومن أفعال جنس فاضحة وفساد. في جزائر الحراك، فإن هذه السجلات الثلاثة هي عناوين رئيسة لتلك «الملحمة الحضرية»، التي جرت وتجري تفاصيلها على مسرح المدن بالدرجة الأولى.

ما الذي تعنيه رمزية الحيوان واستغلال اسمه في مثل لحظة الحراك السياسي، الذي بدلاً من أن تكون المحاجَّة فيه وعليه عقلانية راقية، تنحط وتنزل إلى مستوى النعت بالصور الحيوانية؟

«المبردعين» هي إحدى هذه المسميات الرائجة، ففي إشارة إلى الحمير والبغال، التي توضع على ظهورها تلك الأدوات فتُركب أو يُحمل عليها الأثقال دونما وعي منها، وصم خصوم الحراك المتظاهرين في الشارع، الذين لم تتوقف مطالبهم عند حد إبطال العهدة الخامسة واستقالة الرئيس، ولم تقنعهم حملة سجن رموز الفساد من «العصابة» ومن «رجال الأعمال»، الجارية على قدم وساق، مع العلم أن «منجل»[9] القصاص الذي يبلي في هذا الشأن البلاء الحسن، لم يتوان ولم يتردد في حصد الرؤوس الكبيرة. فالذين ينكرون هذه التطورات هم بالفعل من «المبردعين»، أي بغال وحمير! يرد الطرف الثاني على خصمه بشتم آخر، «اللَّاحَّاس الرونجاسي» لاعق البيادة كناية عن الكلب، هو وصف مضاد آخر شاع استعماله على مواقع التواصل الاجتماعي، روّجه الحَركيون أثناء معايرتهم مؤيدي «حكم العسكر» وطالبي ود السلطة. فالحمير والبغال والكلاب حيوانات حاضرة بأسمائها أو بكناياتها تُستدعى وتوظف كأدوات للتخاصم وتلبيس الصور وإعادة رسم وتشكيل الملامح، من طرف إلى طرف آخر.

أي إذا ما شئنا التحدث بلغة بورديو، فنحن في صدد استئناس العنف في رمزية الشتم وكبح جماح الأحقاد والتعدي الجسدي المستعاض عنه بالكلمة، التي تُحَيِّد العنف لكن من دون إلغاء احتمالية وقوعه، هنا يكمن معنى العنف الرمزي، فهو عنف مشفَّر في ذاته ومشفِّر لغيره «يضع أشكالًا (مشفَّر) ويشكل أخرى (مشفِّر)» وهذا هو معنى الشتيمة المتبادلة. فالعنف الرمزي كما يقول بورديو هو شيفرة مشتركة[10]، أعادت هنا استحضار الوحش واستدعت الطبيعة وليس الثقافة، وذلك في سبيل نفي صفة التحضر والتمدن السياسيتين عن الخصم، فعلى حلبة النماذج العتيقة السابقة عن الدولة تناقش أدبيات الديمقراطية وتُراجع فلسفة تكوّن السلطة.

(9) أطلق على أحد الأمنيين العسكريين الذي روجت له وسائط التواصل الاجتماعي الموالية للسلطة، بذا يغيب الحديث عن المؤسسات وعن دولة القانون والقضاء المستقل ويحتفى بدلها بالوسائل «الأركئيكية».

(10) Pierre Bourdieu, «Habitus, code et codification,» *Actes de la recherche en sciences sociales*, vol. 64 (septembre 1986), p. 41.

ضمن هذا الوضع القائم نتساءل: ما الذي تعنيه رمزية الحيوان واستغلال اسمه في مثل لحظة الحراك السياسي، الذي بدلًا من أن تكون المحاجَّة فيه وعليه عقلانية راقية، تنحط وتنزل إلى مستوى النعت بالصور الحيوانية؟ بتعبير آخر لماذا يتم استدعاء المسمى الحيواني وليس الإنساني في مسار كل سردياته هي المطالبة بالتغيير وإعادة البناء، على قواعد يكون فيها الشعب هو مصدر السلطات؟ إن أنسب رد على هذه التساؤلات، هو في ما ذكره ف. بورغاد لما كتب بالحرف «أن التوصيف بالحيوانية خارج واقع علم الحيوانات، لشرائح مخصوصة من البشر ومن الحيوان، إنما هو عبارة عن مسار المقصود منه هو نزع حق المطالبة بالحق»[11]، يضيف الكاتب لاحقًا، «أن تلك المفاهيم هي معيارية الصنع، تعمل على إنشاء وضعية داخل التراتبية وخلق المكانة»[12].

سادسًا: رمزية الجسد

الانحدار بالمكانات إذًا والنزول بها إلى مستوى الوحشنة، بغرض تشويه ما سمَّاه ابن خلدون تقريبًا «أنبل الممارسات» (في إشارة منه إلى علم السياسة)، هو المبتغى الذي سعى من أجله الطرفان في هذا السجال. ليس هذا وحسب بل حتى المأكولات السهلة الاستهلاك والبخسة الثمن، استدعيت وأدرجت ضمن قاموس الشتائم السياسية الناشئ غداة الحراك الشعبي، من ذلك نجد مصطلحَي «الفرامجية» (Les cachèristes)، أي أولئك المُطعَّمين بالجبنة واللحم المفروم المجفف في القوالب الذين تُحشِّدهم السلطة في التجمعات الانتخابية بخاصةٍ، فتضفي على الحدث نوعًا من الشرعية ومن الصدقية، «ففي المواكلة والمشاربة» في عرف «دولة الشخص»، ما يوفر من الأتباع اللازمين الذين لا يُستغنى عنهم في مثل هذه المناسبات، لم تخطئ مواقع التواصل الاجتماعي المعارضة هذه الفئة، حيث عجّت منصاتها بالسخرية وبالتنكيت عليها، مستهدفة في ذلك وبشكل ممنهج، «عقل وقلب الخصم وليس جسده، أي أنها اتجهت إلى المعنويات. إنها ببساطة تود النيل من فكر وروح الخصم حتى تحطم من معنوياته»[13] وتعرّيه وترفع عنه الغطاء وتتركه من دون سند. بهذه النعوت وصم الحراكيون «الشَّيَّاتِين» المسَّاحين الذين تستخدمهم السلطة كلما احتاجت إليهم لتتطهر من أدرانها[14].

في الطرف الخصم ومن أجل الفتِّ في عضد المناوئ، والحد من قوادحه وجوارحه، يجترح موالو السلطة ملفوظات إضافية يعززون من خلالها ترسانتهم اللفظية الهجومية. فعلى ملف

---

(11) Florence Burgat, «La Logique de la légitimation de la violence: Animalité vs humanité,» dans: Françoise Héritier, *De la violence II* (Paris: Editions Odile Jacob, 1999), p. 45.

(12) Ibid., p. 47.

(13) عبد الفتاح عبد الغني الهمص وفايز كمال شلدان، «الأبعاد النفسية والاجتماعية في ترويج الإشاعات عبر وسائل الإعلام وسبل علاجها من منظور إسلامي،» **مجلة الجامعة الإسلامية**، السنة 8، العدد 2 (حزيران/يونيو 2010)، ص 145ـ147.

(14) بخلاف ما يذهب إليه غوفمان فإن «الشيات» يتقصد إهدار ماء وجهه ولا يتحرج من تلك الصفة، بل هو يفتخر بها ويصف نفسه «بالشيات» فاطمة الزهراء بوصبع، خالد بونجمة ومحمد بن حموا وغيرهم، تصريحاتهم العلنية أمثلة على ذلك.

الأخلاق والمساس بالأجساد والطعن في الشرف والكرامة يحتدم الخصام ويستعر، بدأ بوصف الحراك بـ«التحكاك» بين الجنسين، والتنادي من على صفحات الفيسبوك بعبارات مروجة، تقول «شدوا بناتكم وخواتاتكم». ووصف أحد المتحدثين المعروفين على اليوتيوب المتظاهرين بالجواري والغلمان، وتكرار ذلك من وزير الداخلية صلاح الدين دحمون، الذي أقيل من منصبه عقب وصفه الحراكيين بالمثليين والشواذ، وصولًا إلى انتشار تحذير الناس من الخروج يوم الجمعة، المصادف للرابع عشر من شباط/فبراير ذكرى «عيد الحب» (Saint Valentin)، بدعوى أن المثليين سيتظاهرون يومها وسيغزون الشوارع. بناء على هذا التنابز، يتبادل المتناحرون فيما بينهم عبارات السب والشتم التي تدور رحاها كلها على محور الجسد.

إن البطن والفرج عضوان جسديان حيويان حاضران هنا بقوة في جدلية الحكم والتصدَّر للسياسة، فما الذي يعنيه إقحام تلك الأعضاء الجسدية في المعترك السياسي؟ في الحقيقة الجسم البشري هنا يُقرأ في فحواه، الجسم الاجتماعي، فهذا مرآة لذاك ومن على أساسه تنشأ السلطة ويثبت الحكم. لقد كشفت عن هذا المعنى بكل وضوح الباحثة ماري دوغلاس، إذ وصفت الجسم البشري بأنه «يعيد إنتاج على مستوى ضيق السلطات وجميع المخاطر التي تنسب إلى البنية الاجتماعية»[15]، فمثلما للجسد مناطق خطرة وحساسة كذلك للمجتمع المناطق نفسها، والمرأة هنا أو حتى الشواذ هم المناطق الأكثر ضعفًا في جسم المجتمع، المبني أصلًا على قيم الهيمنة الذكورية الخشنة وعلى تثمين الرجل الفحل. فمن العبث وفق هذا المنطق أن تأتي الإناث والشواذ بصفتهما الجنسانية الرخوة، ويطالبن بتغيرات شاملة تمس مصير الوطن. هذا ما يعتمل في العمق في واقع الأمر، ولا يمكن رؤيته على أرض الواقع إلا في شكل صور كاريكاتورية مضحكة على مستوى «النت»، أو اللوحات المرسومة والمرفوعة، يحملها الناس ويتظاهرون بها على خشبة الحراك ممارسين بذلك «الاعتداء المتحضِّر»[16].

سابعًا: الذاكرة بين السلطة والحراك

أخيرًا وليس آخرًا، تأتي مناكفات الذاكرة وخلفيات التاريخ، لتدلي هي الأخرى بدلوها وتساهم بدورها في إعادة تكوين الحاضر وإلهاب مخيلته. يمكن التحدث هنا عن رمزية تشرين الثاني/نوفمبر التاريخية وقدسية المجاهد والشهيد لدى الذاكرة الجماعية، بوصف ذلك كله موضِعًا من المواضع المشتركة (Topos) يتعارك على أرضها الجميع في إثبات وطنيته وولائه المطلق للرموز وللثوابت، فهو بالتالي مُشعل «لرغبة المحاكاة» ينسج على منوالها كل من الفرقاء وبطريقته الخاصة حقه في المناقضة والمعارضة. «الرغبة في المحاكاة» هي أيضًا رغبة في التنافس والاستقطاب كما يقول جيرار[17]، إذ من حولها تتشكل المجموعات وتلتف الإرادات، فدعوة «النوفمبرية الباديسية» التي تترَّست بها السلطة، والتف حولها جمع من النخب والدوائر القريبة منها، جاءت لتتهم الحَراكي «بالحَرْكِي» العميل الخاضع للأيادي الأجنبية المطالب بلا هوادة بإزالة كل رموز الحكم دونما

(15) Mary Douglas, *De la souillure* (Paris: La Découverte, 1971), p. 131.

(16) Norbet Elias, *La Civilisation des Mœurs* (Paris: Calmann-Lévy, 1973).

(17) René Girard, *La Violence et le Sacré* (Paris: Pluriel, 1972).

استثناء، فإذا فاخرت السلطة بانتمائها إلى «ابن باديس»، ردَّ عليها المتظاهرون بقولهم أنتم «أبناء باريس» وليس باديس، وإذا قالت السلطة «نحن نوفمبريون»، ردَّ الحراكيون بكلمة مدمجة غامضة أنتم «سكتمبريون» في إشارة جزئية إلى شهر أيلول/سبتمبر لكن من دون أي معنى زمني يذكر، أي أنتم بلا زمن ولا فعل تاريخي.

العمالة للمستعمر هي حساسة جدًا بالنسبة إلى الجزائريين، هي مذّاك الزمان «كرة نار لاهبة لم تنطفئ بعد ولم تبرد»[18]، يتقاذفها الطرفان في لعبة الوطنية التي جرت وتجري بين أنصار شرعية الماضي، السلطة وأذرعها المصرّين على البقاء في الحكم، وبين أنصار المستقبل، «شباب الحراك» الذين يودون شق طريق آخر تمشي عليه البلاد. فهي سرعان ما تستعيد نشاطها كلما انتفض الوطن في شأن داخلي، «(ف) ماكانش (لا لل) الخامسة ياولاد فرنسا» التي رددها الحراكيون في الشوارع، قد قابلتهم السلطة بالقمع وذلك بوصفهم «زوَّاف»، شأنهم في ذلك شأن آبائهم، الذين اصطفوا مع المستعمر بالأمس من أجل مقاتلة الثوار، يستنجد المتظاهرون في الحراك عند ذاك ويردون بالصوت المُقَشعِر العلي، في مشهد درامي يشبه مجامع الشيعة، وهم يحيون أربعينيات الحسين ومواسم آل البيت في كربلاء والنجف، «يا علي يا علي البلاد باعوها يا علي»، في توسل منهم مُلح بعلي لابوانت، بطل وشهيد معركة الجزائر الكبرى المعروفة في التاريخ، فالشهيد البطل في مثل هذه الظروف، «يبرز كمخلص منقذ، فهو المهدي بالنسبة إلى الوطن الذي يرجى منه السلام والخلاص»[19].

إن الحراك الشعبي الجزائري هو الابن الشرعي لـ«الطغيان والظلم»، إذ بلغ [الأخير] مبلغًا عجزت النخبة عن التصدي له ومواجهته، فانتقلت المقاومة إلى الشعب ليقاوم بطريقته التمردية إلى أن وصلنا إلى حالة الانتفاضة».

ومثل ذلك يقال عن رموز الثورة الأسطوريين، أمثال العربي بن مهيدي وعميروش وأحمد زابانة وغيرهم من الشهداء، الذين عادوا من قبورهم بقوة فاستحضرت صورهم وارتجزت أسماؤهم في شوارع الحراك. إننا أمام مشهد «تذكري حيوي [يتوسل به الطرفان] في ابتكارهم للحاضر واقتحامهم للمستقبل، فمن خلال الانكفاء العفوي نحو الماضي [يتسابق الطرفان ويتنافسان] على استدراك الذاكرة والتجارب الخالية»[20] والاقتراب من «ذاكرة الجرح»، تراجيدية المقاومات ثم حرب التحرير حيث العنف الكبير وملايين القبور، تلك المواصفات الأنثروبولوجية القاعدية، هي من تمنح اليوم الحق في المطالبة بالمشاركة السياسية والعدالة الاجتماعية، وهذا بحد ذاته يعَدّ استثناءً جزائريًا.

---

(18) Thomas Serres, *L'Algérie face à la catastrophe suspendue: Gérer la crise et blâmer le peuple sous Bouteflika (1999-2014)* (Paris: Karthala, 2019), p. 87.

(19) Jean-Pierre Albert, «Du martyr à la star: Les Métamorphoses des héros nationaux,» dans: Pierre Centlivres, Daniel Fabre et Françoise Zonabend, dirs., *La Fabrique des héros* (Paris: MHS, 1999), p. 16.

(20) Cohen Déborah, *Le Peuple* (Paris: Anamosa, 2019), p. 48.

الجميع صار له في واقع الأمر حسبة مع نظام الحكم يود أن يصفيها، لذلك جاءت لحظة الحراك الكبير لتتسع وتتمدد، ينشِّط مجراها هذا الرصيد ويترجمه، في أغانٍ وطنية وفي صور شهداء ثورة التحرير والعلم الوطني، وشعار الاستقلال وشعار «نحن نصحح التاريخ»، إشارة واضحة إلى مبادأة الذاكرة وإعادة تحيُّن «الماضي الذي لا يمضي»، فهو حاضر في جميع تواريخ سجال السلطة والشعب أين دأبت الأولى على استمداد شرعية ومشروعية حكمها منه، واستلهم الثاني واستعان في المقابل بروحه ورموزه في تبرير نبالة حركته وحراكه السلميين، المتمتع شبابه بالخبرة الواسعة التي اكتسبها من العنف. هي خبرة الفشل والإحباط، فلقد مرت على جسده الانحرافات ومآزق العنف، هو لا يود تكرار عيشها، لقد قدم حياة كاملة من أجل الخروج من «ثقافة الحرب»، فهو يأمل بالسلم اليوم، وهذا ما يعنيه بالضبط شعار سلمية سلمية، التي جادل بها الحراكيون صناع القرار، الذين بيدهم مقاليد «العنف والعفو». فالحراك لم يعد ذلك الاحتجاج الضعيف والتنظيم العفوي الخام، أو «حتى من دون شعار سياسي يواجه الأبكم فيه الأصم»[21].

ثامنًا: حراك النخبة

من صحيح القول أن الحراك الشعبي الجزائري، هو الابن الشرعي للطغيان وللظلم، «إذ بلغ [الأخير] مبلغًا عجزت النخبة عن التصدي له ومواجهته، فانتقلت المقاومة إلى الشعب ليقاوم بطريقته التمردية إلى أن وصلنا إلى حالة الانتفاضة»[22]، لكن هل أن النخبة كانت بالفعل خارج اللعبة تمامًا ولم تساهم في تكوين الوعي السياسي، أم أن العملية ما كان ليشتد عودها ويكثر عددها، لولا ثلة المثقفين العضويين؟ لنكن منصفين حيال دور هذه الفئة في الحراك الشعبي الجزائري، فوضعها في اعتقادي يشبه إلى حد بعيد وضع فلاسفة عصر الأنوار وتأثيرهم المباشر في أفكار الطبقة البرجوازية. يؤكد إريك هوبزباوم (Hobsbawm) بوضوح هذا المعنى في كتابه **عصر الثورة** فيقول: «يمكن أن نحمّل الفلاسفة بحق مسؤولية الثورة. هو صحيح أنها كانت ستحدث من دونهم، غير أنهم سرَّعوا بالانتقال من مجرد تحطيم النظام القديم، إلى استبداله بسرعة بنظام جديد»[23]، فهم من صاغ إعلان حقوق الإنسان على الأقل.

في جزائر الحراك لا يعدم الملاحظ وهو يشارك الناس مسيرهم، سماع الأصوات وهي تهتف بالأسماء المناضلة والمفكرة التي تسند حجته وتثري وعيه. وحتى لا نذكر إلا البعض منها يكفي أن نشير إلى عدد من الشخصيات التي تزود الحراك بالمعنى وبالدلالة. العربي زيتوت الدبلوماسي الأسبق، على سبيل المثال وعضو حركة رشاد، الوجه الموسوعي الذي لا يترك شاردة ولا واردة تتصل بالحراك، إلا وعلق عليها باستفاضة خلال إطلالاته اليومية من إنكلترا عبر صفحتَي الفايسبوك

(21) عبد الناصر جابي، «الحركات الاحتجاجية في الجزائر: تقييم حالة»، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، كانون الثاني/يناير 2011، <https://bit.ly/3UkKtuv>.

(22) التهامي مجوري، **من قلب الحراك** (المحمدية، الجزائر: جيفا بوكس، 2019).

(23) إريك هوبزباوم، **عصر الثورة: أوروبا (1789 ـ 1848)**، ترجمة فايز الصياغ؛ تقديم مصطفى الحمارنة (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2007)، ص 135.

واليوتيوب؛ ومثل ذلك يقال عن العربي زوايمية من الولايات المتحدة الأمريكية أو هشام عبود من باريس؛ كريم طابوا الشاب الأمازيغي المناضل ابن مدرسة آيت أحمد (المجاهد التاريخي المعروف)، يقوم بالدور نفسه، إن على مستوى العمل الميداني داخل الجزائر أو على مستوى النشاط الإعلامي؛ الرائد لخضر بورقعة؛ جميلة بوحيرد شهود ثورة التحرير الكبار، لا تزال أسماؤهم وحضورهم يلهب ويلهم الجماهير المنتفضة في الشارع؛ طالب الإبراهيمي من التاريخيين كذلك وغيره من الأسماء، قد لمعوا جميعهم في سماء الحراك، في يوميه الطقوسيين الجمعة والثلاثاء. فالحراك إذن وبعبارة حنة أرنت، «مهما كانت ثورته مشرعة الأبواب التي فتحتها لجماهير الفقراء، إلا أنها لم تكن قد بدأت من قبل هؤلاء على الإطلاق»[24].

فالشخصيات والهيئات العامة والشخصيات الوطنية والحزبية والمجامع المدنية والنقابية، بما في ذلك الكتاب والمفكرون والأكاديميون والصحافيون وأهل الفن ورجال الدين، كلهم قد أسهموا في الحراك الشعبي أو على غراره بالسرديات الأدبية والفكرية المتنوعة، التي تكوَّنت في خضم السجال السياسي، وذلك بهدف كسب رهان الإقناع وتثبيت الحجة وسبر أغوار الحاضر واستشراف المستقبل. لقد اصطفت النخبة واتفقت على ضرورة التغيير بصورة أو بأخرى، وأحدثت غليانًا سياسيًا حقيقيًا غير مسبوق على مستوى الشارع أين أصبحت مختلف شرائح الشعب، نساءً ورجالًا عمالًا وبطالين ثانويين وجامعيين يتحدثون عن مواد الدستور، الذي نفدت مبيعاته في المكتبات العمومية والخاصة. هذا الانخراط المفاجئ والواسع في السياسة الذي أوصدت السلطة أبوابه منذ عقود، هو تعبير عن عودة «جزائرية إلى الجزائر». يلاحظ أن ظاهرة الحرقة أو قوارب الموت كما تسمى، كادت تتوقف زمن الحراك الشعبي. الكل قد استفاق وعاد إلى منَصة الشارع ليُسمع صوته ويمجد وطنه ويتغنى برموزه. السياسة ثم السياسة، تقول بيانات النخبة، بل الدستور، تقول السلطة الحاكمة وأذرعها الإعلامية، هي ثورة سلمية يُنَظر الكتاب والمفكرون، بل هي أزمة ظرفية يقول لسان حال الحاكم بأمره، التفاوض على تسليم الحكم يطالب ويضغط الحراك ورموزه، لا بل الحوار والمخارج الدستورية تقول السلطة.

ضوء على خلاصة القول

عن الجانب التنويري في الحراك، فلقد كان الحدث مناسبة للكتابة والتأليف في شتى الاختصاصات. لقد رصد معرض الكتاب الدولي وحده في شهر تشرين الثاني/نوفمبر2019، ما يزيد على الثلاثين كتابًا حول الحراك. العناوين تتحدث عن نفسها، والأقلام تكاد تفصح عن وجهتها وموقفها. نتحدث هنا على سبيل المثال عن عمر أزراج في منفاه اللندني، صاحب كتاب **يوميات الحراك الشعبي**، وعن محمد أرزقي فراد المؤرخ والمناضل السياسي المؤلف لكتاب **في ظلال الحراك الشعبي**، ومحمد بن شيكو الصحافي المقيم في باريس، الذي سجنه

(24) حنة أرندت، **في الثورة**، ترجمة عطا عبد الوهاب؛ مراجعة رامز بورسلان (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2008)، ص 29.

بوتفليقة جراء كتابه *Bouteflika une imposture Algérienne*، فقد حمَّل السلطة في كتابه الجديد *La Casa del Mouradia* ما آل إليه الوضع في البلاد. مثل ذلك فعل الوالي الأسبق لولاية وهران وسجين بوتفليقة بشير فريك، في كتابه: *La Gouvernance de Bouteflika: Folie ou trahison?*، الكتاب الجامعي الذي يجمع فيه أصحابه، بين العواطف وبين المرجعيات الفكرية والأكاديمية، حاضر هو الآخر في مثل هذه المناسبة؛ نشير هنا إلى كتاب نور الدين بكيس، **الحراك الشعبي الجزائري... النسخة المنقحة لثورات الربيع العربي** وكتاب محمد مبتول *Libertés dignité algérianité*، وكتاب **جمع الجزائر** لصاحبه بومدين بوزيد وكتاب منصور بختي **فلسفة الثورة... رؤية من واقع الشعب**.

أما الاتجاه الذي قارب اللحظة الحراكية، بنوع من التأريخ ورصد للوقائع دونما تلوّن سياسي أو هكذا يؤمل، فقد ضرب هو الآخر بسهمه في الموضوع. يمكن هنا ذكر كتاب الصحافي محمد علال **بوتفليقة والزنزانة رقم 5** الذي يحكي فيه سقوط بوتفليقة، وكتاب محمد بوعزارة **من الصعلكة السياسية إلى الحراك الشعبي**، والروائي عبد الرزاق بوكبة **رماد يذروه السكوت... تأملات في الحراك الشعبي** الذي يؤرخ فيه صاحبه للمرحلة. مثل ذلك يقال عن الروائية نوارة لحرش في كتابها **في الحراك... أسئلة ومآلات**، وكذلك بالنسبة إلى الصحافي مهدي بوخالفة صاحب كتاب **ثورة 22 فبراير.. من الاحتجاج إلى سقوط بوتفليقة**، والكتاب الجماعي *La Révolution du sourire* الذي أشرفت عليه سامية سليماني، أو الكتابة الحقوقية، مثلما ألّف محمد بغداد وكتب، **المقاربة الدستورية... الجيش وإدارة الأزمة في الجزائر**.

إن فك الارتباط بين السلطات وتمييز الدولة عن النظام واستقلال الشعب عن الكيانين المذكورين، هي شروط أولية مسبقة من أجل تحقيق التوافق الديمقراطي والشراكة السياسية في الجمهورية الجديدة، التي تزعم السلطة أنها في صددها.

إلى غير ذلك من الكتابات التي لا زالت تتوالى وتكثر، فهي تكشف عن أهمية الحراك الشعبي الجزائري. فالعناوين المشار إليها أعلاه تتكلم في مضمونها، عن حدث كبير قد حصل في الجزائر أطلق السياسة من عقالها، ووضع مسمى الشعب بما هو أهل له، في الواجهة وفي قلب معادلة الحكم وفي أصلها.

ما الذي تود قوله لنا تلك الاستفاقة التنويرية في زمن الحراك؟ أهي لحظة «انبعاث تاريخ جديد يخرج من تحت التراب»؟ مثلما كتب وقتذاك أحمد عروة عن ثورة التحرير الكبرى. في تقديري هي أجوبة عن «الإثنو» الجزائري المتواري[25]، الذي بدأ يتحرك عند كلا الطرفين، مستنهضًا في ذلك النزاع البشري الجوهري العتيد، المتعلق بامتلاك القوة الطبيعية واسترجاع عنفها الأولي الأصيل،

(25) Appadurai, *Après le colonialisme: Les Conséquences culturelles de la globalisation,* p. 91.

الذي لا يمكن مغالبته ومواجهته من دون النزول على قيم الحاضرة *La POLIS* التي ارتبط ميلادها وتأسيسها أبدًا، بمبدأ العيش المشترك بسلام، فهي مدعوة اليوم أكثر من أي وقت مضى إلى توفير الوسائل الضرورية لذلك. إن فك الارتباط بين السلطات وتمييز الدولة عن النظام واستقلال الشعب عن الكيانين المذكورين، هي شروط أولية مسبقة من أجل تحقيق التوافق الديمقراطي والشراكة السياسية في الجمهورية الجديدة، التي تزعم السلطة أنها في صددها. إننا، من دون هذا المسار، سنجد أنفسنا أمام السؤال القديم، الذي سبق وأن طرحه الرئيس محمد بوضياف رحمه الله، عقب زحف جيش الحدود نحو العاصمة، وأخذه السلطة عنوة في صائفة 1962، سؤال دال نستحضره اللحظة ونكرره مع بوضياف قائلين، الجزائر إلى أين؟ □

تحولات السلطة في موريتانيا قبل الدولة وبعدها: قراءة سوسيولوجية

باب ولد سيد أحمد أعل(*)

دكتوراه في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا، جامعة محمد الخامس، الرباط

رئيس منتدى السوسيولوجيين الموريتانيين.

مقدمة

تطرح مسألة السلطة في المجتمع الموريتاني الكثير من التساؤلات والإشكالات، سواء على مستوى الواقعية، أو على مستوى ما تضمر من معانٍ تتجسد غالبًا في القوة الخفية التي تسيطر على المجتمع وتضبطه، سواء كانت تلك القوة الخفيةً وسيطًا بين المجتمع وقوة أو سلطة أخرى، أو كانت قوة وحيدة تحتكر المجال، هذا فضلًا عن ما في معاني الغلبة والتنافس والصراع وما ينتج منهما من تجييش ومناصرات من أجل كسب السلطة أو الحصول عليها على حساب آخرين.

علاوة على ذلك تبدو مسألة المناظرة، أو استنباط معاني السلطة الواقعية من تاريخ المجتمع السياسي على مرّ العصور، مسألة عصية على الفهم والتحليل، أحرى التركيب والاستنباط، حيث إن الصراع والمنافسة السياسية على المستوى الأميري كان محددًا بنسق من التضامنات العضوية والتحالفات السياسية بين مختلف فئات المجتمع وشرائحه من أجل غاية سياسية معينة، في حين أن السلطة في مجتمع الزوايا التي هي الأخرى ذات نسق معين كانت تستثمر فقط في رأس المال الرمزي وتحتكر مجال المغيبات على أشكال وصُعد مختلفة هي الأخرى. ولعل العامل الأبرز الموحد لنموذجيهما هو اللجوء إلى العصبيات في كثير من الأحيان، فإن كانت السلطة السياسية والعسكرية لمجتمع حسان العربي، تجيش عصبياتها بمختلف تشكيلاتها وأنواعها في غاراتها وفرض نفوذها، فإن أتباع الزوايا يساهمون في تقوية رأس المال الرمزي لهم كذلك بحسب المنطق نفسه والاعتبار عينه.

هذا الأمر يدعو إلى التساؤل في خضم سبر أغوار هذا المنحى من أجل كشف موازاة المنافسة بين السلطة الحسانية والسلطة الزاوية في المجتمع الموريتاني، قبل الدولة والنظر في تأثيرات

(*) البريد الإلكتروني: babemed52@gmail.com

تلك الصراعات والاختلافات الأيديولوجية والفكرية في مجتمع ما بعد الدولة، التي نتجت من سياق مختلف وحاولت تكييف المجال الاجتماعي لمصلحة سطوتها ونفوذها.

في سياق فهم سلطة الدولة، مقارنة بسلطة المجتمع التقليدية على اختلاف أوجهها، قلبت سلطة الدولة الاعتبارات القائمة رأسًا على عقب، وصنعت مجالًا سلطويًا جديدًا، إذ أصبح كل شخص من مختلف الفئات، الزاوية أو الحسانية/العسكرية، مؤهلًا وإن نظريًا لشغله، وتبقى أزمة التحول دومًا مربوطة بالتمثلات الاجتماعية للسلطة الجديدة ورسوخ القيم القديمة في مجتمع ما بعد الدولة، الذي أفرز إشكالات من نوع خاص ليس هذا مجال التعرض لها.

بناءً على ذلك، سوف نحاول تحليل مختلف النماذج وتفكيكها انطلاقًا من توطين النظرية الخلدونية للمعطى الليبرالي الذي توجهت له سلطة الدولة أثناء أهم مرحلة من مراحل التحول الكبرى، داخل نسق القوة والنفوذ في موريتانيا، وتقديم قراءة استقرائية لمشهد السلطة والنفوذ بموريتانيا، قياسًا على تاريخ المجتمع وبنائه.

بناء على ذلك ينطلق هذا البحث من **السؤال الإشكالي** التالي: ما هي تجليات وملامح السلطة في المجتمع الموريتاني الحديث (مجتمع الدولة) مقارنة بأنموذج التناصر والتنافر الذي كانت تعبِّر عنه نماذج السُلط القديمة في المجتمع؟

ويمكن تفريع هذا السؤال إلى الأسئلة الفرعية التالية: كيف أنتج المجتمع سلطته الخاصة قديمًا؟ وما هي أوج التلاقي والتنافر داخل تلك النماذج؟ وهل حاولت الدولة الحديثة الاحتفاظ بأي من النماذج القديمة؟ وكيف كانت تأثيرات التحولات العميقة في السلطة بعد الدولة؟

يضع البحث عدة **فرضيات**: الفرضية الأولى: حاولت السلطة القديمة دومًا التكيف مع متطلبات الواقع الجديد رغم كل محاولات طمسها وتهميشها؛ الفرضية الثانية: درجة نجاح السلطة الحديثة في المحافظة على قوتها داخل مجتمع الدولة الجديد بقيت ضئيلة جدًا نظرًا إلى حجم التغيرات.

أولًا: البناء المفاهيمي والنظري

سنحاول في هذا القسم الأول التركيز على تقاطعات مفهوم السلطة من حيث المعنى والدلالة، إضافة إلى التركيز على نظرية العصبية الخلدونية في محاولة لقراءة نماذج القوة والنفوذ والسلطة في المجتمع الموريتاني.

1 ـ السلطة: تقاطعات المفهوم

في اللغة الإنكليزية عند الإشارة إلى مصطلح السلطة (Power) قد يحدث خلط من حيث الدلالة مع مصطلح آخر للسلطة (Authority)، إذ إن هاتين الكلمتين تستخدمان في اللغة الإنكليزية بمعنى السلطة، لذا ينبغي إيضاح دلالة كل منهما، إذ إن استخدام كلمة Power هو للدلالة على السلطة في نطاقها العام والشامل، وهي تعني أيضًا (القدرة، والاستطاعة، والقوة)، بينما يقتصر استخدامنا لكلمة Authority على ما هو تخصصي (سلطة سياسية أو عسكرية أو اقتصادية).

فالسلطة (Authority) اشتق لفظها من اللاتينية (Authority) أو بالفرنسية (Autorite) بمعنى «حجة»، والمصطلح اللاتيني الذي يصف الشخص بكونه aultor هو الذي يعني الثقة، وهو الضامن، والقدوة، والحجة، والناصح والمؤسس، ثم صار هذا اللفظ بعد ذلك يدل على Auteur/Authority، بمعنى الحجة أو الثقة، فالسلطة (Auteur/Authority) هي ذلك النمط من القيادة والإمارة البشرية النابعة من نظام شرعي تستغني من حيث المبدأ عن الإكراه والإقناع في آن واحد، أما السلطة (Pouvor/Power) هي بمعنى القدرة والاستطاعة والطاقة[1].

فالسلطة (Power) عندما تترجم إلى اللغة العربية غالبًا ما تشمل معنيين: الأول ينضوي على معنى القوة، أما المعنى الثاني (Authority) فينضوي على دلالة سياسية قانونية محددة، فيقال مثلًا السلطة السياسية أو السلطة الشخصية، أو السلطة الفردية، وفي بعض الأحيان تستخدم للتعبير عن وظائف الدولة أو مرادفة للصلاحيات والاختصاصات، والواقع أن كلمة Power بالإنكليزية مأخوذة من الكلمة الفرنسية Pouvor المنحدرة من أصل لاتيني، وتعني لغويًا القدرة أو المكنة أو الاستطاعة وفي اللغة الألمانية Macht المقابلة للتعبيرين الإنكليزي والفرنسي وتنحدر من كلمة Mogen التي تعني القدرة. أما في اللغة العربية فلم يرد في المعاجم القديمة لفظ «السلطة» ومع ذلك فقد عرفت السلطة من خلال اشتقاقها، وبخاصة لفظ «سلطان» التي تعني الحجة وعليه فإن التعبيرين في اللغة العربية وفي اللغات الأجنبية مختلفان[2].

نلاحظ من خلال ذلك أن دلالة السلطة في اللغات الأجنبية تحمل وجهين، الأول موافق أو يعني القوة، بينما يعني الثاني السلطة باشتقاقاتها المختلفة السياسية والاقتصادية ...

أما في اللغة العربية فإن مفهوم السلطة يبدو حديث النشأة وإنما أخذ معناه من السلطان بحكم أنه الحجة بين الرعية والحاكم بينهم، وكلمة سلطان مصدر في اللغة العربية كما أكد ذلك ابن منظور، حيث جاء في **لسان العرب**، السلطان: الحجة والبرهان ولا يجمع لأن مجراه مجرى المصدر، قال محمد بن يزيد: هو من السليط، وقال الزجاج في قوله تعالى «ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين» أي حجة بيِّنة، والسلطان إنما سمي سلطانًا لأنه حجة الله في أرضه، وقال: اشتقاق السلطان من السليط، والسليط ما يضاء به ومن هذا قيل للزيت سليط[3].

ويعرفها **المعجم الحديث للتحليل السياسي** بأن شأنها شأن المفاهيم المتصلة بها، وهي القوة والنفوذ والقيادة، وقاعدة لضمان الموافقة على الامتثال لقرار أو أسلوب عمل. ويذهب عبد المنعم الحنفي في معجمه إلى أن السلطة في اللغة هي التسلط والتحكم، فقد تكون السلطة شرعية أو غير شرعية (تسلطًا يقوم على القسر والإكراه). ويميز البعض بين السلطة الشرعية التي تؤول إلى صاحبها بحكم الشرع، والسلطة الواقعية التي تكون لصاحبها في الواقع، وتخول الأولى من تؤول إليه بعض الصلاحيات التي لا تُجيز له تجاوزها.

---

(1) إحسان عبد الهادي النائب، «مفهوم السلطة وشرعيتها: إشكالية المعنى والدلالة،» ورقة قدمت إلى: المؤتمر العلمي الدولي الأول: إرضاء الناس هو مصدر شرعية الحكومات، جامعة السليمانية أيار/مايو 2017، ص 66.

(2) المصدر نفسه، ص 67.

(3) أبو الفضل جمال الدين بن مكرم بن منظور، **لسان العرب** (بيروت: دار صادر، [د. ت.])، ج 7، ص 321.

ورغم أن السلطة الواقعية تقوم على اعتراف البعض بسلطة آخرين عليهم، بحكم أن الآخرين أعرف من غيرهم لما يحتاج إليه هؤلاء البعض أو أنهم الأحكم أو الأقدر. ويفسر البعض السلطة التي تخولها الأغلبية لفرد أو جماعة بأن الأغلبية قد ارتضت هذه الجماعة للقيام بواجب تأمين مصالحها، ومن ثم فهي تؤدي لها واجب الطاعة، ما دامت هذه الجماعة تسهر على مصالحها[4]. ومن ثم فإن الأصل اللغوي لمفهوم السلطة يحمل معه من المرادفات كمّاً كبيرًا جعل المفهوم يحوم حوله الكثير من الغموض والضبابية، ذلك بأن الرغبة في التأصيل لمفهوم السلطة يستوجب التفصيل أيضًا في المفاهيم المرتبطة به أو القريبة منه أو ما تعني بعض دلالاتها، كالفرق بين السلطة والقوة، وبينها والقدرة وما يعني السلطان أو ما هي حدود مصالحه، فضلًا عن ما تحويه هي من دلالات شرعية، قد تحمل طابعًا من القبول الاجتماعي والاعتراف الرمزي، وغير شرعية بما يمكن أن تحمل من معاني التسلط والقهر وفرض سلطة نظام معين على مجموعة قد تكون في البداية مناوئة له أو رافضة.

وتعدّ السلطة من المفاهيم الأساسية أيضًا في علم السياسة، حيث يعرّفها بعض الباحثين السياسيين في علم السياسة على أنها علم الحصول والحفاظ على السلطة السياسية. ويرى كثيرون أن السلطة هي العلاقات السياسية التي تميز البشر من غيرهم، ويعدّ صراع الأحزاب والحكومات المختلفة صراعًا من أجل السلطة أي من أجل الحصول على السلطة والحفاظ عليها، كذلك فإن السياسة على مستوى العلاقات الدولية هي أيضًا صراع من أجل السلطة[5].

يعني أنها عمليًا هي عملية تتطلب البحث عن آليات للحصول على السلطة بحسب المختصين في علم السياسة، والبحث عن آليات أخرى للحفاظ عليها، أي أنها مراحل ومستويات، مرحلة محاولة الحصول عليها ومرحلة المحافظة عليها، أما المستويات فهي محلية تتمثل بالصراع السياسي بين الأحزاب والحكومات، وأخرى على مستويات العلاقات الدولة لتقوية سلطة النفوذ الخارجي.

2 ـ ابن خلدون من النسب إلى الاصطناع

الدراسات التي أوردها ابن خلدون في كتابه **المقدمة**، الذي كان خاتمة لموسوعة **العبر**، جاء منها في الفصل الأول من الباب الثالث بعنوان: «في أن الملك والدولة العامة إنما يحصلان بالقبيل والعصبية»[6]، وهذا كلام تقريري ينم عن الخلفية التي بنى عليها ابن خلدون نظريته العامة في السلطة والملك حيث اعتمد في بناها على تحليل التاريخ الإسلامي والعربي وما شاب ذلك التاريخ من صراع العصبيات وانقسامها ثم تصنعها، ومن حقبة نشوء الملك إلى انتشاره ثم ازدهاره، فزواله وعَدّ بناءً على ذلك أن العصبية والقبيلة هما أساس حصول الملك؛ فلا يمكن أن يحصل أحد على السلطة من دون الاعتماد على عصبية ما أو قبيلٍ معين.

---

(4) المصدر نفسه، ص 68.

(5) شاهر إسماعيل الشاهر، **دراسات في الدولة والسلطة والمواطنة** (برلين، ألمانيا: المركز الديمقراطي العربي، 2017)، ص 123.

(6) أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**، تقديم وتحقيق إيهاب محمد إبراهيم (القاهرة: مكتبة ابن سينا، 2009)، ص 165.

ليس هذا فحسب بل يقسم ابن خلدون نظريته في السلطة وطريقة الحصول عليها والمحافظة عليها إلى مراحل: المرحلة الأولى تبدأ بالتغلب ويقرّ «أن المغالبة والممانعة إنما تكون بالعصبية لما فيها من النعرة والتذامر واستماتة كل واحد منهم دون صاحبه، ثم إنّ الملك منصبٌ شريف ملذوذٌ يشتمل على جميع الخيرات الدّنيوية والشهوات البدنية والملاذ النفسانية فيقع فيه التنافس غالبًا، وقلّ أن يسلمه أحدٌ لصاحبه إلا إذا غلب عليه»[7]، وما يعني أن التغلب يفتح الباب أمام حروب أو خلافات أخرى ناتجة لطبيعة الملك نفسها وما فيها من امتيازات تجعل الحاكم أو صاحب السلطة يحافظ على مآثرها مهما كلفه الثمن، فيكون حصوله عليها غلبة له وخروجها من يده تغلبًا عليه.

إن المعيار الأول الذي يحكم طبيعة التغلب هو العصبية لما فيها من خصائص تجمع قومًا على مصالح مشتركة، ذلك أن القبيلة أو العصبية عند ابن خلدون مجرد تكتل سياسي يؤدي إلى الملك أو يسعى إليه، لكن ابن خلدون يعنون الفصل الثاني من الباب نفسه بعنوان: « في أنه إذا استقرت الدولة وتمهدت قد تستغني عن العصبية»[8]، وهو ما يعني أن العصبية عنده ترتبط بنشوء الدولة وضرورة التغلب من أجل فرضها على العامة.

يقول ابن خلدون، الذي ربط استقرار الدولة بزوال العصبية، إن «السبب في ذلك أن الدُّول العامة في أولها يصعب على النفوس الانقياد لها إلا بقوة قوية من الغَلبِ للغرابة، وأن الناس لم يألفوا ملكها ولا اعتادوه، فإذا استقرت الرئاسة في أهل النصاب المخصوص بالمُلك في الدولة وتوارثوه واحدًا بعد الآخر في أعقاب كثيرين ودول متعاقبة نسيت النفوس شأن الأولوية واستحكمت لأهل ذلك النصاب صبغة الرئاسة، ورسخ في العقائد دين الانقياد لهم والتسليم، وقاتل الناس معهم على أمرهم قتالهم على العقائد الإيمانية فلم يحتاجوا حينئذٍ في أمرهم إلى كبير عصابة»[9].

وهذا يعني أن السلطة تنتقل بالتدرج من العصبية التي يستوجب حضورها تثبيت شأن الدولة وتقويتها على الخلافات والصراعات الأخرى، حتى إذا قويَت انجلت العصبية بقوتها وصار الناس ينظرون إلى الحاكم أو صاحب السلطة على أنه جزء من هويتهم ومعتقداتهم، غير أن انعدام ذلك – بحسب المنطق الخلدوني ـ يعني انتشار النعرات والتنافسات بين مختلف الأطراف (العصبيات) من أجل السيطرة والتفرد بالملك.

إن المبدأ الذي بنى عليه ابن خلدون أطروحته هذه التي بين أيدينا، تجعلنا نميِّز بين مرحلتين أساسيتين، المرحلة **الأولى** نشأة الدولة أو ولادة سلطة من يحكم الدولة، وتلك مرحلة من الصراعات العصبية بتعبيره والقبلية حيث تكون السلطة مغنمًا بين العصبيات المتنافسة، وكل المتنافسين يسعون في ذلك من أجل خلق إطارات عصبية مناوئة لعصبية الحاكم، أما المرحلة **الثانية** فهي مرحلة الاستقرار تستمد الدولة فيها شرعية قوتها من شرعية الحاكم التي أصبحت شرعًا أو شِرعة له بالتقادم.

(7) المصدر نفسه.
(8) المصدر نفسه، ص 166.
(9) المصدر نفسه.

ثانيًا: ملامح تحول السلطة في المجتمع الموريتاني

مرّت السلطة في المجتمع الموريتاني بتحولات عنيفة في بعض الأحيان، وطبيعية في أحايين أخرى نتيجة لتوافقها مع متغيِّرات أخرى، حدثت قد تكون أعنف، وهو ما يعني أن تقطعات السلطة بما تعني من حيازة القوة والقدرة والاستطاعة، وبما تدل عليه من مزايا خاصة، سياسية أو شخصية، تستحق الغربلة والتحليل في الواقع الاجتماعي الموريتاني، وما يسخر به من عصبيات وولاءات وأدبيات سياسية تطغى على المشهد السياسي منذ الأزل، وهو ما يمكن من خلاله تقسيم هذا المحور إلى عنصرين: أي النظر إلى السلطة التقليدية في مقابل سلطة الدولة، كمتغير كان وراء عامل مهم من تحولات السلطة في المجتمع الموريتاني.

1 ـ السلطة التقليدية: تعارضات الوظيفة والدور

إن التعارض الوظيفي بين العرب والزوايا في موريتانيا، كفئتين تحصدان من الرتب السياسية والرمزية ما تفتقده الشرائح والفئات الأخرى، سواء قبلنا أنه كان من مسلّمات متطلبات الزمن السياسي والثقافي القبلي الذي عاشت فيه تلك المجتمعات القبلية والفئوية، أو لم نقبل أن تلك الازدواجية موحدة لشعوب المنطقة على خلاف اختصاصاتهم، من نتائج حرب شرُبُبة التي مايزت المجمع، وجعلت القبائل الصنهاجية أو الزاوية تكبح جماح حلمها السياسي في المنطقة في تلك الحقبة وتذهب إلى الاختصاص في الشؤون الدينية والثقافية. إن هذا التعارض بين فئتي الزوايا وحسان لا يمكن التعبير عنه إلا من خلال كونه تعارضًا بين أيديولوجيتين مختلفتين: أيديولوجيا الشجاعة والنبل التي تميِّز حسان، الذين يعبّرون عن تنظيماتهم السياسية بتنظيمات قبلية ذات بعد قبلي ترتفع المكانة فيها بالقرب من الجد الجامع لنسب القبيلة وتنخفض تبعًا للبعد من نسبه، وأيديولوجيا الإسلام التي أسست هويتها بكسر البنية القبلية والذوبان قديمًا في مجتمع المرابطون كهوية أساسية تفوق النسب الجينالوجي في المجتمعات الصنهاجية.

هذا الطرح يفصل فيه بير بونت أكثر بعرضه لطبيعة التنظيم الطبقي والفئوي في المجتمع الموريتاني بعد شرُبُبة، حيث يقول: «كان المجتمع البيظاني الأميري يحتوي على ثلاث طبقات اجتماعية وهي: حسان المنحدرون من قبائل بني هلال[10] العربية، يحملون السلاح ويخضعون لنظام صارم من الرموز الدالة على المجد والشرف وفي حضن هؤلاء تكونت الإمارات، و«الزوايا» ويمثلون مجموعة أقل تجانسًا سواء على صعيد الأصول التي انحدروا منها (فمنهم الشرفاء الذين تعود أصولهم إلى النبي محمد ومنهم العرب أو البربر) أو على صعيد البنية الاجتماعية (حيث توجد إضافة إلى القبائل بعض الطرق الصوفية التي تأخذ شكل التنظيم القبلي) والمكان السياسي الذي تحتله (فهناك «زوايا الظل» التابعون لحسان وهناك «زوايا الشمس» المستقلون سياسيًا). وتعود وحدة هذه الطبقة الاجتماعية إلى تمسكها بمرجعية موحَّدة من القيم والرموز الثقافية الإسلامية.

(10) معظم المراجع والمصادر التاريخية أثبت أن قبائل حسان تنتسب إلى معقل لا إلى القبائل الهلالية التي نزلت المغرب، على الرغم من أن هذه المصادر أثبتت أنهم سكنوا مع الهلاليين وامتزجوا معهم كثيرًا، والخلاف حول قرشيتهم أم يمانيتهم.

وكان الزوايا كذلك يضطلعون بدور اقتصادي كبير يتمثل بالسيطرة على الآبار والمراعي والأراضي الزراعية وتسيير الطرق التجارية (طرق القوافل)، وأخيرًا «آزناگه» المنحدورن من أصول بربرية وهم إما منَمُّون أو مشتغلون بالواحات وغرس النخيل وكانوا خاضعين لحسان ويدفعون لهم إتاوات مختلفة في مقابل حمايتهم عسكريًا.

وكان يوجد داخل كل طبقة اجتماعية كذلك تراتبيات اجتماعية تسمح بتصنيف القبائل في مراتب مختلفة، بل إن قاعدة التصنيف التراتبي هذه توجد كذلك داخل القبائل حيث «يتدخل الأصل والنسب في كل حالة كشكل من أشكال الأيديولوجيا الاجتماعية والسياسية التي تحدد أنماط التضامن الاجتماعي (العصبيات) وترتبها بشكل تفاضلي في الوقت نفسه»[11].

أ ـ سلطة الزوايا

لا يمكن وصف السلطة في المجتمع التقليدي الموريتاني من دون التنبيه إلى مكانة القاضي في المجتمع الموريتاني، وما يمثله من سلطة وقوة رمزية في المجتمع. ولعل «سلطة القاضي» يدعمها واقع المكانة السياسية والأخلاقية التي بات يحتلها الفقهاء في المجتمع الموريتاني وحيازتهم الكلية لهيبة القاضي، ذلك أن النظر إلى تأسيس تلك الرمزية من الناحية التاريخانية يستوجب منّا النظر إلى مكانة شخصين من ركائز الدولة المرابطية إبان تأسيسها الأول، وفي توسعها الثاني بعد تأسيسها في مراكش بأرض الصحراء، وهما، عبد الله بن ياسين، المؤسس الفعلي لرباط الحركة وقائدها الروحي، وشخصية الإمام الحضرمي، قاضي أمير المرابطين أبو بكر بن عمر، أما **الأول** فنكتفي هنا بذكر حادثة جلده للأمير يحيى بن عمر لأنه عرض حياته للخطر[12] وهو أمر نتفق مع بونت حينما استخلص منه أسبقية السلطة الدينية على السلطة السياسية، لكن هذا النفوذ الديني تلاشى بعد موته، وأما **الثاني** «الإمام الحضرمي» فهو ما مثّل بالفعل بداية تأسيس لسلطة القاضي الفقيه في المجتمع الموريتاني.

من أهم ما يمكن الإحالة إليه في إطار دراسة شخصية الإمام الحضرمي هو مقال لعبد الودود ولد الشيخ استحضر فيه شخصية الإمام معتمدًا على ما كتبه القاضي عياض وابن بسام، وهي دراسة تفيد بأن شخصية الإمام الحضرمي شكلت في حضورها وتبوئها مكانة القضاء على ما يبدو بداية سيطرة الفقيه في المجتمع الموريتاني على مكانة القضاء رمزيًا وواقعيًا على ما يحوم حول شخص الفقيه من هيبة ووقار تجعل نفوس الآخرين مستعدة للإصغاء له وتقدير مواقفه والإقتداء بها قبل أي شيء آخر.

ويرى ولد الشيخ أن الإمام الحضرمي إنسان متصوف، وحياته كانت مزدوجة بين حياة العالم الخليفة المتصوف ومستشار الأمير، وهو يمثل فوق ذلك كله في شخصيته عادات شعب البيظان

---

(11) Pierre Bonte, «L'«ordre de la tradition: Evolution des hiérarchies statutaires dans la société contemporaine,» *Revue du monde islamique et de la méditerranée*, no. 54 (1989), p 1. maure

(12) بيير بونت، **روايات أصول المجتمعات البيظانية: مساهمة في دراسة ماضي غرب الصحراء**، ترجمة محمد بن بوعليبه بن الغراب (نواكشوط: منشورات دار النشر جسور، 2015)، ص 80.

الصحراوي التي لا تفارقه[13]، وهو ما يجعل سلطته تضاهي سلطة الأمير أبو بكر بن عمر الذي كان معه في النفوذ.

إن هذا السياق هو الذي كان يتحكم في تعارض سلطة الزوايا مع حسان بعد نهاية حرب شرّبُبة وانتصار قبائل حسان العربية فيها على قبائل الزوايا الصنهاجية، الأمر الذي حتم على الزوايا التشبث بمكانة الفقيه والقاضي والمتصوف داخل تحولات البنية المجتمعية الجديدة، وإدخالها الميدان السياسي دفاعًا عنها بعد إفراغ الجهد العسكري بما حمل من تعارض حرب استخدمت فيها الأسلحة الدعائية كافة.

ب ـ السلطة في المجتمع الأميري المحارب

أما أنموذج السلطة في حسان فقد كان يقوم على أنماط مختلفة من القتل والصراع والتنافس، تعبِّئ من خلال ذلك الأنصار والعصبيات وتعدّ من خلالها السلطة غنيمة فقط، كما حدث في إمارة الترارزة عند اغتيال محمد لحبيب أمير الترارزة، الذي اغتيل سنة 1277هـ 1860م عبر أبناء إخوته محمد لحبيب ولد أعمر ولد المختار ولد بوحبيني ولد أعمر ولد المختار وأحمدو الليكاط وأعل خملش، حيث قاد عملية الاغتيال سيد أحمد ولد أعل خملش الذي كان مرشحًا للإمارة من بعد محمد لحبيب من طرف أنصاره، غير أن ولد الأمير سيد ولد محمد لحبيب الذي كان مستهدفًا مع أبيه نجا بأعجوبة من هذه المؤامرة لأنه كان غائبًا عن «الحلة»[14] وقت اغتيال أبيه ليبدأ في الغد تنظيم عملية انتقامية ضد قتلة أبيه الذين لجأوا إلى أهل السيد من أولاد أحمد بن دمان[15].

كانت السلطة في المجتمع الأميري، على خلاف سلطة الزوايا، مستنبطة من القوة العسكرية في الغالب، وتتحدد من خلال التنافر والتناصر وإذكاء العصبيات حشدًا للدعم ضد طرف معين، وهو ما ساهم في عدم استقرارها، وتجسيد سيطرتها في معاني القوة والاندفاع.

إن الأيديولوجيا العامة السائدة في المجتمع البيظاني والمحدِّدة لقيمه وعاداته والرابطة إياه مع الإسلام، تكونت منذ الحدث المرابطي وحاولت تقديم سلطة الإمامة على سلطة الرئاسة العامة، وهو ما مكّن من تحصينها أمام كل المتغيرات السياسية والاجتماعية التي مرت من بعدها، فرغم تأثيرها الطفيف ما زالت عوامل التأقلم قوية فيها، والصراع بين حسان والزوايا بناء على ذلك الأساس نتجت منه مفاوضات بين أنموذجين من السلطة: سلطة رمزية تستمد إرثها وتاريخها من حدث المرابطين ومن مكانة الفقيه والقاضي في المجتمع، وسلطة سياسية تستمد قوتها من فرض الواقع وتدبير العنف، ممثلة في عرب حسان، على ما تمتاز به داخليًا من صراع وتنافس وصدام داخلي من أجل

---

(13) Abdel Wedoud Ould Cheikh, «Les Almoravides et l'aš^{s}arisme Autour de l'oeuvre d'al-Murādī al-Ḥaḍrami,» p. 7, <https://www.academia.edu/17805838/Les_Almoravides_et_la%C5%A1%CB%81arisme>.

(14) الحلة أو المحصر، وهو تجمع موسمي يكون في الإمارة، وهو اسم عرض بنمط التقري بنصب الخيام لبيظان الصحراء الكبرى، وينتجعون بحسب الفصول ويغيرون مواضع سكانهم تبعًا لذلك.

(15) Abdel Wedoud Ould Cheikh, «Nomadisme Islam et Pouvoir politique dans la société maure précoloniale (XI-XIX^{es}): Essai sur quelques aspects du tribalisme,» (Thèse de doctorat, Sociologie, 3t Paris V 1985), tome 2, p. 287.

التغلب، وما يستخدم في ذلك من تجييش العصبيات والنعرات وتفريغها في الحرب والسلم والنفوذ والسيطرة.

2 ـ سلطة الدولة وأزمة تثبيت التحول الجديد

بعد تأسيس الدولة التي استقلت عام 1960 من المستعمر الفرنسي، وبعد تجاوز تأثيرات متغير المستعمر على السلطة الاجتماعية التقليدية، وما أسهم فيها من تحولات وتغيرات لضرورات الإخضاع والتعامل، وتجاوزًا كذلك لحركات الولادة (ولادة السلطة) الجينية للدولة، يمكن أن نميّز بين مرحلتين من مراحل سلطة الدولة في موريتانيا، مرحلة السلطة المدنية التي ظهرت مع استقلال الدولة، ومرحلة السلطة العسكرية التي ظهرت بعد انقلاب عام 1978، على الرغم من أنه كانت في كل مرحلة تحولاتها الخاصة استجابة لظروف معينة، أو جبرًا لأخرى.

إن السلطة الجديدة في موريتانيا أخذت في الحسبان التعالي على الصراعات والتعارضات التي كانت تفرضها التقسيمة القديمة بين السلطة الزاوية، وما تفرض من نماذج سلطوية تتمثل بإدارة الغيب والتكلم باسم الله في الأرض، وسلطة القبائل العربية، ممثلة بالإمارات المغفرية العربية.

أ ـ سلطة التأسيس

حاولت السلطة الجديدة من خلال دستور عام 1961، مثله مثل دستور عام 1959، أن توافق الدين الإسلامي مع مبادئ الديمقراطية الليبرالية، وتشير الديباجة إلى احترام حقوق الإنسان انطلاقًا مما ورد في إعلان حقوق الإنسان لعام 1789 والإعلان العالمي الصادر في 10 كانون الأول/ديسمبر 1948. ويعكس هذا الاقتران التعايش بين العناصر التقليدية والاتجاهات المبتكرة الجديدة؛ فقد أرادت موريتانيا منذ البداية تبرير وجودها كدولة من خلال إعلان هوية تستند إلى العنصر الأساسي الموحد للمجتمع الموريتاني والمتمثل بالإسلام. لكن هذه المرجعية الدينية ليست رمزية فقط، فالإسلام الموريتاني يتجسد في هياكل اجتماعية وأيديولوجية يمكن أن يؤدي وزنها الكبير إلى إعاقة مهمة التحديث الموكلة للدولة الجديدة، ذلك بأن الإشارة الصريحة إلى مجموعة أخرى من المبادئ، وهي المبادئ الليبرالية، تظهر في إرادة القادة الموريتانيين في عدم السماح بتحويل الأولوية المعترف بها للدين الإسلامي إلى قيود على الحياة السياسية والاجتماعية، وذلك توازن يصعب أحيانًا الحفاظ عليه[16].

(16) Jean-Louis Balans, *Le Système politique Mauritanien* (Aix-en-Provence: Institut de recherches et d'études sur les mondes arabes et musulmans, Éditions du CNRS, 2013), <https://books.openedition.org/iremam/1242?lang=en> (je l'ai vu à 23 novembre 2021).

هذه الإشكاليات المستنبطة من عمق المجتمع الموريتاني بما يحمل من تناقضات وصراعات قيمية وسياسية، كانت عائقًا أمام النظام السياسي أو السلطة الجديد للدولة الموريتانية الوليدة، بحسب ما أكد جون لويس بلاه، لكن تجاوز تلك الإشكاليات في وسط ميدان التأسيس الكلي للمجتمع الصناعي بدلًا من المجتمع الرعوي البدوي وفي ميدان الدولة المستقطبة للسكان واليد العاملة والموازية لكل الأعراق والإثنيات زاد من صعوبة الضغوط المجتمعية الداخلية، وساهم في إرباك تحديد هوية وطنية جامعة للمجتمع الموريتاني، فاتخذت السلطة بدلًا من قصورها ذلك الأيديولوجيا السياسية المحددة للمبادئ العامة للجمهورية وللتوجهات العامة.

إن أزمة السلطة الجديدة التي وُلدت مع نشوء الدولة لم تكن مستنبطة من فراغ، بل جاءت نتيجة لأحداث ما قبل الاستقلال، وما تميزت به تلك الحقبة من صراعات وتنافسات، حيث كان تناقض واختلاف الأفكار والرؤى داخليًا يتمثل بسنوات تمثيل إقليم موريتانيا في البرلمان الفرنسي 1946.

كانت أولى خطوات السلطة الجديدة للدولة المستقلة على المستوى السياسي هي إنشاء حزب الشعب في كانون الأول/ديسمبر 1961 وضم مختلف الأحزاب والفاعلين السياسيين فيه، محاولة إضفاء الطابع المؤسسي عليه[17] كحزب وحيد للدولة، فكان ذلك الإجراء بمنزلة أول ملامح التوجه السياسي الجديد للسلطة الجينية التي تسيّر البلاد، كما كانت السلطة الجديدة تهدف من وراء إلغاء التعددية، إلى تقويض شيوخ المجموعات والقبائل الأخرى لصالحها، أي تهميش أي سلطة أخرى لها رأس مال رمزي أو غيره في المجتمع على حساب قوتها هي وسيطرتها.

يُضاف إلى ذلك أن السلطة الجديدة في موريتانيا أخذت في الحسبان التعالي على الصراعات والتعارضات التي كانت تفرضها التقسيمة القديمة بين السلطة الزاوية، وما تفرض من نماذج سلطوية تتمثل بإدارة الغيب والتكلم باسم الله في الأرض، وسلطة القبائل العربية، ممثلة بالإمارات المغفرية العربية (اترارزة، والبراكنة، وآدرار، وأولاد أمبارك)، وهمشت المجموعتين باعتبارهما رعايا لا منافسين لسلطة الدولة الجديدة، وذلك عائق يُضاف إلى عوائق التحول الجديدة.

ثم إن أزمة السلطة الجديدة التي وُلدت مع نشوء الدولة لم تكن مستنبطة من فراغ، بل جاءت نتيجة لأحداث ما قبل الاستقلال، وما تميزت به تلك الحقبة من صراعات وتنافسات، حيث كان تناقض واختلاف الأفكار والرؤى داخليًا يتمثل بسنوات تمثيل إقليم موريتانيا في البرلمان الفرنسي

(17) Ibid.

1946، فنشأ تبعًا لذلك اتجاهان، اتجاه محافظ، والآخر تقدمي[18] يدعو إلى الاستقلال الفوري عن الاستعمار ومحاربة الطبقية.

إن أزمة التحول التي واجهت السلطة الجديدة، لم تكن أزمة الولادة فحسب، بل هي أزمة عدم توافر عصبية تدافع عنها وتنافح حتى وصولها لسدة القوة والحكم، بل إنها نشأت من رحم أزمات ذهب حدّ التشكيك في شرعية كيان الدولة نفسه، وهو ما جعلها تولد من رحم تلك المعاناة، مدعومة من فرنسا وتسعى إلى تقويض العصبيات بدل الاعتماد عليها على حساب نشوئها وسيطرتها هي.

ب ـ السلطة العسكرية

استمرت أزمات التحول داخل السلطة الجديدة تلقي بظلالها على كاهل السياسات العمومية، إضافة إلى بعض الأخطاء الإقليمية المتمثلة بالزجّ بالدولة في حرب مبكرة سنة 1975، حتى انقلاب 1978، الذي شهدت سلطة الدولة معه تحولات أيضًا على مستوى العمق مرة أخرى، إذ يمكن أن نميِّز بين مرحلتين من الحكم العسكري وولادة السلطة التي يقودها الجيش بموريتانيا، لا يفصل بين المرحلتين منطق التشابه أو التنافر وإنما من أجل التفريق بين مرحلة الحكم بالبذلة العسكرية ومرحلة الحكم بعد فسخها بالطريقة المدنية (الانتخاب) أي مزاوجة العسكرية بالمدنية.

(1) الحكم بالبذلة العسكرية: في هذه المرحلة كادت الصراعات الداخلية التي نشبت بين قادة المؤسسة العسكرية نفسها أن تقوض سلطة الدولة، فشهدت تبعًا لذلك مراحل كثيرة من التحولات المتسارعة، الناتجة من الرغبة في امتصاص اللغط الداخلي، فضلًا عن نوايا القادة أنفسهم وصراعاتهم التي أحيت أنموذج الصراعات القبلية في مجتمع الإمارات العربية الحسانية، وإن بصورة مختلفة.

استعرض فيليب مارشزين عوائق السلطة ومختلف الصراعات التي دارت حولها بعيد انقلاب عام 1978، مرورًا بالمشاكل الداخلية والخارجية، إلى حين الصراع البيني الذي نشب بين قادة المؤسسة العسكرية نفسها، فقد كان انقلاب عام 1978 بقيادة المصطفى ولد محمد السالك وهو ثاني رئيس يحكم موريتانيا الذي حاول أن يقدم استراتيجيًا ما سمّاه الإنقاذ الوطني، لكن نيات وزير داخليته جدو ولد السالك الذي كان يعَدّ هو الشخصية الثانية من بعده حول بعض الملفات المرتبطة بعلاقة موريتانيا بدول الجوار وموقفه الحاد منه كبعثي تجاه تطلعات المجموعة الزنجية، جعل المشكل الثقافي يطفو مبكرًا على السطح مرة أخرى. ففي شباط/فبراير 1979 شرع معلمون وتلامذة زنوج في الإضراب احتجاجًا على الإصلاح القاضي بتوسيع نطاق تعريب التعليم والإدارة، لاحظ الزنوج بمرارة أن الآمال التي عقدت على النظام الجديد تبخرت بسرعة، ندد هؤلاء بما سمّوه «الأبارتايد المخادع» وأكدوا أن السياسة الوطنية المتطرفة والقبلية التي كانت متبعة من طرف المختار ولد داداه تتم مواصلتها اليوم.. وأن الزنوج ما زالوا مواطنين بنسبة 50 بالمئة، لم يتأخر رد وزير الداخلية في إظهار صرامته، فأخبر بأنه سوف يلجأ إلى إعدام مثيري القلاقل عند الاقتضاء، ولم يتأخر رد فعل رئيس الدولة كذلك، ففي يوم 20 آذار/مارس 1979 تمت مراجعة

(18) فرانسيس دي شاسه، **موريتانيا من سنة 1900 إلى سنة 1975**، ترجمة محمد بن بوعليبه بن الغراب (نواكشوط: منشورات دار النشر جسور، 2013)، ص 168.

الميثاق الدستوري، واستغل الرئيس ولد محمد السالك صلاحياته فعزل ثلاثة وزراء[19] من بينهم وزير داخليته، من أجل امتصاص غضب الزنوج، واستبدله بأحد قادة اللجنة العسكرية المنحدرة من أصول زنجية وهو «تيام الحاج»[20].

لم تكن تلك العراقيل الوحيدة التي واجهت ولد محمد السالك، فقد أعلن في آذار/مارس كذلك عن إنشاء مجلس استشاري مهمته إشراك الشعب في مختلف مراحل تنفيذ السياسة العامة للبلد، لكن تعيينه أعضاء هذا المجلس لم يرضِ الزنوج، فاستقالت منهم 17 شخصية من المعينين احتجاجًا على عدم عدالة التوزيع الإثني للمجلس الوطني الاستشاري. من جهة أخرى بدا الكثير من شخصيات البيظان من منطقة الترارزة (القريبة من النهر التي ينحدر منها الرئيس الأسبق ولد داداه مناهضًا لمشروع محمد ولد السالك[21].

يضمن الدستور الموريتاني الجديد الحريات العامة ويسمح بتكوين أحزاب سياسية غير محدودة العدد، كما يصون الصحافة والتعبير ويقترح إنشاء مجلس نواب منتخب، وكذلك مجلس للشيوخ ينتخب بالاقتراع غير المباشر (من طريق المجالس البلدية)، ومن مميزات الدستور الجديد التشديد على الهوية العربية الإسلامية الأفريقية لموريتانيا.

وبمعزل عن ما ظهر من الخلافات من طرف الزنوج الذي يرون أن تمثيلهم في السلطة غير ممكن، فإن مسألة الخلاف الجهوي كانت حاضرة وبشدة في تلك المرحلة ولا تزال بقاياه موجودة بين المنتمين إلى الجنوب الغربي للبلاد (الترارزة) والمنتمين إلى الجهات الشرقية (الحوضين والعصابة) داخل مكون البيظان. هذه أمور عجلت عزل محمد السالك وتحويل النظام إلى نظام برلماني وإعطاء الصلاحيات لولود بوسيف، حيث سحب أعضاء اللجنة العسكرية للإنقاذ الوطني السلطة الفعلية من رئيس الدولة مع الإبقاء عليه رئيسًا، وحل المجلس الاستشاري، كان مدبرو الانقلاب الذين يترأسهم المقدم ولد بوسيف يأخذون على المصطفى ولد محمد السالك تردده وافتقاره إلى السلطة. وبعد ذلك بأيام اتهمه الرجل القوي الجديد بإدخال البلاد في غموض تام[22].

ويبدو أن الرجل القوي الجديد لم يكن على غرار سلفه ينوي إرسال رسائل طمأنة إلى المجموعات والإثنيات الحالمة بتقاسم السلطة أو مشاركتها مع الجيش، بل إن من مآخذه على سلفه هو افتقاره إلى السلطة. وقد وضح أن السلطة لن تتحقق بالاعتماد على الشباب الحالم ولا على النخبة التي أثبتت فشلها بل من خلال المؤسسة العسكرية حيث جاء في خطابه «أن القوات المسلحة

(19) فيليب مارشزين، **القبائل، الإثنيات والسلطة في موريتانيا**، ترجمة محمد بن بوعليبه بن الغراب، ط 2 (نواكشوط: دار جسور للنشر، 2021)، ص 179.

(20) المصدر نفسه.

(21) المصدر نفسه، ص 180.

(22) المصدر نفسه.

ارتكبت خطأ بتقاسمها السلطة مع السياسيين القدامى والشباب الحالمين، فقد حرفت خطايا هؤلاء وعدم خبرة أولئك السلطة عن هدفها الأساسي وبدأت تغرق يومًا بعد يوم في وحل التناقضات على المستوى الداخلي والخارجي، فلو أن السلطة كانت بأيدي الجيش لوجدت في الحكومة اتجاهات تمارس هذه السلطة في الواقع»[23].

هذا التوجُّه الجديد جعل السلطة تبقى بأيدي الجيش، مع تبديل الاستراتيجيات المختلفة من أجل المحافظة عليها، ورغم صراعات القادة العسكريين الداخلية أيضًا، إلا أن الشارع أو اللغط المجتمعي الذي يسببه الطلب المتزايد بتقاسم السلطة مع الجيش، إذكاءً لعصبيات مختلفة (شرائحية وقبلية وجهوية)، كان له تأثير وحضور، ساهم دومًا في مرافقة التحولات الداخلية العميقة لسلطة الدولة الوليدة.

وبعد وفاة ولد بوسيف وبزوغ نجم محمد خونه ولد هيداله، حاولت اللجنة أيضًا أن تجري تعديلات في سياستها، وأن تلتفت إلى المشكل الاجتماعي، فقررت إنشاء معهد للغات الوطنية مهمته ترقية اللغات الوطنية غير العربية التي هي البولارية والصونكية والولفية، فنزع هذا القرار مؤقتًا فتيل الأزمة بين المجموعة البيظانية ومجموعة الزنوج الأفارقة، فضلًا عن أن التعديل الذي أقرته اللجنة سمح بإعادة بعض التوازن الإثني على المستوى الاقتصادي والمالي، إضافة إلى أن ولد هيداله قد قضى على ثنائية السلطة وأعاد ميثاقًا جديدًا صودق عليه في 10 تموز/يوليو 1978 للعمل بمقتضياته مع بعض الفوارق الطفيفة[24]. وقد حاولت السلطة الجديدة أن تعيد ترتيب العلاقة بينها والشعب الذي لم يتعود بعد حكم سلطة الدولة من طريق تأسيس «هياكل تهذيب الجماهير» الأمر الذي أذكى الشرارة وأخرج الفكرة عن محتواها وأدى إلى نهاية حكم ولد هيدالة سريعًا، على يد أقرب مقربيه.

(2) مرحلة السلطة العسكرية المدنية: تمثلت هذه المرحلة بتوجُّه السلطة العسكرية بعد أن انقلب ولد الطايع على هيدالة إلى شرعنة التعددية الديمقراطية والقضاء على الحكم العسكري ممثلًا باللجنة العسكرية للخلاص الوطني، وترشيح نفسه في الانتخابات بالزي المدني، وهي مرحلة جديدة صارت فيما بعد عرفًا في تمثلات المشهد السياسي.

سعيُ اللجنة مدفوعة برئيسها في المرحلة الجديدة إلى الانفتاح الديمقراطي، نتج منه طرحها دستورًا جديدًا للبلاد، تمت المصادقة عليه في استفتاء عام بتاريخ 12 تموز/ يوليو 1991 بنسبة تتجاوز 98 بالمئة من الأصوات.

يضمن الدستور الموريتاني الجديد الحريات العامة ويسمح بتكوين أحزاب سياسية غير محدودة العدد، كما يصون الصحافة والتعبير ويقترح إنشاء مجلس نواب منتخب، وكذلك مجلس للشيوخ ينتخب بالاقتراع غير المباشر (من طريق المجالس البلدية)، ومن مميزات الدستور الجديد التشديد على الهوية العربية الإسلامية الأفريقية لموريتانيا، وحرصه على المساهمة في إنجاز الوحدة العربية والاندماج الأفريقي، كما يعلن الإسلام دينًا للدولة ويعدّه مصدرًا أوحد للتشريع،

(23) المصدر نفسه، ص 180ـ181.

(24) المصدر نفسه، ص 185.

كذلك ذُيِّل الدستور بفقرة استثنائية تنيط اللجنة العسكرية تسيير المرحلة الانتقالية نحو التحول الديمقراطي[25].

هذا يعني أن استراتيجية التحول الجديدة في السلطة بعد إقرارها دستور عام 1991، حاولت أن تنفتح قدر الإمكان على المكونات أو العصبيات المتلبسة بلبوس سياسي مختلفة، مع إبقاء مبدأ أن السلطة للجيش، وإن كانت الطريقة الجديدة توهم المكونات الأخرى أنهم منافسون محتملون فيها، وميدان التنافس هو الانتخاب.

إن استراتيجية التحول الجديدة في السلطة بعد إقرارها دستور 1991، حاولت أن تنفتح قدر الإمكان على المكونات أو العصبيات المتلبسة بلبوس سياسي مختلفة، مع إبقاء مبدأ أن السلطة للجيش، وإن كانت الطريقة الجديدة توهم المكونات الأخرى أنهم منافسون محتملون فيها.

حاول الجيش الممسك بالسلطة أن يغير أو يحوِّل في تلك الاستراتيجية السلطوية في انتخابات 2007، التي جاءت بعد مرحلة انتقالية حكم فيها الجيش بعيد إطاحته الرئيس الأسبق معاوية ولد الطايع، فأتوا بمدني في تلك الانتخابات لكن ذلك السيناريو لم يدم، فاصطدمت السلطة المنتخبة بالجيش من جديد وأزاحوها سنة 2008 وأعادوا التجربة نفسها (حكم العسكريين من طريق الانتخاب أو بلباس مدنيٍّ)، في مرحلتين تم خلالها احترام الدستور المصادق عليه عام 2006 الذي ينص على أن الرئيس لا يمكنه أن يترشح بعد قضائه حقبتين رئاسيتين في الحكم، وهو ما تم بتنازل الرئيس السابق محمد ولد عبد العزيز إلى الرئيس الحالي محمد ولد الشيخ الغزواني، بعد فوزه في انتخابات 2019.

خاتمة

لقد كانت مسألة التحولات دخل السلطة في المجتمع الموريتاني عميقة جدًا، نظرًا إلى عدة اعتبارات، لو تعالينا أو تجاوزنا المشكل العرقي الذي أثر في سلطة الدولة الحديثة في محاولات تحولاته المختلفة، فإن المسألة الاجتماعية كانت لها أيضًا إملاءاتها وسياقتها التي حاولت في مختلف الجبهات الدفاع عنها داخل السلطة الحديثة التي همشت العصبيات وحاولت إلغاءها في سبيل بناء نفسها، ذلك بأنها لم تكن وليدة مخاض اجتماعي داخلي، وإنما هي نتيجة الاستجابة لمتغيرات أشبه ما تكون بعالمية، من جراء انقضاء المستعمر وإحلال الدولة الإقليمية محله.

ثم إن سلطة الدولة ممثلة بالسيطرة العسكرية، التي حاولت إيهام الفاعلين السياسيين بأنهم منافسون محتملون، حافظت على النمط القديم نفسه في صراعاتها، أي تبدلها بصراعات داخلية،

(25) السيد ولد أباه، «الدولة والقوى السياسية،» في: مجموعة من المؤلفين، **موريتانيا: الثقافة والدولة والمجتمع**، إعداد السيد ولد أباه، سلسلة الثقافة القومية؛ 28 (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1995)، ص 129ـ130.

متمثلة بالانقلابات، وإعادة الشعارات نفسها التي رضي بها السياسيون المدنيون مقابل إشراكهم في ريع السلطة، أو تقاسمها معهم.

ويمكن بناء على ذلك القول بأهم النتائج التالية:

ـ إن السلطة في مجتمع الزوايا كانت وليدة تحولات ما بعد الحدث المرابطي، وكان جانبها الروحي أقوى من جانبها العسكري.

ـ إن سلطة الزوايا أيضًا حافظت على شكلها ضمن التحولات الكبيرة التي شهدها المجتمع بعد حرب شرُبّة التي نشبت بين الزوايا وعرب حسان، واستثمرت أكثر في أيديولوجيا الإسلام.

ـ إن السلطة الحسانية ممثلة بنفوذ القبائل العربية المهاجرة، كانت تقوم في الأساس على الفروسية وقيم الشهامة، فضلًا عن ما ينتج ذلك من إذكاء للصراعات وتجييش للعصبيات.

ـ كانت مجالات التلاقي بين السلطتين التقليدية بيّنة، حيث أثرت سلطة حسان في الزوايا فاستخدموا التنظيمات القبلية، وأثرت أيديولوجيا الزوايا في حسان فاحتلوا القضاء في تنظيماتهم، تمامًا كما كان الإمام الحضرمي في المجتمع الأميري المرابطي.

ـ السلطة الجديدة، ممثلة بالدولة لم تكن نتيجة ولادة جينية داخلية، بل كانت نتيجة لظروف أخرى خارجية خلقت منها، ومع ذلك، بدًلا من أن تستخدم العصبيات باختلاف تشكيلاتهم حاولت تهميشهم لمصلحتها.

ـ كانت العصبيات تتلبس بفعل صدمة ولادة السلطة الجديدة بلبوس تنظيمات وحركات سياسية مختلفة تحاول تقويض السلطة الجينية لمصلحتها دومًا، وهو ما أذكى شرارة الانقلابات والصراعات المجتمعية مع السلطة الجديدة.

ـ في الانقلابات تستخدم السلطة العسكرية عصبية الجيش ونظامه دومًا لفرض نفوذها، وفي المقابل كانت المجموعات الاجتماعية تستثمر في رمزيات السلطة الزاوية أحيانًا، وفي أحيان أخرى في رمزيات العصبية الشرائحية والجهوية والقبلية حتى.

ـ سلطة الدولة الجديدة في أطوار تحولاتها المختلفة، حاولت دومًا احتواء كل تلك العصبيات لمصلحتها بطرق شتى، تستخدم فيها تثمين تاريخ تلك السلطة، أو تعترف برمزياتها إن أيقنت ضعفها فعلًا □

تحولات الخطاب الوطني الفلسطيني في مواقع التواصل الاجتماعي: الفيسبوك نموذجًا

بسّام عويضة(*)

أستاذ مساعد في دائرة الإعلام، جامعة بيرزيت – فلسطين.

مقدمة

لم تبقَ السياسة الفلسطينية على حالها طوال الأعوام الستين الماضية، فالسياسة مثل الظواهر الاجتماعية الأخرى، تتعرض لعوامل ومُؤثرات وتغيرات وتدخلات داخلية وخارجية. ولعل من أبرز هذه العوامل عدم التكافؤ في موازين القوى العسكرية والأمنية بين الجانبين، الأمر الذي أدى إلى إعادة النظر في الخطاب السياسي الوطني الفلسطيني وانتقاله من التحرير إلى الشرعية الدولية. حيث رأى فلسطينيون أن ذلك يُشّكل إعادة القضية إلى حاضنتها السياسية والقانونية، بينما رأى آخرون أن ذلك مثَّل انتكاسة للمشروع الوطني.

مع تكوّن السلطة الفلسطينية تغير الخطاب الوطني من المقاومة إلى مخاطبة الرأي العام الدولي. ولم يبق الخطاب مرتبطاً بالنخبة، بل انخرطت فيه شرائح الشعب الفلسطيني التي لم تجد وسيلة أو طريقة للتعبير فيها عن رفضها للاحتلال وفضح وتوثيق ممارساته سوى وسائل الإعلام الجماهيرية.

وقد حاول السياسيون الفلسطينيون مع هذا التحول، إبقاء المشروع الوطني وحدويًا وأولوية قصوى، إلا أن هذه الرؤية أصبحت ضربًا من الخيال لأن ما ورد في الاتفاقيات السياسية لم يلبِّ طموح الشعب الفلسطيني، فمشروع بناء مؤسسات الدولة السيادية بقي على هامش جغرافي ضئيل وممزق ومحاصر، وقد زاد خروج قطاع غزة من المعادلة الطين بِلَّة؛ فقد بقيت السلطة رهينة «كنتونات» مجزأة ولم تستطع بسط سيطرة نفوذها على التراب الوطني الذي احتُل عام 1967.

(*) البريد الإلكتروني: bewaida@birzeit.edu

ومع تكوّن السلطة الفلسطينية تغير الخطاب الوطني من المقاومة إلى مخاطبة الرأي العام الدولي. ولم يبق الخطاب مرتبطًا بالنخبة، بل انخرطت فيه شرائح الشعب الفلسطيني التي لم تجد وسيلة أو طريقة للتعبير فيها عن رفضها للاحتلال وفضح وتوثيق ممارساته سوى وسائل الإعلام الجماهيرية، فهي وسائط تتجاوز الحدود الوطنية ويمكن من خلالها التفاعل والتزامنية والبث المباشر مع الرأي العام العربي والغربي، وهي ذات تأثير قوي ولا تحتاج إلى مهارات فذة للتعامل معها.

لقد شاركت العامة في إبداء رأيها وفي صوغ الخطاب ولم يتخلَّف أحد عن الموكب بمن فيهم الأمي والمتعلم والسياسي والمثقف والعامل والمزارع والطالب، وغدت تلك الوسائط ساحة للتفريغ النفسي ورفع الشعارات وإنشاء صفحات وهمية بأسماء مستعارة والتنمر وتضخيم المعلومات وتزييف الواقع؛ الأمر الذي أدى إلى تزايد انتشار خطاب الكراهية. فبحسب نتائج دراسة أعدها المركز العربي لتطوير الإعلام الاجتماعي ظهر «أن أكثر من 71 بالمئة من الفلسطينيين يرَون أنّ خطاب الكراهية، بين الفلسطينيين، منتشر على منصّات التواصل الاجتماعي»[1].

لقد حاول المواطن الصحافي الفلسطيني من خلال منصات التواصل إيصال الرواية بنفسه إلى العالم الخارجي، واستخدام أساليب الإقناع والتأثير، فالمواطن يكتب ما يشعر به أو يعتقد أنه يشعر به من دون الرجوع إلى مرجعية أو إلى رئيس تحرير أو إلى مدونات سلوك أو إلى مدقق لغوي، بل وجدها فرصة لتسويق آرائه والتعبير عما يجول في خاطره. وكنتيجة لهذا الأمر، أصبح الخطاب الوطني الفلسطيني غير واضح الرؤية والأهداف والاستراتيجيات. من هذا المنطلق، تولّدت فكرة الدّراسة لدى الباحث بأن يقوم بدراسة هذا التحول وقياس محتواه وتقييم مضمونه، ولهذا قام بدراسة هذه الظاهرة.

إشكالية الدراسة وتساؤلاتها: تقوم إشكالية الدراسة بالكشف عن التحولات التي حدثت على الخطاب الوطني الفلسطيني في منصة الفيسبوك ودراسة مضمون هذا التحول وقياس الأثر الناتج من هذا التحول. بناءً على ذلك، يطرح البحث السؤال التالي: ما التحول الذي حدث في الخطاب الوطني الفلسطيني على منصة الفيسبوك؟

وانطلاقًا من السؤال الرئيس، يطرح البحث الأسئلة الفرعية التالية:

ما مضمون الخطاب الوطني على منصة التواصل الفيسبوك؟ ما الموضوعات التي يتضمنها الخطاب الوطني الفلسطيني؟ ما هي فئات المصدر التي تقوم ببث هذا الخطاب؟ ما هي معايير الرسائل السياسية التي يتضمنها هذا الخطاب؟ ما هي فئة الوسائط المستخدمة في الخطاب؟ ما هي اتجاهات وطبيعة اللغة المستخدمة في مضمون الخطاب الوطني؟

أهمية وهدف الدراسة: تنبع أهمية الدراسة من موضوعها، فهي تشكل إضافة جديدة في المكتبة العربية. لقد لاحظ الباحث ندرة الدراسات التي تطرقت إلى هذا الموضوع في قواعد البيانات الرقمية العربية. كما توضح الدراسة تحولات الخطاب الوطني على منصات التواصل، وستمهد

(1) «دراسة حول منصات التواصل الاجتماعي،» **القدس**، 2021/11/9، <https://alquds.com>

الطريق إلى إجراء دراسات مماثلة تتناول الموضوع نفسه أو أحد محاوره. تستمد الدراسة أهميتها من وضع الاستراتيجيات والخطط لتطوير الخطاب الوطني بما يخدم الرؤى الفلسطينية، وستضع معلومات إضافية على طاولة السياسيين لكي يقيموا مضمون الخطاب الوطني وقياس محتواه، وستكون الدراسة بمنزلة دعوة إلى وقف خطاب الكراهية بين أبناء الشعب الواحد. كما ستكون في متناول الباحثين والطلبة والمختصين. كما ستساعد توصيات ومقترحات الدراسة على توظيف مساق التربية الإعلامية في المؤسسات التعليمية لتعليم الطلاب وتدريبهم على التعامل مع محتوى الإعلام في الانتقاء وتجنب الآثار وتشجيع المواطنين وتثقيفهم بدور منصات التواصل. تسهم الدراسة في معرفة التحول الذي حدث في الخطاب الوطني الفلسطيني على منصة الفيسبوك، وستكون متاحة أمام الباحثين والطلبة لتطوير أبحاثهم عن أهم المظاهر الناتجة من الخطاب الوطني الفلسطيني على منصة الفيسبوك، كما تقدم الدراسة إسهامًا في معرفة الموضوعات والمصادر وطبيعة اللغة للخطاب الوطني الفلسطيني. كما ستكشف الدراسة الرسائل السياسية التي يتضمنها هذا الخطاب واتجاهات المضمون في هذه الرسائل، وأخيرًا ستكون المقترحات والتوصيات التي تقدمها الدراسة على طاولة السياسيين والأحزاب ومؤسسات المجتمع المدني للرقي بالخطاب الوطني وبالحد من خطاب الكراهية الذي يجتاح منصات التواصل الاجتماعي.

الدراسات السابقة: نقب الباحث في عشرات الكتب والأبحاث العلمية المحكمة التي تطرقت إلى بعض محاور الدراسة، ولم يجد في قواعد البيانات الرقمية العربية بحثًا مباشرًا عن موضوع الدراسة. وقد ساعدت الدراسات السابقة الباحث في بناء إشكالية الدراسة وأهميتها وأهدافها، كما أفادته في تحديد الخلفية النظرية للدراسة. لقد تناول جزء من الدراسات السابقة النظام السياسي الفلسطيني وتحولات الخطاب فيه وقد استندت أغلبية هذه الدراسات في منهجها إلى المنهج الوصفي التحليلي أو إلى منهج تحليل الخطاب مثل دراسة الشرفي.

لكن تختلف الدراسة الحالية عن الدراسات السابقة في أنها اشتغلت على التحولات التي حصلت في الخطاب الوطني الفلسطيني وكيف شارك الرأي العام الفلسطيني في التعبير عن هذا الخطاب. كما تختلف هذه الدراسة في نتائجها، فقد أعطت نتائج جديدة حول اتجاهات وموضوعات تحولات الخطاب.

الإطار النظري والمنهجي للدراسة: افترض الباحث وجود تحول في الخطاب الوطني الفلسطيني في منصة التواصل الاجتماعي «الفيسبوك»، وأن هذا التحول صاحبته مظاهر أدت إلى نشوء خطاب مليء بالكراهية والبغضاء. ومن هذه النقطة رأى الباحث أن أفضل مقاربة تناسب هذه الدراسة هي مقاربة «تحليل الخطاب» التي تغطي علاقة الخطاب بالسلطة وبمؤسساتها من أجل إنتاج معرفة لخدمة سلطة سياسية ولكن لا تتطرق إلى حقول أخرى مثل تحليل المفردة اللغوية ووجود المؤلف من عدمه ودراسة آلية إنتاج المعرفة ودراسة أنساق العلامات في المدرسة السيمائية.

أولًا: تحّول الخطاب الوطني الفلسطيني

يُعرّف الخطاب بأنه سلطة يجمع بين اللغة والهيمنة، بهدف تغيير القيم وتجييش الرأي العام والإقناع بتصورات جديدة وتحطيم سلطات سياسية وبث معلومات وتغيير أجندات، ولا يقوم الخطاب

على أصول لسانية بل يتشكل أساسًا من وحدات اسمها «المنطوقات»، وهذه تشكل منظومات منطوقية أو «التشكيلات الخطابية»، وهي تكون أو تتمحور دائمًا في حقل خطابي معين، وتحكمها قوانين التكوين والتحويل[2].

وبحسب المفكر المغربي محمد عابد الجابري (1936 ـ 2010) فقد عرف الخطاب بأنه «مجموعة من النصوص، له جانبان: ما يقدمه الكاتب وهو الخطاب، وما يقرؤه القارئ وهو التأويل، فالخطاب، بوصفه مقول الكاتب، هو بناء من الأفكار، يحمل وجهة نظر مصوغة في بناء استدلالي، أما الخطاب في صورة مقروء القارئ، فهو إعادة بناء، ومن ثم فهو يتضمن وجهة نظر»[3].

ولكن، يوجد بعض اللسانيين الذين لا يشاطرون الجابري رأيه، فهم لا يفرقون بين النص والخطاب. وهذا خطأ كبير، فالنص يتألف من صيغ تعبيرية في زمانه ومكانه الحاليين، بينما لا يندرج فهم الخطاب في مقامه الزماني أو المكاني، وإنما في نسقه الفكري والأيديولوجي لأنه مبني على نظرية فيها درجة كبيرة من التماسك.

أما ميشيل فوكو (1926 ـ 1984) فقد أوضح في كتابه **نظام الخطاب** الذي صدر عام 1970 أن: «أي خطاب، له نسق محدد أو نظام معين من الإكراهات والقيود التي تتحكم به، وليس عفويًا كما نتوهم، وحق الكلام لا يعطى لأي شخص في المجتمع»، وأثبت فوكو أن هناك إكراهات داخلية وخارجية تتحكم في إنتاج الخطاب، فعلى مدار التاريخ نلاحظ أن هناك أشخاصًا مأذونين، أي لهم حق الكلام وفتح أفواههم، وأناسًا أخرين يستمعون فقط أو يخضعون ويطيعون، في الماضي كان هؤلاء الأشخاص رجال الدين، وأما في العصر الحالي فإنه يسمح لأكبر عدد من الناس بالكلام[4].

وقد طرح بعض المفكرين السؤال التالي: من أين يستمد الخطاب سلطته: هل من قدرته الشمولية على ممارسة فعل القوة أو القدرة أو من طبيعة الخطاب نفسه، أو هل هو عنف نمارسه على الأشياء كما يقول الفيلسوف الألماني فريدريش نتشه (1844 ـ 1900)، أو من كونه استخدامًا للقوة واستثمارًا للمعارضة كما يقول المفكر الفلسطيني إدوارد سعيد.

يستمد الخطاب سلطته من الصياغة، فالرأي العام لا ينتبه إلى الصيغة وعناصر الإخراج الصحافي التي قولب فيها الحدث، فالصيغة نفسها هي أيديولوجيا، سواء كانت دينية أو قومية أو ماركسية أو ليبرالية لإحداث تأثير سياسي، يؤدي إلى إنتاج معرفة، وليس شرطًا هنا أن يكون مصدر الخطاب الحق أو القانون وإنما غالبًا يأتي بفعل القوة.

لذلك، ركز كل من ميشال فوكو وجاك دريدا (1930 ـ 2004) وهو فيلسوف فرنسي من مواليد الجزائر وصاحب نظرية التفكيك، والمحلل النفسي الفرنسي جاك لاكان (1910 ـ 1981)، على نظرية الخطاب، بمعنى أنّ اللغة والخطاب والنص هي شيء أساسي لأي علم حول الإنسان، كما أن العالم الألماني أوتوجروت يقول إنّ «اللغة هي التعبير الموضوعي عن عقلية الجماهير وروحها وميولها»[5].

---

(2) الزواوي بغورة، **ميشيل فوكو في الفكر العربي المعاصر**، ط 2 (بيروت: دار الطليعة، 2007)، ص 104.

(3) المصدر نفسه، ص 50.

(4) محمد أركون [وآخرون]، **الإسلام والأخلاق والسياسة** (بيروت؛ باريس: مركز الإنماء القومي، 1994)، ص 16.

(5) محمد البكاء، **الإعلام واللغة: مستويات اللغة والتطبيق** (دمشق؛ بيروت: دار نينوى، 2010)، ص 11.

ولكن السؤال، بماذا يهتم تحليل الخطاب، يجيب عن هذا السؤال بغوره الزواوي صاحب كتاب **الفلسفة واللغة: نقد المنعطف اللغوي في الفلسفة المعاصرة**، فهو يقول: «لا يهتم تحليل الخطاب بالتأويل ولكن بالوجود المتمظهر أو الظاهري للمنطوقات... إنّ وصف الخطاب يختلف عن تحليل اللغة لأنّ تحليل اللغة مفتوح، في حين تحليل الأحداث الخطابية هو تحليل لعيّنة وبالتالي هو مغلق»[6].

يرى بعض النقاد، أنّ منهجية تحليل الخطاب تعدّ بنية سطحية لبنى عميقة، ولكنها لا تغطي المشهد كاملة، فعلى الرغم من أنّ هذه المدرسة تغطي علاقة الخطاب بالسلطة ومؤسساتها وتشابكاتها السياسية، بهدف إنتاج معرفة لخدمة سلطة سياسية إلا أنها لا تغطي مجالات كثيرة ومهمة، مثل تحليل المفردة اللغوية واستبعاد المؤلف ودراسة آلية إنتاج المعرفة ودراسة أنساق العلامات في المدرسة السيميائية، مثل الرمز والإشارة والشارة والشعار والاستعارة والعرض والمختصر الحرفي واللون والصورة.

الغاية إذًا من تحليل الخطاب «هي الوقوف على دلالات النص الأكثر عمقًا، وإعطاء النص القراءة الدلالية الأدق، فهي آلية لاقتحام النص في عمقه لكشف دلالاته التي ربما أسقطها المؤلف، فهو لم يقلها، ولكنّ النص قالها، لهذا السبب أعلن عن «موت المؤلف»، لكن في المقابل أعلن ميلاد النص والقارئ»[7].

وإذا كانت وسائل الإعلام تحمل في رسائلها، كما يقول بيير بورديو، «أيدولوجيا ناعمة، فإنه يمكن فهم وسائل الإعلام أولًا، على أنها مؤسسات قائمة على بنية معقدة من العلاقات، فهي لا تظهر إلا في شكلها النهائي المتمثل باسم المؤسسة ونشاطاتها، وما هو مبان منها»[8].

يتبنى الخطاب الإعلامي مفاهيم ومقولات الحكومة أو السلطة أو الحزب أو الجماعة أو اللوبي ويدمجه في إطار بنيته الإعلامية بهدف التأثير في الجمهور من طريق تحول تلك الوسائل إلى نسق خفي، ونظام له أهدافه ومصالحه. إنه يعكس تأويل صاحبه للواقع، وليس الواقع نفسه، ولا يترك أمام الفرد أي إمكان للنقد والسؤال، لأنه يقوم بتسلسل الأفكار بعضها وراء بعض، بحسب أهميتها، لينتج منها فكرة جديدة، أو لإقصاء فكرة أخرى من طريق إنتاج متخيل غير مرئي.

فالبُنية المعرفية للخطاب تعتمد على «سلطات إبيبستيمولوجيا مغايرة، ومن هنا فهي تعبر عن الاختلاف بين هذه التصورات ولا تعبر عن فئات أو طبقات»[9].

---

(6) الزواوي بغورة، **الفلسفة واللغة: نقد المنعطف اللغوي في الفلسفة المعاصرة** (بيروت: دار الطليعة، 2005)، ص 165.

(7) خالفي، **البلاغة وتحليل النص**، ص 27.

(8) محمد أبو الرب، **الجزيرة وقطر: خطابات السياسة وسياسات الخطاب** (الدار البيضاء: دار أفريقيا الشرق، 2012)، ص 24.

(9) محمد عابد الجابري، **العقل الأخلاقي العربي: دراسة تحليلية نقدية لنظم القيم في الثقافة العربية**، ط 3 (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2009)، ص 19.

وبيّن المفكر المصري نصر حامد أبو زيد (1943 – 2010) أنّ آليات الخطاب الإسلامي هي: إهدار البعد التاريخي وتجاهله، والاعتماد على سلطة السلف أو التراث، وذلك بعد تحويل النصوص التراثية، وهي نصوص ثانوية، إلى نصوص أولية، والتوحيد بين الفكر والدين[10].

وقد عرَّف الإسلاميون من جانبهم، وعلى رأسهم يوسف القرضاوي، الخطابَ بأنه «البيان الذي يوجه باسم الإسلام إلى الناس مسلمين أو غير مسلمين، لدعوتهم إلى الإسلام أو تعليمه لهم، وتربيتهم عليه، عقيدة وشريعة، عبادة أو معاملة، فكرًا أو سلوكًا، أو لشرح موقف الإسلام من قضايا الحياة والإنسان والعالم»[11].

وقد انسحبت هذه التقسيمات في الخطاب على الفصائل والحركات السياسية في الأراضي الفلسطينية، فقد كان الخطاب الوطني الذي يعَدّ أحد مكونات العملية الوطنية الفلسطينية جامعًا حتى قدوم السلطة الوطنية الفلسطينية عام 1993، وبعد توقيع اتفاقية أوسلو حدثت أزمة في الفكر السياسي الفلسطيني وتحولات جديدة في الخطاب الوطني على صعيد الرؤية التي تحدد طبيعة العمل والأدوات والمضمون، ولا سيَّما النص والمفردات والمصطلحات، وقد تزامنت الكثير من التحولات في الخطاب الوطني الفلسطيني مع:

1 ـ وصول الرئيس الفلسطيني محمود عباس إلى سدة الحكم عام 2006، حيث أعلن عن إنهاء أي مظهر من مظاهر الكفاح المسلح ضد الاحتلال، وحدث تغيير نوعي في التفكير السياسي الفلسطيني، وانتقل الصراع من صراع وجود مع المحتل إلى تعايش، وأعلن عن تفكيك بعض الأجهزة العسكرية المقاتلة مثل «القوة 17» و«كتائب شهداء الأقصى»، بذريعة أن المتغيرات في البيئتين العربية والدولية حددت محددات خوض الصراع وأشكاله الممكنة مع المحتل.

2 ـ سيطرة حركة حماس على قطاع غزة وطرد حركة «فتح» من القطاع، وظهور الانقسام الفلسطيني بصورة جلية وواضحة، وهذا تم بدعم واضح من الاحتلال وقوى عربية وإقليمية. فالقضية الفلسطينية تعَدّ جوهر الصراع العربي – الإسرائيلي، وقد شكلت هذه القضية وما تزال الهوية العربية والإسلامية، لذلك كانت حاضرة على الدوام في حسابات الدول العربية والإقليمية بوصفها قضية «استثمار» في بعض الأحيان، أو حجر الزاوية في التحالفات الاستراتيجية في أحيانٍ أخرى.

3 ـ بروز فصائل فلسطينية إسلامية جديدة على الساحة الفلسطينية تمتاز بقوتها وبتوسع قاعدتها الشعبية والعسكرية مثل حركة الجهاد الإسلامي المدعومة من إيران. وقد أضافت هذه الحركة بعدًا جديدًا للإسلام السياسي في الأراضي الفلسطينية.

4 ـ ضعف التيار اليساري والقومي والليبرالي في الأراضي الفلسطيني، وتحول معظم أفراده إلى العمل في مؤسسات المجتمع المدني المدعومة من الغرب.

5 ـ ظهور أدوات ووسائل إعلامية جديدة لمخاطبة الرأي العام الفلسطيني مثل منصات التواصل الاجتماعي. وتُعرّف مواقع التواصل الاجتماعي بأنها «إحدى وسائل الإعلام الحديثة، وهي مجتمعات إلكترونية افتراضية تسمح للمشتركين فيها من كل الأعمال والأجناس بإنشاء حساب

(10) نصر حامد أبو زيد، **نقد الخطاب الديني**، ط 3 (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2007)، ص 14.

(11) أبو الرب، **الجزيرة وقطر: خطابات السياسة وسياسات الخطاب** ص 34.

خاص بهم، وتقدم إليهم مجموعة من الخدمات التي من شأنها تدعيم التواصل والتفاعل بينهم في أي وقت يشاؤون وفي أي مكان في العالم من خلال مجموعة من الطرق مثل المحادثة والبريد الإلكتروني والرسائل والفيديو وتبادل الملفات والمدونات والمحادثات الصوتية وغيرها»[12].

ومن أبرز هذه المواقع، الفيسبوك الذي يعد من أشهر المواقع الاجتماعية على الإنترنت، أسسه طالب اسمه ماركزو كريبرغ في جامعة هارفرد. يصل عدد مستخدميه حول العالم إلى 2.8 مليار مستخدم، وهؤلاء يمثلون نسبة تصل إلى 36 بالمئة من إجمالي عدد سكان العالم المقدر تعداده بنحو 7.8 مليار نسمة. وقد عملت الشركة على توسيع قاعدة المستخدمين في العالم[13].

ويُعدّ الفيسبوك من أكثر مواقع التواصل الاجتماعي انتشارًا وشعبية، إذ تقدر مدة استخدامه بأكثر من 700 مليار دقيقة في الشهر الواحد في تبادل الاخبار والآراء والأحاسيس والصور الشخصية[14].

وبسبب هذه التحولات، برزت نماذج جديدة للخطاب الوطني الفلسطيني، ومن هذه النماذج:

أولًا، خطاب منظم تقوده التنظيمات والفصائل الفلسطينية وهي:

1 ـ تيار السلطة السياسية الحاكمة بقيادة حركة « فتح» في الضفة الغربية.

تعدّ مدينة رام الله، وسط الضفة الغربية معقل أنصار هذا التيار المدعوم من الغرب وعلى رأسه الولايات المتحدة الأمريكية؛ فقد أحدث تغييرًا دراماتيكيًا ليس في تجاوز تأثيرات الحقل السياسي الفلسطيني فقط وإنما شمل البُنية المجتمعية. لقد حدث تحول عند أنصار هذا التيار إزاء الحقوق السياسية للشعب الفلسطيني والأدوات التي من خلالها يمكن الحصول على تلك الحقوق، فقد استبدلوا شعار الكفاح المسلح بشعار المقاومة الشعبية، وتم استبدال الحل المرحلي بحل قائم على دولة في حدود عام 1967، ولكن يُصرّ أفراد هذا التيار، الذي يتميز خطابه بالضعف والتردد والتغيير وعدم المواجهة، على أنهم حماة المشروع الوطني وأنهم يمثلون الشرعية الفلسطينية. كما ظهرت مفردات وصيغ جديدة في خطاب هذا التيار لم تكن موجودة من ذي قبل مثل «المقاومة الشعبية» و«الشرعية الدولية» و«الدولة على حدود عام 1967».

2 ـ التيار الإسلامي ويقوده حركتا حماس والجهاد الإسلامي في قطاع غزة. يمتاز خطاب هذا التيار بأنه قوي جدًا وواضح وحاد، ولكنه غير موحد، هذا الخطاب هو انعكاس كلي لمجمل العلاقات السياسية مع دول المنطقة مثل إيران وسورية وقطر ومصر وتركيا.

كما يوجد لهذا التيار محطات تلفزيونية محلية وصحف رسمية ومواقع إلكترونية ومنصات تواصل تعَدّ الأقوى في الأراضي الفلسطينية.

---

(12)همسة بسام إسماعيل النفار وإيهاب أحمد عوايص، «استخدام الصحافيين الفلسطينيين لمجموعات الواتس آب للحصول على الأخبار والمعلومات،» **مجلة الدراسات الإعلامية**، العدد 13 (2020)، ص 27.

(13) عبد الرزاق الدليمي ومحمد أحمد عبد الرزاق، «دوافع استخدام طلبة الجامعات الأردنية لموقعي (فيسبوك وتويتر) وإشباعاتهم المتحققة منها،» **المجلة العلمية للتكنولوجيا وعلوم الإعاقة**، السنة 2، العدد 3 (2020)، ص 27.

(14) خولة سعد البلوي، «استخدام مواقع التواصل الاجتماعي لدى طالبات جامعة تبوك في ضوء المسؤولية الاجتماعية،» **دراسات: مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية**، السنة 46، العدد 2 (2019)، الملحق 1، ص 127.

3 ـ التيار اليساري والقومي وهو تيار ضعيف ولا يتركز إلا في مدن مثل رام الله وبيت لحم وبعض الجامعات الفلسطينية، ويعدّ خطاب هذا التيار ضعيفًا جدًا بسبب قلة الإمكانيات المادية والبشرية.

4 ـ تيارات أخرى صغيرة مثل تيار المبادرة الوطنية الفلسطينية التي يقودها الناشط المجتمعي مروان البرغوثي، وهذا التيار ناشط على منصات التواصل الاجتماعي على نحو كبير وهو موجود في الفعاليات الشعبية التي تقام ضد الاحتلال.

كما يوجد تيار صغير يطلق على نفسه «تيار الإصلاح في حركة فتح» وهو تابع للقيادي المفصول من الحركة محمد دحلان، حيث يتركز أنصار هذا التيار في المخيمات الفلسطينية ويمتاز بنشاطه الإعلامي على منصات التواصل.

ثانيًا، خطاب غير منظم، وهو خطاب شعبي وفطري قائم على ضرورة مقاومة المحتل بالوسائل المتاحة بما في ذلك الوسائل العسكرية والمطالبة بحياة معيشية اقتصادية لائقة، وقد أتاحت مواقع التواصل الاجتماعي لهذه الشريحة فرصة التعبير عن رأيها، وهو لم يعد بحاجة إلى وسائل الإعلام التقليدية. وقد قام هذا الخطاب في أحيان كثيرة بوقف قرارات صادرة عن السلطة السياسية، مثل القوانين المتعلقة بالمحامين الفلسطينيين أو رفض تحويل رواتب العمال الفلسطينيين الذين يعملون في الداخل المحتل إلى المصارف الفلسطينية أو الكشف عن حالات فساد عند بعض الوزراء.

وقد امتاز هذا الخطاب الوطني بعدة دلالات وسمات وصفات مشتركة منها:

أ ـ أن أي خطاب مما سبق، يكتسب سلطته من خارجه، وما تقوم به اللغة ليس أكثر من كونها ترمز إلى تلك السلطة وبنيتها، ولكن الدعم الخارجي والتدخلات السياسية الخارجية أدت إلى تنوع في البنية السطحية لهذا الخطاب الذي قد يصل الى درجة التضاد في بنيته السطحية، وهذا ينطبق تقريبًا على جميع أنواع الخطابات السابقة.

استنادًا إلى ما تقدم، فإن الخطاب الوطني الفلسطيني في منصات التواصل الاجتماعي يعَدّ مرآة للتجليات السياسية العربية المتشعبة والمتباينة في منطلقاتها وأغراضها، مع رغبة في الادّعاء باحتكار المعرفة اليقينية أو امتلاك سلطة الحقيقة أو فرضها.

ب ـ مضمون هذا الخطاب انتقائي، فهو إعلام يقوم على معايير الانتماء للحزب أو الحركة والولاء السياسي، فإذا كانت العلاقات السياسية في الساحة الفلسطينية متوترة فإنها تنعكس مباشرة على المنصات الاجتماعية وإذا كانت العلاقات إيجابية فإنها تنعكس إيجابيًا.

ج ـ يغلب على هذا الخطاب الكراهية والبغضاء إلا عندما يتعلق الأمر بالكيانية السياسية والوجود الفلسطيني القومي أو في أوقات الحروب على قطاع غزة. ينتقل هذا الخطاب من التباين والاشتباك إلى القواسم المشتركة في حالة وقوع حرب في قطاع غزة أو حدوث أمر يتعلق بالقضية الفلسطينية كما حدث في تضامن حركتي «حماس» و«الجهاد الإسلامي» مع الرئيس الفلسطيني محمود عباس عندما أدانتا فتح تحقيق بحق الرئيس عباس على خلفية تصريحاته المتعلقة بـ«الهولوكست» في ألمانيا.

د ـ عدم الإيمان بالتعددية والرأي الآخر، وإنما ساهم هذا الخطاب في تعزيز الانقسام الفلسطيني، فبدلًا من أن تراقب المؤسسات السياسية بوصفها سلطة رابعة، فإنها دافعت عن تلك المؤسسات أمام أي أزمة سياسية.

هـ ـ ركز هذا الخطاب على القضايا المعيشية الحياتية، ولكن في الوقت نفسه لم يهمل القضايا الوطنية الكبرى وبخاصة الخطاب الشعبي العفوي، بسبب حالات القتل اليومية وهدم البيوت وحملات الاعتقال التي يقوم به المحتل، فلا يكاد يمر يوم من دون اقتحام لمدينة فلسطينية أو سقوط شهيد أو جريح فلسطيني.

و ـ انفكاك واضح بين التجمعات الفلسطينية في الخارج (مناطق اللجوء والشتات) مع خطابات الأراضي الفلسطينية المحتلة حول استحقاقات المشروع الوطني ومشكلاته.

ز ـ بغض النظر عما سبق، ساعد هذا الخطاب على إظهار معاناة الشعب الفلسطيني التي تسبب بها الاحتلال الإسرائيلي.

ح ـ وأخيرًا، لا يوجد ارتباط لهذا الخطاب بطبيعة المعارضات الشعبية إلا في تمظهره التقليدي، لأن المعارضات الشعبية ركزت على القضايا المعيشية الحياتية أو تحقيق بعض الشروط السياسية من النظام السياسي الحاكم على عكس الشعب الفلسطيني المُستعمَر الذي يسعى للتحرر من المستعمِر، وبالتالي لن تتوقف مطالبه عند حل سياسي أو تحسين شروط الحياة أو انتخاب شخص، بل هو يعيش صراعًا وجوديًا مع محتل، وهذا على عكس ما حصل في انتفاضات الربيع العربي.

ثانيًا: الطريقة والإجراءات

1 ـ منهج الدراسة

تنتمي الدراسة الحالية إلى حقل الدراسات الاستكشافية الكمية. هذا النوع من الدراسات يُعنَى بـ«استخدام الأرقام بدقة بحيث يتم الوصول إلى أكبر قدر من النتائج مستخدمًا أسئلة معيارية في هذا الطرح»[15].

يُعاب على المنهج الكمي أنه يقرأ نتائج الظاهرة بين اتجاهاتها ومتغيراتها وخصائصها ويحاول تفسير ذلك عن طريق الأرقام والإحصاءات، ولا يدرس الدوافع التي أدت إلى نشوء هذه النتائج كما في المنهج الكيفي.

تنتمي الدراسة إلى المنهج الوصفي التحليلي، حيث يُعدّ المنهج المناسب لدراسة مشكلة الدراسة ويلائم طبيعتها ويحقق أهدافها. كما يهدف إلى وصف دقيق للظاهرة للتعرف إلى ظروفها وأبعادها وتحليل النتائج التي تم التوصل إليها.

---

(15) حاتم محمد أبو زيد، «دور منصات التواصل الاجتماعية في تشكيل خطاب توعوي بقضايا حقوق الإنسان في المؤسسات الحقوقية: صفحة الفيسبوك الخاصة بالهيئة المستقلة لحقوق الإنسان الفلسطينية نموذجًا،» **المجلة العربية للإعلام والاتصال**، العدد 27 (2021)، ص 258.

فالمنهج «يهدف إلى تصوير ووصف الخصائص الدقيقة لظاهرة أو مجموعة من الظواهر التي يقوم الباحث بدراستها وأيضًا تعالج واقع الأحداث والمواقف والآراء والاتجاهات، وتفسرها بغرض الوصول إلى استنتاجات مفيدة»[16].

2 ـ مجتمع الدراسة وعيِّنتها

تقتصر الدراسة على التحولات في الخطاب الوطني الفلسطيني في موقع الفيسبوك، وقد تم تنفيذ الدراسة في الأراضي الفلسطينية خلال أربعة أشهر، من الأول من شهر آب/أغسطس حتى شهر تشرين الثاني/نوفمبر لعام 2021.

يتألف مجتمع الدراسة من 4000 صفحة لدى منصة الفيسبوك عند الباحث، فقد حدد الباحث عيّنة طبقية، إذ اختار 200 مفردة من 4000 مفردة على منصة الفيسبوك.

ونعني بالعيّنة الطبقية (Stratified Sampling) «تقسيم مجتمع الدراسة إلى طبقات بناء على الخصائص التي تتم دراستها في البحث، ثم يتم سحب عيّنة عشوائية من كل طبقة، وتعد العيّنة الطبقية أكثر كفاءة من العيّنة العشوائية البسيطة (Simple Random Sampling) لأنها تمثل المجتمع بدقة بناءً على المعايير المستخدمة في تقسيم المجتمع إلى طبقات. ويتم اختيار العيّنة الطبقية بناءً على تحديد متغير كأساس لتقسيم المجتمع إلى طبقات (Strata)، ولكل طبقة يجب الحصول على قائمة بجميع عناصر تلك الطبقة. من مزايا العيّنة الطبقية تمثيل المتغيرات المختلفة وتتميز بانخفاض مستوى خطأ المعاينة»[17].

بعد قراءة تعريف العيّنة الطبقية، قام الباحث وبمشورة زميل من كلية الإعلام في جامعة بيرزيت بتحديد متغير كأساس لتقسيم المجتمع إلى طبقات والمتغير هو مستوى التعليم، حيث تم اختيار 200 مفردة من طبقة واحدة. توزعت العيّنة على 10 تخصصات وهي: سياسيون وصحافيون وخبراء ومحللون وأساتذة جامعات وطلبة ومؤسسات من المجتمع المدني وأطباء وقانونيون ومهندسون. اختار الباحث موقع الفيسبوك لما له من تأثير قوي كمنصة تواصل اجتماعي في الشارع الفلسطيني. فقد «أصدرت شركة إيبوك المتخصصة في مجال مواقع التواصل الاجتماعي، تقريرها السنوي الخاص برصد واقع مواقع التواصل في فلسطين خلال عام 2019، وقالت الشركة في بيان صحافي صدر عنها إن نسبة استخدام فيسبوك في فلسطين بلغت 92.2 بالمئة، وهي بذلك أعلى نسبة استخدام لأدوات التواصل الاجتماعي»[18].

أدوات الدراسة: لتحقيق أهداف الدّراسة، اعتمد الباحث على ثلاث أدوات وهي:

---

(16) عمر إبراهيم بوسعدة، «دور الصحف الجامعية في نشر الوعي السياحي بفلسطين: دراسة تحليلية،» **المجلة العربية للإعلام والاتصال**، العدد 23 (2020)، ص 229.

(17) شيماء ذو الفقار زغيب، **مناهج البحث والاستخدامات الإحصائية في الدراسات الإعلامية** (القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2009)، ص 247.

(18) «»ايبوك» تصدر تقريرها لواقع منصات التواصل في فلسطين العام الماضي،» قدس الإخبارية، وكالة أنباء فلسطينية، 8 كانون الثاني/يناير 2020)، .<https://bit.ly/3G6S5fQ>

أ ـ أداة تحليل المضمون، بوصفها «أداة قادرة على الوصول إلى نتائج وتوقعات علمية وبحثية جيدة في الوقت الذي فشلت فيه بعض أدوات التحليل الأخرى في الوصول غلى نتائج دقيقة»[19].

وقام الباحث باختيار الفئات المناسبة للبحث، ليعطي أبعادًا لقياس قيمة ومحتوى ومضمون ولغة الخطاب الوطني الفلسطيني، علمًا أن فئات القياس الذي أطلع عليها الباحث كثيرة وقد تؤدي إلى تداخلات متشابكة، لكنه أختار الفئات المناسبة لهذه الدراسة للوصول إلى نتائج دقيقة.

وتعرف فئات التحليل بأنها «مجموعة من التصنيفات أو الفصائل التي يقوم الباحث بإعدادها طبقًا لنوعية المضمون ومحتواه، وهدف التحليل، لكي يستخدمها في وصف هذا المضمون، وتصنيفه على نسبة ممكنة من الموضوعية والشمول، بما يتيح إمكانية التحليل، واستخراج النتائج بأسلوب سهول وميسور»[20]، قام الباحث ببناء فئات التحليل والتي ترتبط بعضها ببعض بما يخدم أهداف الدراسة في صورتها الأولية، وتم تطويرها بناء على دراسات أطلع عليها الباحث وتكونت الفئات من (8) جداول لقياس الخطاب الوطني الفلسطيني والجداول موزعة بطريقة منطقية بما يخدم إشكالية الدراسة.

ثم قام الباحث بجمع المعلومات وتنسيقها وترتيبها وتصنيفها وتفريغها وتحليلها وتفسيرها.

ب ـ اعتمد الباحث أداة الملاحظة والرصد على منصة الفيسبوك لمراقبة المشكلة وتشخصيها وظواهرها بوصفها أداة قادرة على الوصول إلى نتائج بحثية ممتازة. وسيكون الباحث متمكنًا من ملاحظة الظاهرة كأداة من أدوات هذه الدراسة لكونه يعمل منذ عام 2010 كأستاذ في كلية الإعلام في جامعة بيرزيت، وقد درس العلوم السياسية والصحافة في جامعة برلين الحرة بألمانيا، وعمل في حقل الصحافة المكتوبة والمسموعة والمرئية لمدة تزيد على 26 عامًا متواصلة.

ج ـ استخدم الباحث أداة الاستقراء أداة لجمع المعلومات من المصادر المعرفية والعلمية المختلفة وبخاصة المصادر المتعلقة في تحليل الخطاب وتطور القضية الوطنية الفلسطينية التي تطرقت إلى موضوع الدراسة من زوايا مختلفة. تعتبر أداة الاستقراء من الأدوات القادرة على الوصول إلى نتائج وتوقعات علمية وبحثية جيدة.

3 ـ صدق الدراسة وثباتها

استخدم الباحث أسلوب قياس صدق أداة الدراسة وهي «استمارة تحليل المضمون»، وهو الصّدق الظّاهري أو ما يعرف بصدق المحكّمين. وللتحقق من صدق مؤشرات الأداة تم عرض المقياس (فئات التحليل) بعد إعداد الصورة الأولية على خمسة من المحكمين من ذوي الخبرة والكفاءة في تخصصات الإعلام والسياسة واللغة العربية وعلم الاجتماع وجميعهم من جامعة بيرزيت، بهدف التأكد من وضوح الفئات والعبارات والفقرات والتأكد من وضع الصياغة الإجرائية

(19) أسيل رضوان سعيد الأخرس، «الهوية الوطنية والقيمية للإعلام الرقمي في فلسطين،» (رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بيرزيت، فلسطين، 2021)، ص 85.

(20) المصدر نفسه.

ومدى ارتباط العبارات بالمحاور، ومدى صلاحيتها لقياس ما صممت لقياسه ومدى توافقها مع أهداف الدراسة وسلامة الصياغة اللغوية ولإبداء الرأي في صدق المضمون من أجل الحذف أو الإضافة. وفي ضوء ذلك قام الباحث بالتعديلات المطلوبة. كما استعان الباحث بزميلين لفرز فئة اتجاه المضمون (معلومات، تحريض، تعبئة) بسبب قُرب المقاييس بعضها من بعض وحتى لا تخضع هذه الفئة للرأي الشخصي.

اختار الباحث عيّنة استطلاعية بعد الانتهاء من فرز النتائج مكونة من جدولين من فئات التحليل لقياس المفردات مرة أخرى واختبار النتائج بغرض التّأكد من صلاحية أدوات الدّراسة واستخدامها لحساب الثّبات. وقد كانت النتائج مطابقة ما يعني ثبات ووضوح الاستمارة وقابليتها للتطبيق، أي أن المعلومات والبيانات المستخرجة من استمارة تحليل المضمون تتسم بالدقة والثبات.

ثالثًا: نتائج الدراسة

1 ـ فئات التحليل

حاول الباحث اختيار فئات مناسبة للدراسة بناءً على مشورة المحكمين والاطلاع على المصادر والمراجع. وقد استخدم الباحث الفئات التالية:

أ ـ فئات الموضوع: ويندرج تحت هذه الفئة الأخبار السياسية والاجتماعية والاقتصادية والرياضية والعلمية والدينية والثقافية والفنية.

ب ـ فئات جغرافيا المادة المنشورة: تهتم هذه الفئات بالجغرافيا التي كتبت عنها المادة، وهذه الفئات هي الجغرافيا الفلسطينية والعربية والأوروبية والأمريكية والإقليمية.

ج ـ فئة المصدر: وتشمل هذه الفئة الجهة التي تقف خلف كتابة المادة.

د ـ فئة معايير الخبر: قسم الباحث المعايير إلى الموضوعية والحيادية والآنية والقرب والضخامة والصراع والشهرة.

هـ ـ فئة الوسائط المستخدمة: وهي الأخبار والتقارير والصور والفيديوهات والكاريكاتير والإنفوغرافيك والأفلام والقصص والرسوم البيانية.

و ـ فئات اتجاه المضمون: وتشمل الطابع الإخباري أو التحريضي أو التعبوي.

ز ـ فئة اللغة المستخدمة: الفصيحة والعامية والأرابيزي وخلط اللغتين العربية مع الإنكليزية.

ح ـ فئة مضمون الخطاب الوطني: وهي تشمل الدعوة إلى المقاومة الشعبية وتداول السلطة والأسرى والتصدي للمستوطنين وبناء الدولة والاستعراض وعودة اللاجئين وعمل انتفاضة شعبية والتدخل في شؤون البلدان العربية والدعوة إلى العمل المسلح والهجرة ومحاربة الفساد والمحسوبيات ودعوات حزبية والولاء العشائري.

2 ـ نتائج التحليل الإحصائي

الجدول الرقم (1)
التكرارات والنسب المئوية لفئة الموضوع كمصدر للأخبار في الفيسبوك (محل الدراسة)

فئة الموضوع	التكرار	النسبة المئوية
سياسة	101	50,5
اقتصاد	7	3.5
رياضة	15	7.5
ثقافة وفن	5	2.5
دين	17	8.5
علوم	3	1,5
اجتماعية	37	18.5
دون ذلك	15	7.5
المجموع	200	100

يظهر الجدول الرقم (1) أن فئة موضوع السياسة كانت من أكثر الفئات التي كتبت على الفيسبوك بنسبة 50.5 بالمئة، وفي هذا دلالة كبيرة على أن الشأن السياسي والتخلص من الاحتلال يحتل حيزًا كبيرًا في تفكير الشعب الفلسطيني، يليها الفئة الاجتماعية بنسبة 18.5 بالمئة. أما أقل الفئات التي يُكتب عنها فهي فئة العلوم بسبب قلة الإمكانيات واهتمام الناس بالشأن الوطني والحيز العام.

الجدول الرقم (2)
التكرارات والنسب المئوية لفئة جغرافيا المادة المنشورة

فئة جغرافيا الخبر		التكرار	النسبة المئوية
فلسطيني	الضفة الغربية	167	83.5
	قطاع غزة	22	11
عربي		6	3
إقليمي		3	1.5
أوروبي		2	1
أمريكي		0	0
المجموع		200	100

يظهر الجدول الرقم (2) أن الأخبار التي كتبت على الفيسبوك تناول معظمها الأمور التي تحصل في الأراضي الفلسطينية بنسبة 83.5 بالمئة في الضفة الغربية و11 بالمئة في قطاع غزة والباقي في دول العالم.

الجدول الرقم (3)
التكرارات والنسب المئوية لفئة المصدر

فئة المصدر	التكرار	النسبة المئوية	ذكور		إناث	
			التكرار	النسبة المئوية	التكرار	النسبة المئوية
سياسيون	90	45	88	58.27	2	4.08
صحافيون	49	24.5	25	16.55	24	48.97
خبراء	12	6	11	7.28	1	2.04
محللون	6	3	6	3.97	0	0
أطباء	6	3	5	3.31	1	2.04
كتاب وشعراء	1	0.5	1	0.66	0	0
قانونيون	2	1	1	0.66	1	2.04
أساتذة جامعات	12	6	7	4.63	5	10.20
طلبة	16	8	3	1.98	13	26.53
مؤسسات مجتمع مدني	6	3	4	2.64	2	4.08
المجموع	200	100	151	100	49	100

يظهر الجدول الرقم (3) في فئة المصدر أن 45 بالمئة من البوستات كتبها سياسيون، بنسبة 58 بالمئة ذكور مقابل 4.08 إناث. وهذا يُشير إلى الغياب الملحوظ لنشاط السياسيات الفلسطينيات على منصة الفيسبوك. كما أن السياسيين يعدّون الفيسبوك أداة للتسويق السياسي لهم، يلي ذلك فئة الصحافيين بنسبة 24.5 بالمئة ثم الطلبة بنسبة 8 بالمئة.

ثم حاز الصحافيون ما نسبته 24.5 بالمئة، بما نسبته 16.5 بالمئة ذكورًا مقابل 48.97 بالمئة إناثًا، وهذا يعني وجود نشاط كبير على منصة التواصل الفيسبوك للصحافيات الفلسطينيات. في حين حازت فئة الطلبة 8 بالمئة، بنسبة 1.98 ذكورًا مقابل 26.53 إناثًا.

الجدول الرقم (4)
يوضح التكرارات والنسب المئوية لفئة معايير الخبر

فئة معايير الخبر	التكرار	النسبة المئوية
الموضوعية	22	11
الحيادية	13	6.5
الآنية	47	23.5
الأهمية	32	16
القرب	37	18.5
الضخامة	3	1.5
الصراع	23	11.5
الشهرة	11	5.5
غير ذلك	12	6
المجموع	200	100

يُلاحظ في الجدول الرقم (4) من فئة معايير الخبر في الفيسبوك (محل الدراسة) أن الموضوعية في الأخبار تكررت فقط 22 مرة بنسبة 11 بالمئة. بينما حازت الحيادية نسبة 6.5 بالمئة والآنية نسبة 23.5 بالمئة. بينما حازت فئة الصراع نسبة 11.5 بالمئة.

لاحظ الباحث أن تسابق المواطنين على السبق الصحافي والآنية وانفرادهم في الحصول على الأخبار وكتابتها يوقعهم في مزيد من الأخطاء والشائعات. من خلال الملاحظة والرصد التي قام بها الباحث طوال عام كامل وجد أن البث المباشر يستولي على اهتمام الناس، ويهدفون من وراء ذلك إلى زيادة عدد المتابعين والحصول على «اللايكات»(الإعجابات). كما يتسابقون في بث صور شهداء أو أسماء أشخاص قتلوا في حوادث سير من دون التأكد من أسمائهم أو من دون إبلاغ عائلاتهم أولًا.

إن نشر الأخبار الكاذبة يعود بالذعر والخوف على الجمهور مثل تهويل عدد الإصابات بفيروس كورونا أو عدد حالات الوفاة أو الخوف من الذهاب للتسوق أو الالتحاق بالمدرسة وهذا يسبب ضرر بالغ بالمجتمع.

كما تحاول بعض الصفحات تضخيم الأخبار مثل سقوط ثلوج بكميات كبيرة بهدف رفع القدرة الشرائية للمواطنين وتخزين المواد الغذائية وقد حازت هذه الفئة نسبة 7 بالمئة.

تعود هذه الشائعات على المواطنين بالخوف والذعر والحرب النفسية وتسبب استنزافًا ماديًا وضررًا صحيًا وهذا يؤدي في الحصيلة إلى ضرب النسيج المجتمعي وانتشار الشائعات والأخبار الكاذبة.

الجدول الرقم (5)
يوضح التكرارات والنسب المئوية لفئة الوسائط المستخدمة

فئة الوسائط المستخدمة	التكرار	النسبة المئوية
الأخبار	118	59
التقارير	3	1.5
الكاريكاتير	5	2.5
الأفلام	2	1
القصص	2	1
الرسوم البيانية	0	0
فيديو	25	12.5
صور	44	22
إنفوغرافيك	1	0.5
المجموع	200	100

يظهر الجدول الرقم (5) أن الأخبار حازت نسبة 59 بالمئة، بينما حازت الصور 22 بالمئة والفيديوهات 12.5 بالمئة، في حين لم يعثر الباحث على رسوم بيانية مطلقًا.

الجدول الرقم (6)
التكرارات والنسب المئوية لفئة اتجاه المضمون

فئة اتجاه المضمون	التكرار	النسبة المئوية
معلومات	36	18
تحريض	56	28
تعبوي	108	54
غير ذلك	0	0
المجموع	200	100

يلاحظ من الجدول الرقم (6) أن الطابع العام للمواد التي تنشر أخذت الصفة التعبوية وهي بنسبة 54 بالمئة، في حين كانت نسبة الطابع التحريضي 28 بالمئة، والمعلومات بنسبة 18 بالمئة.

الجدول الرقم (7)
التكرارات والنسب المئوية لفئة اللغة المستخدمة

فئة اللغة المستخدمة	التكرار	النسبة المئوية
عامية	117	58.5
الفصحى	63	31.5
الأرابيزي	1	0.5
عربي مع إنكليزي	19	9.5
المجموع	200	100

يَظهُر الجدول الرقم (7) فئة اللغة المستخدمة، أن اللهجة العامية حازت أكبر نسبة في كتابة البوستات بنسبة 5. 58 بالمئة وباللهجة الفصحى بنسبة 5. 31 بالمئة، علمًا أن الفئات المشمولة في الدراسة هي من نخبة المتعلمين والمثقفين.

من خلال الملاحظة والرصد اللذين قام بهما الباحث طوال أربعة شهور، لاحظ أن منصة الفيسبوك أدت دورًا كبيرًا في تراجع اللغة العربية في الأراضي الفلسطينية لأنها أتاحت الفرصة لجميع الناس المتعلمين والأميين في التعبير عن آرائهم وأفكارهم ومعتقداتهم، وهذا ساعد على بروز أخطاء كثيرة في اللغة العربية والكتابة باللهجة العامية تحت حجج التواصل مع أكبر عدد ممكن من شرائح وقطاعات المجتمع وعجز الفصحى عن مواكبة العلوم. فمن الأخطاء اللغوية التي رصدها الباحث في في المفردات والتراكيب (دلالة الألفاظ) مثل:

مستوطنون «يتسهار» يقتلعون أشجار زيتون في قرية بورين.

والأصح: مستوطنو مستعمرة «يتسهار» يقتلعون أشجار زيتون في قرية بورين.

كما ترتكب على الفيسبوك «مذبحة» من الأخطاء الإملائية والكتابة «بالأرابيزي» أو بتحويل الكلمات الإنكليزية إلى العربية مثل «هالو».

الجدول الرقم (8)
التكرارات والنسب المئوية لفئة مضمون الخطاب الوطني

فئة مضمون الخطاب	التكرار	النسبة المئوية
انتفاضة مسلحة	1	0.5
الدعوة للمقاومة الشعبية	19	9.5
مساندة الأسرى	25	12.5
التصدي للمستوطنين	10	5
بناء مؤسسات وطنية	3	1.5
الاستعراض ورفع الشعارات	13	6.5
عودة اللاجئين	15	7.5
تداول السلطة	8	4
التدخل في الشؤون العربية	0	0
القدس	22	11
الأمن	6	3
الدعوة للهجرة	8	4
محاربة الفساد	41	20.5
المحسوبيات والواسطات	9	4.5
الولاء الحزبي	14	7
الولاء العشائري	3	1.5
غير ذلك	3	1.5
المجموع	200	100

يُلاحظ من الجدول الرقم (8) أن ملف الفساد حاز المرتبة الأولى في مضمون الخطاب الفلسطيني بنسبة 20.5 بالمئة، في حين حازت المرتبة الثانية فئة الأسرى بنسبة 12.5 بالمئة، وفي المرتبة الثالثة فئة القدس بنسبة 11 بالمئة، وفي المرتبة الرابعة فئة المطالبة بالمقاومة الشعبية بنسبة 9.5 بالمئة، وفي المرتبة الخامسة فئة ملف عودة اللاجئين بنسبة 7.5 بالمئة وفي المرتبة السادسة الولاء الحزبي بنسبة 7 بالمئة، بينما حازت فئة الدعوة إلى انتفاضة مسلحة ما نسبته 0.5 بالمئة وهذا يُعد تغيرًا في طريقة تفكير الشعب الفلسطيني.

حاز ملف الفساد المرتبة الأولى في مضمون الخطاب الفلسطيني بنسبة 20.5 بالمئة، فيما حازت المرتبة الثانية فئة الأسرى بنسبة 12.5 بالمئة، وفئة المطالبة بالمقاومة الشعبية نسبة 9.5 بالمئة، أما القدس فقد حازت نسبة 11 بالمئة وتداوُل السلطة 4 بالمئة، وحاز ملف عودة اللاجئين نسبة 7.5 بالمئة.

حدث تحول في شكل الخطاب الوطني، إذ حازت فئة الدعوة إلى انتفاضة مسلحة ما نسبته 0.5 بالمئة وهذا يُعد تغّيرًا في طريقة تفكير الشعب الفلسطيني، كما نلاحظ أن نسبة الأصوات التي تطالب بالتدخل في الشؤون العربية صفر.

نلاحظ انتقالًا كبيرًا من الهم العام إلى الخاص، وتزايد الولاء للحزب والعشيرة بنسبة 7.5 بالمئة و1 بالمئة على التوالي.

كما أن فئة الدعوة إلى تشجيع الشباب على الهجرة بسبب الفقر والبطالة وانعدام الفرص وارتفاع تكاليف الزواج وتدنّي مستوى المعيشة حازت ما نسبته 4 بالمئة.

رابعًا: النتائج

أظهرت نتائج الدراسة أنه حصل تحول جذري في الخطاب الوطني الفلسطيني في الفيسبوك.

1 ـ حدوث تحّول في شكل الخطاب الوطني، فقد حازت فئة الدعوة إلى انتفاضة مسلحة في مضمون الخطاب الوطني ما نسبته 0.5 بالمئة، وهذا يُعد تغّيرًا كبيرًا في طريقة تفكير الشعب الفلسطيني.

2 ـ انتقل الخطاب من الدعوة إلى التخلص من الاحتلال عبر المقاومة الشعبية إلى محاربة الفساد، بينت النتائج أن ملف الفساد حاز المرتبة الأولى في مضمون الخطاب الفلسطيني بنسبة 20.5 بالمئة، بينما حازت المرتبة الثانية فئة الأسرى بنسبة 12.5 بالمئة، وفي المرتبة الثالثة فئة القدس بنسبة 11 بالمئة، وفي المرتبة الرابعة فئة المطالبة بالمقاومة الشعبية بنسبة 9.5 بالمئة، وفي المرتبة الخامسة فئة ملف عودة اللاجئين بنسبة 7.5 بالمئة، وفي المرتبة السادسة الولاء الحزبي بنسبة 7 بالمئة.

3 ـ تظهر النتائج أن 45 بالمئة من البوستات كتبها سياسيون، بنسبة 58 بالمئة ذكورًا مقابل 4.08 إناثًا. وهذا يُشير إلى الغياب الملحوظ لنشاط السياسيات الفلسطينيات على منصة الفيسبوك. ثم حاز الصحافيون ما نسبته 24.5 بالمئة، بما نسبته 16.5 بالمئة من الذكور مقابل 48.97 بالمئة للإناث، وهذا يعني وجود نشاط كبير على منصة التواصل الفيسبوك للصحافيات الفلسطينيات.

4 ـ أشارت النتائج إلى أن 54 بالمئة من المواد التي نشرت أخذت طابعًا تعبويًا، في حين كانت نسبة الطابع التحريضي 28 بالمئة، والمعلومات 18 بالمئة.

5 ـ بينت النتائج أن ما نسبته 11 بالمئة من المواد كانت موضوعية، و6 بالمئة كانت فقط حيادية.

6 ـ كشفت النتائج أن ما نسبته 4 بالمئة من الخطاب الذي ينشر على الفيسبوك يدعو الشباب إلى الهجرة إلى أوروبا.

7 ـ ترتكب «مذبحة» بحق اللغة العربية وقواعدها على الفيسبوك، فنسبة ما يُكتب باللهجة العامية بلغت 58.5 بالمئة، مقابل 31.5 بالمئة باللهجة الفصحى.

8 ـ بينت النتائج أن نسبة المواد السياسية بلغت 50.5 بالمئة، وقد كتب معظمها في الضفة الغربية بنسبة 83 بالمئة.

9 ـ أدى الخطاب الوطني على منصة الفيسبوك دورًا في انتشار خطاب الكراهية بين الشعب الفلسطيني.

خامسًا: التوصيات والمقترحات

بناءً على النتائج الذي توصل إليها الباحث، فإنني أوصي بما يلي:

1 ـ دعوة السياسيين ومؤسسات المجتمع المدني إلى وقف خطاب الكراهية على منصات التواصل الاجتماعي والقيام بحملات رقمية للحدّ من خطاب الكراهية.

2 ـ توظيف مساق التربية الإعلامية في المؤسسات التعليمية لتعليم الطلاب وتدريبهم على التعامل مع محتوى الإعلام في الانتقاء وتجنب الآثار السلبية والتصدي للقيم السلبية.

3 ـ تفعيل الأطر القانونية وسن التشريعات والأدلة الإجرائية لمكافحة التطرف وعدم احترام السلم الأهلي.

4 ـ القيام بندوات وفعاليات من جانب نقابة الصحافيين لمنع انتهاك الخصوصيات والتهديد ونشر الشائعات وتضليل الرأي العام، بل ونشر قواعد السلوك ومواثيق الشرف الإعلامي.

5 ـ إلزامية التعليم باللغة العربية وتشجيع المواطنين على الكتابة السليمة على منصات التواصل الاجتماعي وتخصيص يوم لمكافحة أمية الإنترنت.

6 ـ تشجيع المواطنين وتثقيفهم بدور منصات التواصل.

7 ـ دعوة الباحثين والمختصين إلى القيام بدراسات وأبحاث علمية حول الخطاب الوطني الفلسطيني أو لتناول أحد محاوره.

8 ـ دعوة المختصين إلى دعم محتوى وسائط الإعلام الجماهيري.

9 ـ القيام بندوات ومؤتمرات وحملات إعلامية مكثفة في المجتمعات الافتراضية لمحاربة الدعوات التي تشجع الشباب على الهجرة إلى أوروبا □

أزمة أمننة المناخ في العالم العربي
دراسة نقدية للنظرية الليبرالية

الحسين شكراني(*)

أستاذ القانون الدولي والعلاقات الدولية، جامعة القاضي عياض، ومدير الكتاب العربي للقانون الدولي.

خالد القضاوي(**)

أستاذ العلاقات الدولية والقانون الدولي، جامعة محمد الأول، وجدة ـ المغرب.

تراكمت الدّراسات التي تربط بين التّحولات المناخية والأمن في الأعمال البحثية ومثّلت قوة نظرية مهمة ساهمت في تطوير الكثير من الممارسات الدولية المرتبطة بالتّحولات المناخية وتداعياتها وتأثيراتها الأمنية، وتعزّزت بنحت مفاهيم جديدة كـ«تخضير الجيوش» (Greening the Military) الوطنية من أجل التدخل في حال وجود مخاطر شديدة التطرف نتيجة التقلبات المناخية الفجائية وما يستتبع ذلك من فراغ وشلل في المؤسسات الوطنية وعدم القدرة على بناء السلم أثناء الأزمات (التأقلم والصمود للمجتمعات المحلية).

بدأ العالم يستشعر خُطورة التّحولات المناخية على الأمن القومي للدول والشعوب، مثال ذلك مُناقشة مجلس الأمن الدولي لتداعيات تغيّر المناخ على الأمن والسلم الدوليين أعوام 2007 و2011 و2013 و2018 و2019 و2021[1]، وعُدّت التحولات المناخية تهديدًا خطيرًا لقضايا الأمن والسلم الدوليين. مع وجود ثلاثة توجهات كبرى تختلف حول إمكان: **أولًا**، عَدّ مجلس الأمن الجهاز المختص بموضوع التغيرات المناخية في علاقته بالأمن؛ و**ثانيًا**، من يعتقد أن ميثاق الأمم المتحدة وأجهزتها تقدم فقط اللوائح التنظيمية والقواعد غير الملزمة؛ و**ثالثًا**، تأكيد أهمية مجلس الأمن في الالتزام في شأن التغيرات المناخية.

(*) البريد الإلكتروني: chougranielhoucine1@gmail.com

(**) البريد الإلكتروني: elkadaouikhalid@gmail.com

(1) Security Council Report, «The UN Security Council and Climate Change,» Research Report, (https://www.securitycouncilreport.org/atf/cf/%7B65BFCF9B-6D27-4E9C-8CD3-CF6E4FF96FF9%7D/climate_security_2021.pdfaccessed 26 October 2021).

ومع تزايد مخاطر التّقلبات المناخية، بحث تقرير الأمين العام للأمم المتحدة الذائع الصيت التداعيات الأمنية المحتملة لتغير المناخ سنة 2009 (الجمعية العامة للأمم المتحدة 2009[2]). وعلى المستوى الإقليمي، بتاريخ 22 حزيران/يونيو 2018، أكّدت الممثلة السّامية للاتحاد الأوروبي في الشؤون الخارجية والسياسة الأمنية فيديريكا موغيريني (Federica Mogherini) أن «اهتمام الاتحاد الأوروبي بقضايا التغيرات المناخية هو استثمار في الأمن الخاص بالقارة الأوروبية»[3].

أصبحت جيوش الدول الصناعية المتقدمة تتهيأ لمواجهة المخاطر المرتبطة بالتحولات المناخية مثل ما تنص عليه وثيقة استراتيجية الأمن القومي الأمريكي التي وقعها الرئيس الأمريكي السابق باراك أوباما في سنة 2010، إذ خصصت، للمرة الأولى، جزءًا من الوثيقة الاستراتيجية للانعكاسات العسكرية للتّحول المناخي.

من خلال هذه المقالة سنحاول تفكيك مفهوم وتطبيقات الكابيتالوسين الغربي ومدى وجود ارتباط بأزمة أمننة المناخ في الوطن العربي، مع التركيز على تقديم منظور نقدي عربي للنظرية الليبرالية. لذا سيتم النظر في التداعيات الأمنية للتحولات المناخية؛ ومن ثم نقد السياسات الليبرالية المناهضة لحماية المشترك البيئي من أجل الإسهام ـ قدر المستطاع ـ في بناء مقاربة عربية تستشعر حتمية حماية الحقوق البيئية المشتركة. وسنتناول هذه العناصر الجوهرية بالتحليل والنقد انطلاقًا من منظور عرض الأسس الليبرالية للكابيتالوسين الغربي وعلاقته بمخاطر أزمة أمننة المناخ في الوطن العربي، وتقديم أطروحة مُغايرة لحماية المشترك البيئي.

أولًا: التّداعيات الأمنية للتّحولات المناخية في الوطن العربي في عصر الكابيتالوسين

أصبحت جيوش الدول الصناعية المتقدمة تتهيأ لمواجهة المخاطر المرتبطة بالتحولات المناخية مثل ما تنص عليه وثيقة استراتيجية الأمن القومي الأمريكي التي وقعها الرئيس الأمريكي السابق باراك أوباما في سنة 2010، إذ خصصت، للمرة الأولى، جزءًا من الوثيقة الاستراتيجية للانعكاسات العسكرية للتّحول المناخي. فبسبب تأثير التغير المناخي في البيئة وفي المجتمعات المحلية،

(2) تغير المناخ وتداعياته المحتملة على الأمن. تقرير الأمين العام للأمم المتحدة الصادر 2009 ـ الدورة الرابعة والستون، البند 114 من جدول الأعمال المؤقت، متابعة نتائج مؤتمر قمة الألفية. انظر موقع الأمم المتحدة على الرابط: <https://bit.ly/3WK53pT> (تاريخ الزيارة 25 تشرين الأول/أكتوبر 2021).

(3) «High Level Event Climate, Peace and Security: The Time for Action Friday, 22 June 2018, 9.00-13.00 Palais d'Egmont, Place du Petit Sablon 8, 1000 Bruxelles,» <https://www.eeas.europa.eu/node/46837_en > (accessed 24 October 2021).

تُوصي استراتيجية الأمن القومي الأمريكي بإدماج التحولات المناخية في الحسابات الاستراتيجية القومية/الوطنية. وأردفت الاستراتيجية المذكورة أن تحديات التّحولات المناخية والأمراض الوبائية وشُحّ الموارد يتطلب القيام بابتكارات جديدة[4].

تسجَّل التّداعيات الأمنية للتّحولات المناخية ضمن منظور الأنثروبوسين الذي يجد قوته، بحسب دال جاميزون وجوناثان شالييه[5] في التّناقض التالي: لم يكن للإنسان أبدًا سُلطة من أجل تكوين الطبيعة بفضل التقنية التي يتوافر عليها، لكن الإنسان فقد ماجريات متابعة تحوّلات الطّبيعة، ولذلك يمكن أن يكون الإنسان شاهدًا على الكارثة الطّبيعية التي وَلّدها من دون أن يملك القُدرة على تفاديها.

وفي بعض مجالات السياسات[6]، مثل السياسات الاجتماعية وحتى التغيّرات المناخية، تكون معرفة العلاقات السّببية والتّفاعلات المُعَقَّدة بين المُتغيرات ضعيفة إلى درجة اعتماد صنّاع القرار على التجريب على نحو أساسي ومحوري. ورغم أن تجاربهم قائمة على النيات الحسنة، وربما تستند إلى بعض الأدلة كما نأمل، فهي تبقى تجارب. إن الأنثروبوسين[7] هو قبل أي شيء طريقة لتحديد نوعية ومستويات المسؤوليات التي تقع على العنصر البشري تُجَاه الطّبيعة وتكلفتها على الأجيال المقبلة، وتغيير السّلوكيات الفردية والجماعية التي تستلزمها تلك المسؤوليات. فالتّفكير والعمل في شأن الأنثروبوسين يَستلزم العيش بطريقة مُختلفة على هذه الأرض.

تحول العالم الغربي[8] المصنِّع إلى منطقة متميزة في التصنيع والتحول التكنولوجي منذ الثورة الصناعية الأولى (1750) بفضل تطوير التّصنيع والتقنية وتطويع الطبيعة لأغراض الرفاهية الغربية الموعودة من جانب النظرية الليبرالية[9] من جهة أولى، وعلاقة بالموضوع تعرّض الوطن

---

(4) *National Security Strategy* (Washington, DC: The White House, 2010), p. 30.

(5) Dale Jamieson and Jonathan Chalier, «Respecter la nature, » *Esprit*, vol. 12, no. 420, (décembre 2015), p. 26.

(6) غاي بيترز، «دراسات السياسات العامة: الأسس الأكاديمية والأهمية العملية،» **سياسات عربية**، العدد 42 (كانون الثاني/يناير 2020)، ص 27.

(7) Jonathan Chalier and Lucile Schmid, «Comment penser l'anthropocène?,» *Esprit*, vol. 12, no. 420, (décembre 2015), p. 5.

(8) نقصد بمفهوم العالم الغربي في هذه الدراسة الولايات المتحدة الأمريكية والدول الأوروبية فقط من أجل تحديد مسؤولية هذه الدول الصناعية عن الأنتروبوسين. ولضرورات منهجية لن نهتم بتحديد مسؤولية الدول الآسيوية أو دول أمريكا اللاتينية أو الدول الأفريقية (مع التأكيد أن بعض الدول العربية تتموقع في القارة الأفريقية)، ونقصد بالوطن العربي الدول المغاربية ودول المشرق العربي.

(9) على المستوى الدولي، برز ضمن النظرية الليبرالية ثلاثة تيارات أساسية: التيار **الأول**، يركز على التجارة وتأثيراتها في العلاقات الدولية، فانتشار الليبرالية وعلاقات السوق يؤديان إلى الاعتماد المتبادل الاقتصادي والمنافع المتبادلة وتقاسم الفوائد وتعزيز التعاون الدولي؛ التيار **الثاني**، يركز على الدول الديمقراطية وتفاعلاتها؛ فإرساء السياسات الديمقراطية يُقَوّي التوجه نحو الانتماء إلى الديمقراطيات الأخرى وبناء العلاقات السلمية؛ التيار **الثالث**، يركز على التأثيرات السلمية للقانون والمؤسسات؛ فهذه النظرة الليبرالية المؤسّسية تعزّز تطور المجتمعات الليبرالية، وتهدف إلى وضع القواعد الأساسية للعلاقات فيما بينها. انظر: Joseph Grieco, G. John, Ikenberry and Michael Mastanduno, *Introduction to International Relations: Enduring Questions and Contemporary Perspectives* (New York: Macmillan Palgrave, 2015), pp. 79 and 86.

العربي إلى استعمار وهجمة شرسة من العالم الغربي الذي استنزف مخزونه من الموارد الطبيعية من جهة ثانية.

دمّر الأنثروبوسين[10]، وبعد ذلك الكابيتالوسين الغربي، النظم الإيكولوجية (انظر: **الأوقات الصعبة** لتشارلز ديكنز)[11] العالمية، وبعد قرون من التّدمير الممنهج أصبح العالم يعيش مرحلة مجتمع المخاطر[12]، إذ لم تنعكس فوائد التصنيع المذهلة على الجميع بقدر ما أضرّت بالدول النامية (الاستعمار البيئي الإمبريالي) في حين استفادت الدول الصناعية من السبق الصناعي، وأُنشئت بنى تحتية قادرة إلى حدّ ما على حماية الساكنة المحلية من تداعيات التغير المناخي وتمكينها من الصمود إضافة إلى توفير أسس للتكيف والتأقلم مع التداعيات السلبية للتغيرات المناخية. فقد تحوَّل المجتمع الصناعي إلى مجتمع كابيتالوسيني بامتياز، أي مجتمع ذي قوة تدميرية هائلة ومرعبة قادرة على تدمير الأرض والنباتات والوحيش. وساهمت عنجهية السوق (مايكل ساندال) في إخضاع الطبيعة لآليات هذه السوق (العرض والطلب) وتسعير الموارد الطبيعية، ولم يعد بمقدور النظرية الليبرالية شرح شروط بقاء البشرية في قيد الحياة. فالتنافس بين الدول والشركات المتعددة الجنسيات أدى إلى تدمير الموارد الطبيعية وبالتالي غياب التوازن البيئي وتطبيق مبادئ وأسس الاستدامة للأجيال الحالية والمقبلة معًا. وأصبح موضوع أمننة المناخ قضية كونية بالغة التعقيد (والتّعقد) من أجل ضمان العيش والبقاء في قيد الحياة.

تحول المجتمع الصناعي إلى مجتمع كابيتالوسيني بامتياز، أي مجتمع ذي قوة تدميرية هائلة ومرعبة قادرة على تدمير الأرض والنباتات والوحيش. وساهمت عنجهية السوق (مايكل ساندال) في إخضاع الطبيعة لآليات هذه السوق (العرض والطلب) وتسعير الموارد الطبيعية، ولم يعد بمقدور النظرية الليبرالية شرح شروط بقاء البشرية في قيد الحياة.

فالدول مثلًا لا تستطيع لوحدها مواجهة التغيُّرات المناخية، فمنطق أمننة التغير المناخي يرتبط بمختلف الفاعلين الدوليين والفاعلين من غير الدول، وهو ما يؤدي إلى تجاوز النظرية الليبرالية في شأن تعزيز الليبرالية على المستوى الكوني (القانون والديمقراطية).

---

(10) يرى خبراء المناخ أننا نعيش في عصر يتصف باستعمال الإنسان استعمالًا مفرطًا للطّاقات الأحفورية بصيغة جماعية وتزامن ذلك مع قوة جيوفيزيائية تُحَدّد مسار المناخ في مجمله. وأكّد بعض العلماء أننا دخلنا في مرحلة جيولوجية جديدة متميزة بأهمية متزايدة لآثار الأفعال البشرية على الصعيد العالمي.

وقد صيغ مفهوم الأنثروبوسين (Anthropocene) في عام 2000 من جانب العالم بول كروتزن (Paul Crutzen) الفائز بجائزة نوبل، الذي يصف أحدث حقبة في تاريخ الأرض، بدءًا من القرن الثامن عشر، حينما بدأت الأنشطة البشرية لأول مرة في إحداث تأثير عالمي معتبر في مُناخ الأرض وفي الأنظمة الإيكولوجية. انظر: Catherine Larrère, «Anthropocène: Le Nouveau grand récit,» *Esprit*, vol. 12, no. 42 (décembre 2015), p. 46.

(11) Charles Dickens, *Hard Times* (1884).

(12) Ulrich Beck, *Risk Society: Towards a New Modernity* (London: Sage Publications, 1992).

فتدبير وإدارة المعضلة المناخية يتجاوز حتمًا الحدود الوطنية وبقاء الدولة بل يجب التعامل مع موضوع أمننة المناخ كأساس مرجعي في السياسات العليا. فما يُحدد السّلوك السياسي ليس الاعتماد المتبادل وتحرير التجارة الدولية كما ترى النظرية الليبرالية، إذ يجب الأخذ في الحسبان أمننة المناخ وتأمين الأمن الغذائي والصحي والإنساني للمجتمعات البشرية ولا سيَّما في الوطن العربي (كحالة دراسة). ولا يمكن فهم هذه الظواهر إلا بمنطق توسيع التنظير في مستويات الأمن ودرجة الإسهام في تعميق المعضلة البيئية في سياقاتها التاريخية وبالتالي النظر في المعضلة المناخية بمعنى أوضح، أي تطبيق المسؤولية التاريخية للدول الصناعية في مقابل المسؤولية المشتركة لجميع الفاعلين، وقد يكون الحل هو المسؤولية المشتركة لكن المتباينة؛ لكن إدماج مفاهيم جديدة في المعادلة، كالإنصاف ما بين الأجيال، قد يكون ضروريًا لمقاربة جيلية عربية تتجاوز مفاهيم النّظرية الليبرالية وأسسها التي تركز على سعي الأفراد إلى التّعاون وضمان الدولة لمصالح الأفراد مع تعزيز التجارة الدولية.

يشهد الوطن العربي موجات شديدة/متطرفة من الفيضانات والتصحر والجفاف ونقص التنوع البيولوجي ونقص الغذاء من جهة أولى؛ ومن المنتظر أن يشهد الوطن العربي تداعيات مناخية لا مثيل لها في مناطق أخرى من العالم من جهة ثانية.

يعمل الكابيتالوسين (ولا سيَّما مع تيار المحافظين الجدد) على نفي وجود علاقة بين التغيرات المناخية والنشاط البشري من أجل الاستغلال المفرط للطاقات الأحفورية؛ لكن في المنتظم الدولي، ولا سيَّما الاتفاقية الإطار للتغير المناخي (UNCFFF, 1992) في ديباجتها، ولا سيما المادة الأولى/الفقرة الثانية؛ و«ميثاق» الهيئة ما بين الحكومية المعنية بالتغير المناخي (IPCC, 1994) تم التشديد على «محورية النشاط البشري» في زيادة غازات الدفيئة والاحتباس الحراري. مع إمكان اقتراح بدائل في ظل التأثير الكبير لتداعيات التغير المناخي في الوطن العربي واستخدام مفاهيم وقراءات (جديدة) قادرة على فهم السلوك الكابيتالوسيني، وبالتالي خلخلة المفاهيم والقراءات السائدة حول المسؤولية المناخية المشتركة. فالاستدامة والإنصاف ما بين الأجيال والإنصاف ما بين الجيل نفسه (إديث براون ويس) وإعادة «تأهيل» الأطّروحات العربية في المفاوضات المناخية العالمية... إلخ، هي عناصر قد تكون مفيدة من أجل منظور عربي يسعى إلى تجاوز مفاهيم النظرية الليبرالية وبناء منظومة قد تساعد على الخروج من المأزق وتحديات أمننة المناخ.

يشهد الوطن العربي موجات شديدة/متطرفة من الفيضانات والتصحر والجفاف ونقص التنوع البيولوجي ونقص الغذاء من جهة أولى؛ ومن المنتظر أن يشهد الوطن العربي تداعيات مناخية لا مثيل لها في مناطق أخرى من العالم من جهة ثانية. بمعنى آخر، لا يشارك الوطن العربي في إنتاج غازات الدفيئة إلاّ بنسب لا تتجاوز 5 في المائة، لكنه يمثل المنطقة الأكثر تضررًا من تداعيات الاحتباس الحراري. ويظل الوطن العربي مصدر الكثير من الطّاقات الأحفورية (كالبترول والفحم) على المستوى العالمي التي تساهم في الإضرار بطبقة الأوزون. وهي مُفارقة تخدم أقلية قليلة في

الوطن العربي، بينما تزداد التّفاوتات الاجتماعية بين مُختلف شرائح المجتمع العربي نتيجة هيمنة اقتصاديات الريع، وهو ما يُثير قضايا الإنصاف والعدالة البيئية (أو الإيكولوجية)[13] وتداخل قضايا المخاطر البيئية والقضايا المجتمعية الآنية والمستقبلية (الاستدامة المجتمعية للأجيال المقبلة).

قد يكون لمبدأ التفكير الأخلاقي عبر مبدأ المسؤولية (مشروع هانز جوناس)[14] الدور في تلمُّس حاجتنا إلى مواجهة التغير المناخي وتداعياته البيئية في الوطن العربي. لاحظ ساندل[15] بدوره أن تسليع أنشطة تقع في صميم الواجبات الأخلاقية التي يتعيّن الالتزام بها في المجتمعات الوطنية والمجتمع الدولي على حدّ سواء، وهي المتعلقة بالمحافظة على البيئة، يبخس القيمة الأخلاقية للمحافظة على البيئة، بدلًا من أن يقوّيها، ويقع ضمن التّردي الأخلاقي الذي أدت إليه عنجهية السوق. وهكذا تظهر أهمية تجاوز النظرية الليبرالية الداعمة لتعزيز التفاوتات المجتمعية.

إن براديغم مجتمع المخاطر[16] يتحدى بدوره النظرية الليبرالية ما دام يفرض علينا جميعًا التزامات ربما لا نكون في مستوى رهاناتها وتحدياتها. فكيف يمكن أن نُزيل المخاطر التي ساهم فيها غيرنا (الكابيتالوسين)؟ فالمخاطر التي أنتجتها الحداثة مخاطر لا رجعة فيها على حياة النباتات والوحيش ورفاهية الإنسان نفسه. فهل نشهد الانتقال من الصّراع على توزيع الثّروة (بين الأقلية) إلى مجتمع توزيع المخاطر العالمية؟

ثانيًا: دراسة تفكيكية نقدية للسياسات الليبرالية المُتوحشة المناهضة لحماية المشترَك البيئي

سنحاول النّظر في أسس نقد الكابيتالوسين الغربي وبالتالي تفكيك منظور النظرية الليبرالية (ونسختها الجديدة النيوليبرالية)[17] التي تسعى إلى تعزيز النمو اللامتناهي للاقتصادات الصناعية،

---

(13) تتميز العدالة الإيكولوجية إلى حد ما عن العدالة البيئية، كون الأولى تزيد على الثانية بالرؤية العلمية والنّسقية لما هو بيئي، أما العدالة البيئية فتتضمن كل ما يحيط ببيئة الإنسان، سواء كان طبيعيًا أو غير طبيعي، وما يتعلق بذلك من حماية بشرية وطبيعية شاملة؛ لذلك تعارض العدالة الإيكولوجية هدم الإنسان للكون والطبيعة، والإفراط في ممارسة السلطة الاقتصادية والسياسية على نحو يؤدي إلى تحميل الفقراء نتائج العواقب البيئية. انظر: محمد فاوبار، «التربية البيئية على ضوء العدالة الإيكولوجية.. مقاربة سوسيولوجية،» **عالم الفكر**، العدد 180 (تشرين الأول/أكتوبر ـ كانون الأول/ديسمبر 2019)، ص 140.

(14) Hans Jonas, *Le Principe responsabilité: Une éthique pour la civilisation technologique*, trad. Jean Greish (Paris: Les Editions du Cerf, 1990).

(15) طاهر حمدي كنعان، «الفضاءات الثّلاثة في دولة الإنتاج،» **عمران للعلوم الاجتماعية والإنسانية**، السنة 1، العدد 1 (صيف 2012)، ص 68.

(16) Ulrich Beck Beck, *Risk Society: Towards a New Modernity.*

(17) توجد اختلافات بين الليبرالية والنيوليبرالية، لكنها اختلافات غير حاسمة، فمجمل القول أن الفرد (وإلى حدّ ما المجموعات ذات المصالح) هو الفاعل الأساسي (دعه يعمل دعه يمر) وما يحرك الفاعل هو المصلحة الاقتصادية والسياسية، لذا يبدو أساسيًا ضمان تلك المصالح. كما يسعى الأفراد إلى تعزيز التّعاون (وقد يكون أحيانًا التعاون/التنافس). وتتمثل أسس السلم والاستقرار الدوليين في تعزيز الليبرالية على المستوى الكوني (القانون والديمقراطية) والاعتماد المتبادل/الاندماج. ولعلّ الهدف الأساسي هو تحقيق دولة عالمية ديمقراطية، وترسيخ الاندماج والتعاون الدوليين. انظر: Diane Éthier, *Introduction aux relations internationales* (Montréal: Les Presses de l'Université de Montréal, 2010), pp. 32-38 (adapted).

والتركيز على مخاطر أمننة (Securitization) المناخ في الوطن العربي («ضحية» التحولات التي أحدثتها أوليغارشية الأنثروبوسين Oliganthropocene)، لكن بتقديم منظور نقدي عربي للنظرية الليبرالية في هذا المجال مع محاولة الانفكاك عن هذه النظرية في شأن أمننة المُناخ في المنطقة العربية.

الرأسمالية منذ الثورة الصناعية الأولى هي وحدها من هدّدت ولا تزال تهدد إمكانيات وفرص البقاء على وجه الكرة الأرضية. كما ساهمت عنجهية السوق في إخضاع الطبيعة لآليات هذه السوق (اليد الخفية لآدم سميث) وتسعير الموارد الطبيعية بمباركة من النظرية الليبرالية.

فضاء الإنتاج الاقتصادي الرّأسمالي هو «فضاء لا محدود، فضاء بلا مكان، بمعنى أنه يدفع حدوده بصورة دائمة، إنه فضاء لانهائي من القفز إلى الأمام ومن دون توقّف... إن ما يميّز الغرب هو الرأسمالية – بوجهيها الليبرالي أو رأسمالية الدولة كما في بلدان أوروبا الشّرقية (سابقًا) ـ كاستحالة للتوقف والبقاء ضمن حدود وكعبور إلى ما بعد كل حدّ، إنها الرأسمالية كنمط إنتاج ليس أمامه مستحيل[18].

يُشير إينياس رامونيه (Ignace Ramonet)[19] إلى أن الأشخاص الثلاثة الأكثر غنى في العالم (في نهاية القرن السّابق)، يملكون ثروة تفوق مجموع النّاتج القومي الصّافي، للدول الثماني والأربعين الأكثر فقرًا، أي رُبُع مجموع دُوَل العَالم.

وبحسب الكثير من الدّراسات والاستشرافات المناخية أصبح المستقبل البشري في خطر داهم نتيجة أنماط وسياسات الإنتاج والاستهلاك (غير المستدامة) التي أصبحت لا تهتم إلا بالرّبح المادي فقط من دون مُراعاة قيمة الموارد المحدودة للكرة الأرضية وقدرة الغلاف الجوي على تحمّل نِسَب المُلوثات الغازية... إنها مرحلة الكابيتالوسين (The Capitalocene)؛ أي الرأسمالية الجيولوجية المُدمرة والمرعبة للكوكب على نحوٍ لافت للنظر بفعل تداعيات التصنيع والتكنولوجيا والمعاناة الإنسانية الكبيرة منذ ما يعرف بالثّورة الصناعية الأولى لعام 1750[20]. فالرأسمالية منذ الثورة الصناعية الأولى هي وحدها من هدّدت ولا تزال تهدد إمكانيات وفرص البقاء على وجه الكرة الأرضية. كما ساهمت عنجهية السوق[21] في إخضاع الطبيعة لآليات هذه السوق (اليد الخفية لآدم سميث) وتسعير الموارد الطبيعية بمباركة من النظرية الليبرالية.

---

(18) بيار كلاستر، «أبحاث في الإنتروبولوجيا السياسية،» مراجعة مروان أبي سمرا، **الفكر العربي**، العددان 35ـ36 (أيلول/سبتمبر ـ كانون الأول/ديسمبر 1983)، ص 165.

(19) جليانا تراك المقدسي، «مشكلات الجوع في العقود الأخيرة: تحليل أزمة الغذاء 2008.. ماذا بعد 2008؟،» **عالم الفكر**، السنة 42، العدد 4 (نيسان/أبريل ـ حزيران/يونيو 2014)، ص 85.

(20) Elhoucine Chougrani, «The Capitalocene and the Human Great Suffering,» *Arab Journal of International Law*, Special Issue (March 2021).

(21) Michael Sandel, *What Money Can't Buy: The Moral Limits of Markets* (New York: Farrar, Straus and Giroux, 2012).

للدول الغربية إذًا[22] قدرة بلا حدود لممارسة الأثنوسيد (Ethnocide) (أي تهديم المتعدّد وإذابته في الواحد). لهذا فهي تقود إلى الإبادة، وفي استطاعتها أن تتكلم على العالم الغربي كعالم «أثنوسيدي» بالمعنى المطلق. وبحسب دانييل كوهين[23] إننا نعيش عصر الانفجار العظيم الثالث، الذي لا وصف له أفضل ممّا وصفه به بول كروتز (1933)، الحائز جائزة نوبل في الكيمياء، وذلك حينما وصفه بـ «الأنثروبوسين»، بحيث يتميز بالانتقال من العالم الذي تسيطر عليه الطبيعة إلى عالم يسيطر عليه الإنسان. ويوضح أحد الإحصاءات التي تُشير إلى معنى هذا المصطلح أنه في الزمن الذي تم فيه تطوير الفلاحة، مثّل الإنسان وقطعانه وباقي الحيوانات الأليفة أقل من 0.1 في المئة من كل الثدييات في الأرض، أما الآن فأصبحت نسبة الإنسان مع تلك الكائنات تمثّل أكثر من 90 بالمئة. ويُصرّ بعض الكُتاب على أن إجراء تغيير في الاصطلاح رُبّما يُتيح القُدرة على الإمساك بتلك الاختلافات على نحو أفضل؛ لذلك نال مصطلح Capitalocene (حقبة الرأسمالية الجيولوجية) استحسانًا خاصًّا من علماء الاجتماع؛ لأنه يشير إلى الكيفية التي أفرزت بها اللامساواة العالمية واعتماد الرأسمالية على طبيعة «رخيصة» المأزق الرّاهن.

البطالة وارتفاع أثمان المواد الغذائية لم يكونا نتيجة للظّروف الاحتكاكية التي ولّدتها طبيعة مرحلة الانتقال من النظام الاقطاعي إلى النّظام الرأسمالي فحسب، بل كانا أيضًا نتيجة حتمية لطبيعة التغيُّرات التي طرأت على الزراعة بعد تحوّلها إلى نمط رأسمالي للإنتاج.

لم يكن تزايد[24] البطالة وارتفاع أثمان المواد الغذائية نتيجة للظّروف الاحتكاكية التي ولّدتها طبيعة مرحلة الانتقال من النظام الاقطاعي إلى النّظام الرأسمالي فحسب، بل كانا أيضًا نتيجة حتمية لطبيعة التغيرات التي طرأت على الزراعة بعد تحوّلها إلى نمط رأسمالي للإنتاج.

وقد أكد الرئيس الأمريكي الأسبق جورج بوش الأب في ريو دي جانيرو عام 1992 أنّ «نمط العيش الأمريكي لا يقبل التفاوض» (The American Way of Life is not up for Negotiations) وفي 28 آذار/مارس 2001 صرح جورج بوش الابن[25] أن الولايات المتحدة الأمريكية لن تُطبّق برتوكول كيوتو للتغير المناخي، فالولايات المتحدة لن تُوقع الاتفاق الذي يُؤذي اقتصادها وعمالها.

---

(22) كلاستر، «أبحاث في الإنتروبولوجيا السياسية،» ص 165.

(23) عثمان عثمانية، «قراءة في كتاب: «الرغبة اللامتناهية في النمو»،» **عمران للعلوم الاجتماعية**، السنة 8، العدد 32 (ربيع 2020)، ص 209ـ208.

(24) رمزي زكي، **المشكلة السكانية وخرافة المالتوسية الجديدة**، عالم المعرفة؛ 84 (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1984)، ص 23.

(25) Charli Coon, «Why President Bush Is Right to Abandon the Kyoto Protocol,» The Heritage Foundation, 11 May 2001, <https://herit.ag/2Q3M3iu> (accessed 14 May 2020).

وقد أصبحت الولايات المتحدة الأمريكية في بداية سنوات القرن الحادي والعشرين[26]، أكبر منتج وأكبر مستهلك وأكبر مستورد للطاقة في العالم. وفي عام 2002، بات 39 بالمئة من الاستهلاك الطاقي للولايات المتحدة الأمريكية مصدره البترول وَ 24 بالمئة من الغاز و23 بالمئة من الفحم.

تستورد الولايات المتحدة الأمريكية[27] البترول والغاز، وهو ما يفسّر في المجمل اهتمامها بالشرق الأوسط، بينما تنتج الفحم بكمية تفوق نسبة استهلاكها منه. وبذلك تتوافر الولايات المتحدة الأمريكية على مخزون كبير من الفحم في العالم. وكباقي الدول (ألمانيا وبولونيا والصين) فإن الفحم هو عامل للاستقلال الطاقي ومنتج لفرص الشغل على المستوى المحلي. وهو ما سماه سافاكول (Savacool) العقدة الأمريكية بشأن الطّاقة القذرة.

أصبحت المجتمعات الحديثة «مصانع للخطر»، فهي تُنتج أخطاراً من الممكن أن تدمّر الحياة على الأرض، وهذه المخاطر أصبحت عالمية وشاملة وغير متحكم فيها. وكل هذا أنتج لنا مجتمعات يطبعها الخوف حول مصير الإنسان.

لقد أفضت نتائج التطور الصناعي في الغرب[28]، وفي العالم، إلى المَسّ بالتّوازن البيئي، وإلى إلحاق الضّرر بالحياة البشرية على الكون، واقترن ذلك بظهور تفكير سوسيولوجي ينتقد الحداثة الحالية وسلبياتها، ويدعو إلى حداثة أخرى تؤسس لحضارة غير استهلاكية تصالحية مع البيئة. تجلى ذلك في سوسيولوجيا أولريش بيك التي أكدت الانتقال في المجتمع المعاصر من حالة الصراع على الثّروات والامتيازات إلى حالة مواجهة المخاطر الناتجة من التدهور البيئي. وبذلك نَعَتَ بيك المجتمع الرّاهن بمجتمع المخاطر، هذه المخاطر التي تتخذ – بصورة متزايدة ـ طابعًا كونيًا. وأصبح المجتمع الحالي يُؤَلّف بين الأوضاع الاجتماعية والصّراعات المتعلقة بتوزيع الثّروات وتلك المتعلقة بتوزيع المخاطر.

أصبحت المجتمعات الحديثة[29] «مصانع للخطر»، فهي تُنتج أخطارًا من الممكن أن تدمّر الحياة على الأرض، وهذه المخاطر أصبحت عالمية وشاملة وغير متحكم فيها. وكل هذا أنتج لنا مجتمعات يطبعها الخوف حول مصير الإنسان. وبالتالي فالصراعات الاجتماعية المعاصرة أصبحت مرتبطة بهذه المخاطر التي لا يمكن حلّها في إطار المؤسسات الرأسمالية، لأن مؤسساتها لم تقطع مع منطق خلق المنافع غير القابلة للإشباع.

---

(26) Stefan C. Aykut et Amy Dahan, *Gouverner le climat? 20 ans de négociations internationales* (Paris: Ed. Sciences Po Les presses, 2014) p. 190.

(27) Ibid., pp.190-191.

(28) فاوبار، «التربية البيئية على ضوء العدالة الإيكولوجية.. مقاربة سوسيولوجية،» ص 137.

(29) زياني أبو القاسم، «سوسيولوجيا البيئة: التشكل والتطور،» في: مجموعة من المؤلفين، **الإنسان والبيئة: مقاربات فكرية واجتماعية واقتصادية**، إشراف وتنسيق شكراني الحسين وعبد الرحيم خالص (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2017)، ص 152.

يحمل مفهوم المخاطرة[30] عند بيك أهمية كبرى، فهو يعتقد أننا نعيش حاليًا، من خلال الموت البطيء للمجتمع الصناعي ظهور؛ نوعًا جديدًا لمجتمع المخاطر الذي يصبح فيه الوعي بالمخاطر وتجنبها معالم مركزية وتبرز في القضايا البيئية إلى الواجهة.

القضية الجوهرية عند بيك[31] هي التوصل إلى تضامن عالمي يرتكز على تحليل دقيق للأزمة الإيكولوجية والاجتماعية الذي تمثله التغيرات المناخية. ففي غياب التعاون ستتأثر حتى الدول والشّعوب الغنية. ويمكن الخطر الكوني للتغير المناخي أن يحمل بذورًا لظهور قوى اجتماعية قد تتمكن من مواجهته؛ أما دور العلوم الاجتماعية فهو فتح نقاش لتوضيح أن «السياسات المناخية» لا تتعلق فقط بالمناخ لكن تهم بالأساس تغيير مؤسسات الحداثة (الدولة- الأمة، النمو الاقتصادي، المخاطر البيئية... إلخ). أما وظيفة الإعلام ومختلف الفاعلين الاجتماعيين المهتمين بقضية المناخ فهي وظيفة أساسية ما دام هؤلاء لهم سلطة خلق «الأحداث العالمية» كمؤتمر كوبنهاغن، أو إصدار التقرير الرابع للهيئة الأممية ما بين الحكومية المعنية بالمناخ (IPCC).

تفرض التّغيرات المناخية[32] نفسها كبراديغم لظهور مُجتمع المخاطر العالمية (بيك) أو كبداية لما يُسَمّيه بعض العلماء الأنثروبوسيين، أي مرحلة الحقبة الجيولوجية الجديدة عبر تحول الإنسان إلى قوة جيولوجية في حدّ ذاته؛ وبالنسبة إلى بعض الباحثين والتيارات البيئية فلا يمكن مواجهة التغيرات المناخية من دون إعادة النظر بعمق في علاقتنا بالطّبيعة، ولا يمكن فهم هذه العلاقة من دون تحليل مأزق المجتمعات المُنتجة وأنماط الاستهلاك اللامحدود للموارد الأحفورية.

التغيرات المناخية العالمية هي مشكلة حضارة (في حدّ ذاتها)، إنها تضع مستقبلنا محل تَسَاؤل وتتطلب بدائل بعيدة النّظر للحدّ منها وربما تجاوزها من منظور الإنصاف ما بين الأجيال.

ثالثًا: من أجل مقاربة عربية للدّفاع عن الحقوق البيئية المشتركة

هناك إجماع تام للكثير من الدّراسات والتقارير الدولية، مثل تلك الصادرة عن الهيئة ما بين الحكومية المعنية بالمناخ (IPCC)، ودراسات المنظمة العالمية للأرصاد الجوية (WMO)، وجهود معهد بوتسدام للأبحاث حول التأثيرات المناخية (PIK)، واجتهادات المجلس القيادي لشبكة حلول التنمية المستدامة (SDSN)، والدّراسة الصادرة من منظمة الأمن والتعاون الاقتصادي (OECD) الموسومة بـ«توقعات البيئة إلى غاية سنة 2050»[33]، وتقارير منظمة الأغذية والزّراعة التابعة

(30) أنتوني غيدنز وفيليب صاتن، **مفاهيم أساسية في علم الإجتماع**، ترجمة محمود الذوادي (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2018)، ص 102.

(31) Aykut et Dahan, *Gouverner le climat? 20 ans de négociations internationales*, p. 458.

(32) Ibid., p. 18.

(33) Organisation for Economic Co-operation and Development (OECD), *Environnemental Outlook to 2050: The consequence of Inaction* (Paris: OECD, 2012).

«الفاو» (FAO) للأمم المتحدة؛ وأطلس المناخ والصحة (Atlas of Health and Climate)، كلها دراسات وأبحاث تُؤكد أن الوطن العربي هو أكثر المناطق تضررًا من التّحولات المناخية[34].

تقوم الشركات البترولية مثلًا[35] بتوجيه عملها (أو نشاطها) الاقتصادي من أجل التأثير في سيادة الدول المُنتجة، وإلى حدّ ما على بعض الدول المستهلكة. وفي مجال الأمن الغذائي؛ فإن 75 بالمئة من التجارة العالمية للحبوب واللحوم تسيطر عليها أربع شركات ضخمة متعدّدة الجنسيات[36] ويطلق عليها (ABCD) وهي على التوالي: Archers Midland وَBunge وَCargill وَDreyfus وبذلك فهي تراقب تجارة الغذاء العالمية. وفي الوقت نفسه تسيطر هذه الشّركات على الأمن الغذائي العربي.

حاولت الدول العربية أن تهتم بالمسألة الزراعية، لكنها فشلت في تدبير المياه كمورد استراتيجي، ففي سورية مثلًا، ارتفع[37] مخزونها من القمح في عام 1995 بتأثير تلك الأولوية من مليونين و100 ألف طن إلى 4.5 مليون طن في عام 1995، لكن ذاك تمّ على حساب الموارد، وبصورة أساسية على حساب المياه الجوفية. وقد أدى الاستثمار الكثيف للأراضي الزراعية في الجزائر[38] إلى استنزاف خصوبة التّربة، حيث شهدت استثمارات كبيرة ضمن القطاع الزراعي في المناطق الحدية شبه الجافة الأمر الذي أدى إلى انخفاض كبير في مخزون المياه الجوفية وارتفاع ملوحة التربة واتساع التصحر وارتفاع تكاليف الاستثمار.

وقد كان لعبد الرحمن منيف في روايته الشهيرة **مُدُن المِلْح (التّيه)**[39] دور في تقديم توصيف وتحليل رائعين لحال مدننا العصرية، إذ يقول[40]: «قصدت بمدن الملح تلك المدن التي

---

(34) خالد القضاوي، «مستقبل التعاون الأمني المغربي ـ الإفريقي في ظرفية التحولات المناخية،» ورقة قدمت إلى: **أعمال الندوة المغاربية حول موضوع: «الدبلوماسية الاقتصادية والأمنية للدول المغاربية تجاه أفريقيا جنوب الصحراء، 24ـ25 نيسان/أبريل 2018**، إشراف محمد زروالي (وجدة: منشورات كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية، 2019)، ص 129.

(35) Bertrand Badie et Marie-Claude Smouts, *Le Retournement du monde: Sociologie de la scène internationale* (Paris: Ed. Presses de sciences Po et Dalloz, 1999), p. 67.

(36) Jane Harrigan, *The Political Economy of Arab Food Sovereignty* (New York: Palgrave Macmillan, 2014), p. 54.

(37) محمد جمال باروت، «تحدّي الأمن الغذائي: رؤية مشروع سورية 2025،» **بحوث اقتصادية عربية**، العددان 44ـ43 (صيف ـخريف 2008)، ص.180.

(38) هشام بن حميدة. «واقع الأمن الغذائي الجزائري في ظل رهانات تحقيق الأمن المائي،» **بحوث اقتصادية عربية**، العددان 75ـ74 (ربيع ـ صيف 2016)، ص 52.

(39) مع وجود تَوَجّس (لدى شخصيات الرواية) من حُضور الأمريكان إلى وادي العيون؛ فمتعب الهذال لا ينفك عن مراقبة الأجانب الثلاثة: أكيد هؤلاء لم يأتوا من أجل الماء، إنّهم يريدون شيئًا آخر. ولكن ما عساهم يريدون؟» (ص 35)، أما أم الخوش فتوجه كلامها إلى ابن الراشد: سيحترق هذا الوادي.. وأنت أصل البلاء (ص 65) و«قبل حلول الحول القيامة تقوم والوادي يحترق» (ص 64). أما (السلطة السياسية) فكان لها رأي آخر: «من يعترض طريقهم سيلقى جزاءه.. إنهم خويا، وجاءوا لمساعدتنا» (ص 40). انظر: عبد الرحمن منيف، **مدن الملح – التيه**، ط 14 (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2015).

(40) عمر هشام الشهابي، **تصدير الثروة واغتراب الإنسان: تاريخ الخلل الإنتاجي في دول الخليج العربية** (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2018)، ص 471.

نشأت في بُرهة من الزّمن بشكل غير طبيعي واستثنائي. بمعنى ليست نتيجة تراكم تاريخي طويل أدى إلى قيامها ونموّها واتساعها، إنما هي عبارة عن نوع من الانفجارات نتيجة الثروة الطارئة، هذه الثروة (النفط) أدّت إلى قيام مدن متضخمة أصبحت مثل بالونات يمكن أن تنفجر، أن تنتهي، بمجرّد أن يلمسها شيء حاد. الشيء ذاته ينطبق على الملح».

لذلك يتبادر إلى الذهن السؤال التالي: أليست الطّفرة النّفطية (وعمومًا الطّاقات الأحفورية) إسهامًا من الدول النّفطية في الأنثروبوسين العربي. أليست الطّاقات الأحفورية هي جُزء من المسؤولية عن الغازات الدّفيئة؟ فالدول المنتجة للطاقات الأحفورية ترفض الالتزامات الدولية بحجة أن ذلك سينقص من مواردها المالية. ومن المعلوم أن الولايات المتحدة الأمريكية ترعى مصالح اللوبيات الأحفورية في العالم، فترى الولايات المتحدة الأمريكية نفسها «أمام خيارَي الحفاظ على المراقبة الدبلوماسية أو الوجود العسكري في الشرق الأوسط من جهة؛ وَتغيير سلوكيات الطاقات من جهة ثانية»[41].

تعمل الشركات البترولية أو شركات الطاقة على تسخير اللوبيات في المؤسسات العامة من أجل الحؤول دون تطبيق القرارات والإجراءات المناهضة لمصالحها، أو تسعى إلى منع إثارة أسئلة معينة في الأجندة السياسية.

وبالنسبة إلى الدول العربية، فـ«نظرًا إلى الطبيعة السياسية للبلدان العربية، تميل جماعات الضغط الرسمية وغير الرسمية إلى التأثير في السياسة بعد أن يتم إعلانها. وإن طرائق الضّغط المتوقعة على اتخاذ القرار محصورة بفئة قليلة فقط في داخل الدولة، وقد تتجاهل جماعات الضغط الفعلية بعض السياسات أو تحاول التأثير في ما يصبّ في مصلحتها. ويتخذ التأثير الفعلي شكل تداول الاستثناءات والإعفاءات، إضافة إلى تجاهل السياسات ودفع عقوبة بسيطة»[42].

تعرف الدول العربية أيضًا نموًا معاقًا بالنظر إلى الاستدامة البيئية أو المجتمعية أو عدم مُراعاة شُروط الصحة العامة، إذ تُعاني أغلب المدن العربية الكبرى كالقاهرة والدار البيضاء زيادة التلوث والأمراض التنفسية بسبب مصالح لوبيات التصنيع والطاقات الأحفورية. وإذا تحدثنا عن السياق العالمي[43] نجد أن الصناعة المرتبطة بالطاقات الأحفورية هي النشاط الأكثر ربحًا في تاريخ البشرية. ففي العالم توجد 90 شركة مسؤولة عن ثلثي غازات ثاني أوكسيد الكربون؛ وهي على استعداد تامّ من أجل الدّفاع عن أرباحها القياسية، إذ تعمل الشركات البترولية أو شركات الطاقة على تسخير اللوبيات في المؤسسات العامة من أجل الحؤول دون تطبيق القرارات والإجراءات المناهضة لمصالحها، أو تسعى إلى منع إثارة أسئلة معينة في الأجندة السياسية. وتعمل الشركات

(41) Aykut et Dahan, *Gouverner le climat? 20 ans de négociations internationales*, pp. 173, 175 et 180.

(42) زياد مخامرة، «التأثيرات الاقتصادية للتغيرات المناخية،» في: مجموعة من المؤلفين، **الإنسان والبيئة: مقاربات فكرية واجتماعية واقتصادية**، ص 181.

(43) Bruno Lamour, *Stop au dérèglement climatique* (Paris: Les Editions de l'Atelier, 2015), pp. 50-51.

المتعددة الجنسيات من جهتها[44] على تمويل المؤسسات التي تُشَكّك في وُجود التغير المناخي أو تقوم بتشويه المعلومات وعرضها على الرأي العام والقادة (السياسيين) بواسطة اللوبيات، إذ نجحت هذه الشركات في منع أو إضعاف فعالية بعض القرارات كما تُروج لحلول وتقنيات وهمية، كتخزين الكربون، التي من شأنها أن تزيد التغيرات المناخية تعقيدًا وتنشر الجفاف الدائم في بعض الأقاليم. وقد نَفَثَتْ شركة شيفرون (Chevron)[45] النفطية لوحدها، منذ إنشائها، أكثر من عشرة أضعاف ما أصدرته جميع الدول الأفريقية جنوب الصحراء الكبرى (باستثناء جنوب أفريقيا) منذ عام 1850. في حين ألقت شركة غاز بروم (Gazprom) غازات في الجو تعادل غازات القارة الأفريقية كلّها. وتفوق غازات أرامكو السعودية كل غازات دول أمريكا الجنوبية.

إن الأزمة أخلاقية بالأساس، لأن الإنسان الذي بعقله طوّر العلوم والتكنولوجيا، أصبح ضحية نجاحات هذا العقل مرتهنًا بحياته له، على الرغم من كل المخاطر الواضحة في غياب قيم أخلاقية كتلك التي سادت في المجتمعات القديمة، وحصّنتها من خَطَرَ الاندثار مثل قيمة المسؤولية الغَائبة في مجتمع الحداثة.

قد تكون إحدى أهم الطّرائق للمحافظة على البيئة[46] هي تحوّل نَمَط المعيشة نحو خفض كثافة الاستهلاك، سواء تعلق الأمر باستهلاك المُدخلات في عملية الإنتاج أو استهلاك المُنتجات النهائية. إن كثافة الاستهلاك في الخليج من ناحية البيئة والمياه والغذاء والطاقة والنفط والمساحة المبنية تتعدّى تلك في أكثر الدول الصناعية بأضعاف. وهذه المستويات العالية جدًا من الاستهلاك المكثف ليست مضرّة بالبيئة فقط، بل هي غير مُستدامة لأنها تعتمد على النّفط، إما عبر استخدامه مباشرة في إنتاجها كما في تحلية المياه، أو عبر إيراداته التي تشتري كل واردات الخليج من غذاء وكساء ومركّبات.

ومن المنطقي أن نشير[47] إلى التحالف الاستراتيجي بين الاقتصاد العالمي الأول للولايات المتحدة الأمريكية والمصدّر الأول للبترول السعودية، تحت مسمّى ميثاق كينسي (The Quincy Pact) لعام 1945 والمُرَاجَع من جانب جورج بوش في عام 2005. وبموجب هذا الميثاق تلتزم السعودية بضمان تزويد الولايات المتحدة الأمريكية بالبترول، ولا سيما في أوقات الأزمات؛ بينما تضمن الولايات المتحدة الأمريكية وحدة التراب الوطني السعودي واستقرار النّظام.

(44) Ibid., p. 51.

(45) Philippe Descamps, «Comment éviter le chaos climatique,» *Le Monde diplomatique*, novembre 2015), p. 13.

(46) الشهابي، **تصدير الثروة واغتراب الإنسان: تاريخ الخلل الإنتاجي في دول الخليج العربية**، ص 477.

(47) Aykut et Dahan, *Gouverner le climat? 20 ans de négociations internationales*, p. 189, and Henry Laurens, «Washington, Riyadh and the Legend of the Quincy Pact,» *The New Arab*, 1/3/2016, <https://bit.ly/3tdeAbF> (accessed on 14 May 2020.).

إن قوة السعودية[48] ليست مستمدة من حجم سكانها ولكن من حقيقة امتلاكها أكبر الاحتياطيات النفطية في العالم، التي تبلغ 262 مليار برميل، كما تحتل المرتبة الرابعة عالميًا في احتياطيات الغاز الطبيعي، بمخزونها البالغ 240 تريليون قدم مكعّبة.

لا ننسى فلسطين، إذ تعمل «إسرائيل» (التي زُرعت في قلب الوطن العربي) على زيادة التلوث (مفاعل ديمونة) وهدر المياه والاستيلاء عليها[49]. فـ «بعد حرب 1967 تحولّت آلية هدر المياه في الزراعة الإسرائيلية من الدّعم الحكومي إلى سرقة مياه الضفة الغربية». كما أن «إسرائيل» تعيش على الموارد الطبيعية للبلدان العربية كفلسطين ولبنان والجولان[50]، فكيف يمكن حساب الأنثروبوسين العربي؟ من «المعروف أن جزءًا مهمًا من هذا التّصدير يتمّ إنتاجه في الأراضي الفلسطينية المحتلة والجُولان السّوري المحتل، لكنه يُصدّر على أنه صناعة إسرائيلية»[51].

وقد أكد الخبراء[52] أن كمية الذخيرة المشعّة التي ألقتها القوات الأمريكية على العراق تفوق تلك التي ألقتها على هيروشيما في الحرب العالمية الثانية. وقد أكد مركز الوقاية التابع لوزارة البيئة العراقية عن وجود أكثر من 315 موقعًا ملوثًا، في حين قدّر برنامج الأمم المتحدة للبيئة (UNEP) أن المناطق الملوثة السّاخنة هي بالآلاف.

إن الأزمة[53] أخلاقية بالأساس، لأن الإنسان الذي بعقله طوّر العلوم والتكنولوجيا، أصبح ضحية نجاحات هذا العقل مرتهنًا بحياته له، على الرغم من كل المخاطر الواضحة في غياب قيم أخلاقية كتلك التي سادت في المجتمعات القديمة، وحصّنتها من خَطَر الاندثار مثل قيمة المسؤولية الغَائبة في مجتمع الحداثة.

يرى المؤرخ والفيلسوف الألماني هانز جوناس (1903ـ1993)[54] أن الطبيعة لم تعد تلك الأسطورة القوية التي قهرت الإنسان وبرهنت له دائمًا على حدود سُلطته، بل صارت شيئًا هشًّا ومهددًا من جانب الإنسان والتكنولوجيا، وهي لا تستطيع الدفاع عن نفسها مثل أيّ كائن بشري، لذلك فهي موضوع مسؤولية الإنسان، عليه أن يحميها من الخطر ويحافظ عليها لمصلحة الأجيال القادمة.

---

(48) روبرت د. كابلان، **انتقام الجغرافيا: ما الذي تُخبرنا به الخرائط عن الصّراعات المقبلة وعن الحرب ضد المصير**، ترجمة إيهاب عبد الرحيم، عالم المعرفة؛ 420 (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2015)، ص 311ـ312.

(49) فضل مصطفى النقيب ومفيد أحمد قسوم، «الاقتصاد السياسي لصناعة التقنية العالية في إسرائيل،» **المستقبل العربي**، السنة 38، العدد 435 (أيار/مايو 2015)، ص 86.

(50) للتفاصيل، انظر: شكراني الحسين، **نحو مقاربة بيئية للمياه العربية** (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2021).

(51) النقيب وقسوم، المصدر نفسه، ص 85.

(52) كاظم المقدادي، «المشكلات البيئية والصحية الساخنة المهملة في عراق اليوم،» **المستقبل العربي**، السنة 34، العدد 394 (كانون الأول/ديسمبر 2011)، ص 109ـ108.

(53) عبد الحميد العبيدي، «محاولة في فهم تقاطعات الخطاب البيئي مع مسار نقد الحداثة،» **عمران للعلوم الاجتماعية**، السنة 8، العدد 31 (شتاء 2020)، ص 131.

(54) المصدر نفسه، ص 132.

وبحسب جوناس[55] توجد قضايا لم تكن ضمن إطار القوانين، لذلك أصبحت المدينة (Cité) بمفهومها الشمولي مُلزمة بالتّعامل مع هذه القضايا من أجل أن تحيا الأجيال البشرية المقبلة. منطقيًا، يضيف جوناس، التضحية بالمستقبل من أجل الحاضر لا ترد عليها اعتراضات مقارنة بالتضحية بالحاضر من أجل المستقبل.

على سبيل الختم

التّغير المُناخي هو قضية عدالة اعتمادًا على ثلاثة أسباب[56]: **أولًا**، توجد أسباب للتغير المناخي وهي اللامساواة الاجتماعية المؤدية إلى الاستهلاك المفرط، إذ يعدّ هذا مصدرًا أساسيًا لمستويات الاستدامة في شأن غازات الدفيئة. **ثانيًا**، وجود اللامساواة في الشّعور بالتغيرات المناخية بين الأغنياء والفقراء، وستستمر التأثيرات المتفاوتة في شأن الأجيال المقبلة. **ثالثًا**، إن هندسة السياسات السياسات التدبيرية للتغيرات المناخية لها تأثيرات متفاوتة، إذ إن مسلسل إنقاص غازات الدفيئة وسياسات التكيُّف المناخي يستبعد الفقراء والذين لا يملكون القوة.

وجدير بالذكر أن ما يقارب 75 بالمئة[57] من الإنتاج العالمي السّنوي لغازات ثاني أوكسيد الكربون يأتي من عوالم الشّمال (The Global North) التي تضم 15 بالمئة فقط من السكان على المستوى العالمي.

وإذا تَمّ الأخذ في الحسبان المسؤولية التاريخية[58]، فقد استهلكت أمم عَوَالم الشّمال أكثر من ثلاث مرّات حصّتهم من الهواء (من حيث مبلغ الغازات التي يمكن حفظها في الجو)، بينما 10 بالمئة من سكان العالم الفقير يساهمون في أقل من 1 بالمئة من ثاني أوكسيد الكربون.

ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى وجود ترابط[59] بين التفاوتات الاجتماعية والتفاوتات البيئية عبر التركيز على مفهوم العدالة البيئية. وقد ارتبط ذلك في الولايات المتحدة الأمريكية مثلًا بمحاربة بناء المصانع الملوثة للبيئة وإقامة مواقع النفايات السامة في الأحياء التي تضم في أغلبها السكان الأمريكيين الأفارقة.

وفي حدود علمنا المتواضع لا توجد دراسات في الوطن العربي تتناول إشكالية العدالة البيئية والعنصرية البيئية، وهو ما يستلزم إعطاء الموضوع أهمية من أجل الكشف عن تناقضات التصنيع ومآلاته ومستويات الولوج إلى الموارد الطبيعية في الوطن العربي. فالأنثروبوسين في الوطن العربي يرتبط بالاستفادة المجتمعية ومستويات الحرمان من الموارد الطبيعية واستدامتها للأجيال

(55) Jonas, *Le Principe responsabilité: Une éthique pour la civilisation technologique*, pp. 29-30.

(56) Shron L. Hardin [et al.], «Climate Justice and Inequality,» in: Rilley E. Dunalp and Robert J. Brulle, eds., *Climate Change and Society: Sociological Perspectives* (New York: Oxford University Press, 2015), p. 127.

(57) Ibid., p. 128.

(58) Ibid., p. 128.

(59) David Blanchon, Sophie Moreau and Yvette Veyret, «Comprendre et construire la justice environnementale,» *Annales de Géographie*, vol. 18, nos. 665-666 «Justice Spatiale» (janvier-avril 2009), p. 37.

المقبلة. فمن أجل حماية الكون[60] من التغيرات المناخية، يجب ألّا نكتفي بتمرير التغيرات المناخية قبل إرساء العدالة بين الناس، إذ ينبغي بلورة العدالة الاقتصادية والعدالة الكونية بين الناس؛ فالأمر يستوجب المساواة في الولوج إلى موارد العالم، حيث يشعر الناس بالعدالة فيما بينهم بقدر حفاظهم على العالم.

كل ذلك يجعلنا (كباحثين مهتمين بالتغير المناخي في حقوله الاجتماعية المتقاطعة) مطالبين بالمساهمة في «تطوير مقاربة عربية» قادرة على مُناهضة ومُحاربة السياسات الدولية الليبرالية «المتوحشة» التي جعلتنا في مرمى حجر من الهاوية. علمًا بأن الوطن العربي لا يُساهم إلّا بأقل من 5 بالمئة من الانبعاثات الضارة بالبيئة، إلّا أن أخطر التداعيات الأمنية المرتبطة بالتّحولات المناخية مسّت وستمس الوطن العربي باستمرار. علمًا بأن الولايات المتحدة الأمريكية والصين والهند هي من أكثر البلدان تلويثًا للكوكب[61]. لذا فتراكم الملوثات الغازية منذ الثورة الصناعية الأولى يضرب بعمق أسس النظرية الليبرالية التي تؤمن بالاعتماد المتبادل بين الاقتصادات (أي استفادة الجميع)□

(60) Michaël Fœssel [et al.], «La Catastrophe est-elle une politique?,» *Esprit*, vol. 5, no. 374 (mai 2011), p. 56.

(61) Céline Deluzarche, «Quels pays émettent le plus de CO_2?,» Futra, 26 octobre 2022, <https://bit.ly/2SV0W8W> (accessed 26 October 2021).

رسالة مفتوحة إلى المثقفين العرب

ميلود عامر حاج(*)

أستاذ جامعي وباحث في الدراسات الاجتماعية من جامعة الجزائر.

مقدمة

إذا كان قوام كل مجتمع هو الفرد والجماعة فإن الدولة هي من تتربع على هرمه في تكوين الظاهرة السياسية لتدبر شأنه وشأوه، إلا أن الحركة التاريخية بحسب أدواتها وفواعلها وعواملها تبقى نتاجًا لذلك الجهد الجمعي بشأن التوافق والاتفاق والوفاق في العملية المجتمعية التي تصبو إليها كل قيادة متجانسة مع القاعدة الاجتماعية. وقد يكمن هذا في طبيعة التفاعل ضمن حدود حركية التاريخ التي تُقيمها مراحلها وتُلزمها قوانينها وتُرسي معالمها في ضوء ما يتوافر لديها من شروط نفسية وحضارية وتوعوية وثقافية وغيرها من ناحية، وآليات قانونية ومؤسساتية وإدارية وسياسية واقتصادية وغيرها، على أن يساهم الكل في الإقلاعة من ناحية أخرى. تُبادر فكرة الإقلاعة هذه ضمن سنن التغيير والإصلاح التي يُساهم فيها وفق عبقرية المجتمعات وذكاء الدول في ما تقوم عليه تلك القيم والأفكار والمبادئ التي يتم من خلالها توليد المشروعات الهادفة ذات الحمل الثقيل التي لا تُضاهى في ما عداها قياسًا على منطق القوة وغلبته التي تؤول لها كونها من صنيع علم العلماء، وفكر المفكرين وثقافة المثقفين، ومسؤولية المسؤولين في المجتمع الواحد.

أولًا: ما المثقف؟

من هذا المنطلق، علينا أن نحدّد ما المثقف، سواءٌ أكان كلاسيكيًا أم عضويًا بالمفهوم الغرامشي أو تقليديًا أم تاريخانيًا بالمفهوم العروي. ما طبيعة المثقف في ضوء الثقافة التي يحملها ويساهم في بثِّها في المجتمع الذي ينتمي إليه لكي يتقاسم معانيها وينشر مضامينها غيره في باقي المجتمع المحلي أو العالمي قياسًا على النخبوية وحدودها عبر النخب سواءٌ أكانت حاكمة أم محكومة. تكمن أهمية رسالة المثقف كذات عالمة في ما يجهله غيره بل في ما يسهم في نشره من صور وسلوكيات ومواقف وأشكال ومعاملات تجعله يرفع من حيف النفس، وطغيان الذات، وجهل العقل الجمعي، وفراغ المخيال المجتمعي بما يُنير الطريق لها بعيدًا من مظاهر البؤس الفكري، والتحجر العقلي،

(*) البريد الإلكتروني: miloud48ameur@gmail.com

والسوء العاطفي، والظلم الاجتماعي، والقهر السياسي، والغبن الاقتصادي، والعوز البيروقراطي وغيره.

السؤال المثير للجدل الذي فيه ومنه ينطلق كل من يُفكر، أي المفكر كذات عاقلة ومفكرة في آن واحد، وذلك بدءًا من وسطه باتجاه مصير مجتمعه والعالم معًا هو التالي: هل كل ما نفكر فيه هو صائب أم خاطئ؟ وفي ماذا هو مفيد لغيرنا وللأقطار الأخرى والعالم معًا؟ فهل هو كل من لديه شهادة أم يتوافر على رصيد علمي يفتخر به وينافس به غيره من دون خدمته للمجتمع الذي ينتمي إليه؛ إن لم يعش في صراع مفتوح مع مجتمعه بعيدًا من الدولة التي تقوم على المثقف ومنه تنطلق في كسبها للمناعة والحصانة والحصافة بهدف الحفاظ على وجودها والذود عن حياضها؟ ولعل في تراكيب المجتمعات وتنوع الثقافات وتقاطع الدول وفق المصالح والغايات ربما هي من أملت ولا تزال خيارات وبدائل أخرى في ضبط حركية النظم السياسية من داخلها وفي معاملتها بعضها لبعض.

ثمة أسئلة جوهرية، وأخرى فرعية متولدة عن المثقف نفسه؛ إن لم تكن عبارة عن سمة الثقافة التي نحملها جميعًا من خلال توافرها أو تنافرها في المجتمع العربي الواحد من التوافق إلى التلازم، ومن التطابق إلى التواحد في الرؤية الجامعة المانعة في خدمة قضية الوطن كأولى القضايا المطروحة علينا جميعًا في إعداد البناء الصائب والصريح لها كباقي الأمم والمجتمعات الأخرى؛ سواءٌ أكانت متقدمة أو في طور النشأة. وربما لا يعزم الاجتماع العربي بخاصة في واجهته السياسية على طرحها، بل في توفيرها وتوافرها بهدف التعامل بها بأتم معنى الكلمة، وبخاصة في العقود الأخيرة ـ بعد ترييف المدن وتمدين الأرياف ـ حيث المثقف أو الإطار السامي أو المهندس المحترف أو الطبيب الجاد بات مضايقًا بل مصطادًا من طرف الشركات والوكالات والجامعات الغربية على اختلاف التخصصات وفروع ميدانها. لقد أصبح فعلًا من الصعب تناول الحديث عن المثقف وبخاصة أن سوسيولوجيا الثقافة باتت في غير صورة واضحة المعالم بحيث لم تقدم ما فيه الاعتبار لمنافسة الآخر على أسس ومعايير عالمية؛ إن لم تكن إقليمية بعدما أصبح المثقف العربي المعاصر نفسه ليس كالغزالي والبيروني وابن سينا وابن خلدون أو كغيره في الغرب ما يعاكسه كأفلاطون والرواقيون وكانط وديكارت وهيغل وسبينوزا وماركس وماكس فيبر وأنجلز وفولتير ورينان وغيرهم.

من هنا نرمي بالثقل على أهمية الرسالة وثقل المسار في التعاطي مع المثقف وما ينطوي عليه في مسار التاريخ من دون أن نتعامل معه وفق علاقة صادقة وبصدقية مشروعة قد تزيل الغبار عن مسؤولية الجميع وإن بالعلوم والعلوم وحدها تُنار الطريق وتزول الشوائب وتقوض التناقضات في الدفع بذات المجتمع بما يُلبي رغباته وطموحاته وفق أسس ومعالم تشدها القوانين والمبادئ والأفكار والقيم في بناء الأمم وتطور الدول.

إن سؤال التاريخ وحتميته وارد جدًا بل لا مفر منه كوننا ميّالين إلى ما قدمه الجيل الأول أو الأجيال السابقة عنه عبر سِيَرها الحافلة بالأمجاد والعِبر والخصال والقيم العلمية على اختلاف مراحلها وتخصصاتها (التراث)، بعدما أصبحنا نقتات من فُتات غيرنا من الأجانب وعلى اختلاف

أمصارهم وثقافاتهم (الحداثة) لتطبيقها في واقع غير واقعها الأصلي. من هنا تتحدد أصالة البعد وصفاء المرجعية ونقاوة الثقافة العالمة التي يحملها هذا المثقف أو ذاك. بيد أن جفاء الخواء وقلة المردودية ربما هي المؤهلة في ما تطمح إليه من خلال الدفع بالذات المجتمعية إلى ما تراه مناسبًا وملائمًا لها في غياب ما هو ضامن رئيس لها في فك العُقد، وحل الطلاسم، وبناء الخطط، وإرساء الاستراتيجيات... إلخ.

إن عضوية المثقف واحترافيته وحضاريته هي أساس التحول المجتمعي في النهوض بأعباء المجتمع وأتعاب الدولة من دون دخول الصراعات والمتاهات التي ربما قد تسبب للبعض أذى وربما لا يُراعيها البعض الآخر من موقع وجوده في الحكم أو خارجه بل ومن وسطه الاجتماعي ودوره الوظيفي أيًّا كان. ولعل في عدم الاتفاق عن مصطلح موحد بل في غياب مصطلح للمثقف الذي حُمِّل ما لا يستطيع حمله، أو بإقصائه أو بفشله، بات بعيدًا من حمولاته التي لم يستطع حملها بسبب ظروفه الخاصة – عن عمد أو عن جهل – ربما هي التي جعلته يتأخر عن الركب كونه بات بعيدًا من حمل المجتمع أو تسيير قمته عبر السلطة السياسية من داخل الدولة، إذ لم نتفق بعد على مصطلح المثقف في دوره ومكانته ورسالته التي حتمت عليه إما البقاء بعيدًا وإما الهروب خارج الوطن. إن أولى التجارب العربية قد تكمن في عدم توافق الدولة العربية مع المجتمع العربي للنهوض بأوضاعهما بما يخدم الجميع للتقليل من الغبن السياسي، والتدهور الأخلاقي، والعبء الاجتماعي، والضعف الاقتصادي، والتهاون الإداري، والفساد البيروقراطي، والضعف الاستراتيجي، والانفلات الأمني... إلخ. وقد يعود ذلك إلى ضعف المواطن العربي وقلة الحس الاجتماعي لديه بما يحظى بمباركة الدولة العربية واتكالها عليه بهدف النهوض بالواقع الاقتصادي الذي نراه في الواردات أكثر كثيرًا من الصادرات. فالمعادلة الاقتصادية ما هي إلا صورة مصغرة بل عاكسة لوضع مكتمل أو في طور النشأة لكنه معبر عن ذلك الواقع العربي من الوجهة الاقتصادية. كما أن الاقتصاد هو كذلك من قوة المجتمع الواحد أو ضعفه، في غياب المشروعات الهادفة والركض وراء الاستعراض الموهوم من أجل تعطيل الدولة وتهريب أموالها نحو الخارج في ظل الكساد والفساد والتضخم المالي والتأزم النقدي.

ولعل في طبيعة تضييق الخناق على المثقف، وبخاصة العربي منه، ومنذ مدة رمت بظلالها على هذه العزلة والمضايقة التي حجبت الرؤية بين المسؤول والواقع بل بين عمق الحاجة وحكمة اتخاذ القرار أو لا، من دون الوصول إلى نتائج إيجابية. إنها بالفعل تجربة أولية أخذتها الدولة القُطرية العربية على مر مراحلها من دون أن تكتفي في ضوء الجهود المبذولة والوقت المستهلك على نتائج جادة بل التوصل إلى ظروف حسنة تسمح بتوسيع نطاق التعامل مع هذا الواقع المدلهم بالخطوب والخطايا. ومن صراعات الهوية إلى معضلات اللغة (تراجع العربية وبروز اللهجة وتفوق اللغات الأجنبية)، وهو ما انعكس سلبًا على المقروئية والبحث العلمي على ما تجري عليه الحال في الجامعات والمراكز البحثية مقارنة بتذيّل مكانة الجامعات العربية في الترتيب العالمي إلى مشكلات الحزب السياسي الواحد مع نفسه أولًا، ثم مع السلطة السياسية ثانيًا، ثم مع المجتمع الذي ينتمي إليه خاصة مع أنصاره ثالثًا، إلى السياسة الخارجية من الاستلام والاستلاب إلى دعوات التطبيع.

ثانيًا: تضارب التيارات الفكرية وتغييب الرؤية المجتمعية

سؤال ما زال يتكرر عن دور المثقف أحيانًا بالانبطاح أمام الغير من خلال مقولات وآراء متضاربة كتلك التي أطلقها المصلح السوري شكيب أرسلان حول تأخر المسلمين وتقدم غيرهم، أو مع محمد إقبال حول كيفية إيقاظ الفكر الإسلامي، وغيرهما من المسلمين الذين اختزلوا التقدم الحضاري في الرؤية الدينية، بينما المحدثون أمثال إدوارد سعيد الذي اختصرها بخيانة المثقف، أو المؤرخ المغربي عبد الله العروي حول أزمة الثقافة العربية وغيرهما؛ ما يعود بنا بالحديث إلى ربط التأزم بالواقع دونما فهمه ومعاينته ومقاربته على أسس ومعايير محكمة ومضبوطة تسهم في خدمة الأجيال والمؤسسات. سؤال المثقف هو سؤال الأمة بل التاريخ والحضارة والتقدم في ضوء ما عرفه البعض من تحولات ونضالات وما عجز عنه آخرون في القيام به والتوصل إليه. ما طبيعة العطب؟ وما نوعه؟ وشكله؟ وما تداعياته؟ ثمة وعي مضاد وبنّاء قد يجرّنا إلى فهم عميق ومسؤول للخروج من عنق الزجاجة. لقد فُسر ذلك من الزاوية الإصلاحية من المنظور الديني على يد محمد عبده عندما أردف قائلًا بأن سبب الخلل يعود في اعتقاده إلى الابتعاد عن عقيدة الإسلام وجوهرها بعدما ربط الحضارة الغربية بالإسلام من خلال استلهامها من روحه كبوصلة ذات أهمية للبناء[1]. ساند محمد عبده في هذه الشهادة الشهيرة عدد كبير من دعاة الإصلاح وأركانه في الوطن العربي من دون أن تبرز هذه الملاحظة شروط تقدم الغرب وتخلف العرب المسلمين مثلما طرحه شكيب أرسلان أو محمد إقبال تباعًا. إلا أنه تبقى ملاحظات هؤلاء المصلحين رخوة بل مهزوزة الأساس من حيث المضمون بل غزيرة الشكل في غياب الأسس والقواعد الفكرية والفلسفية والعلمية التي أسهمت بحق في تطور الغرب وفواعل تقدمه وشروط إقلاعه دونما تعرُّض هذا التيار الإصلاحي لمفهمة الدولة «المدنية» كأساس للقوة التي كانت تتغذى منها بريطانيا في مصر أو فرنسا في شمال أفريقيا، في الوقت الذي يميل فيه هذا التيار الإصلاحي إلى عامل الدين وليس إلى تبني الظاهرة السياسية التي كانت منبوذة لديه والتي لم تكن تشغل بال أحد حينها.

وعلى خلاف هذا التيار الإصلاحي نجد التيار العلماني الذي برز بصورة واضحة في بلاد الشام ومصر والذي كان يمثله عدد كبير من المثقفين العرب ومنهم على سبيل المثال لا الحصر أحمد فارس الشدياق، وناصيف اليازجي، وبطرس البستاني، وأمين الريحاني، ورفاعة الطهطاوي، وعبد الرحمن الكواكبي، وأمين الريحاني، ومن تبعهم من أمثال قاسم أمين، وطه حسين، وعلي عبد الرازق وسلامة موسى... إلخ. يُمثل هذا التيار العلماني المخالف للتيار الإصلاحي انقسامًا على أشده، ليس حول إشكالية التقدم والتخلف وحول الغرب والعرب فحسب، بل كونهم يمثلون في هذا السياق رواد النهضة العربية في اتجاه الاستقلال عن السلطنة العثمانية بإحياء للهمم عبر الوازع الديني ليس إلا.

---

(1) عندما زار محمد عبده (1849 ـ 1905) باريس حيث قال: «رأيت إسلامًا ولم أجد مسلمين، في حين أنه وجد في مصر مسلمين، ولم يجد إسلامًا».

يتأتى ذلك من خلال دراساتهم وأبحاثهم حول الفكر والسياسة ضمن دعواتهم إلى مأسسة الدولة العربية على أسس وضوابط عصرية، لكن سرعان ما تلاشى هذا التيار وتقوضت دعائمه بسبب الحرب العالمية الأولى.

ما يقودنا إلى طرح السؤال التالي: لماذا لم يستمر هذا التيار التحديثي المساند لليقظة العربية مقارنة بعصر الأنوار الذي عرفته أوروبا؟ لماذا تأكد فشله من دون أن يعرف التاريخ العربي حركة نورانية مماثلة كالغرب مثلًا؟ لماذا كُتب لعصر الأنوار الأوروبي البقاء والديمومة ولم يكتب لنظيره العربي هذا التطور الإيجابي؟ فهل الأمر فكري محض أم سياق تاريخي لاستدامة الضعف وإدامة القهر واستشراء الاستبداد تحت آلة المستعمِر لتبقى الأمية والتخلف والجهل؟ فمن حيث الفكر، جاءت الثورة الصناعية، حاملة لمبادئ عصر الأنوار التي مثلتها أفكار روسو ومونتيسكيو ولوك وهوبز، وأدب هوغر وفولتير، وغيرهم من المفكرين والأدباء العظام الذين كانوا رواد المرحلة الرومانسية، التي مهدت الطريق للثورات الاجتماعية في القارة الأوروبية. ومن حيث السياسة، أصطلح المفكرون الذين أشرنا إليهم، كل في مجال تخصصه، بصوغ برامج المستقبل، ورسم بوصلة الطريق لما بعد سقوط الأنظمة البطريكية. فكتب روسو عن العقد الاجتماعي، الذي رسم العلاقة بين الحاكم والمحكوم، وبات بموجبه هذا العقد مهمة الحاكم السهر على تنفيذ مطالب شعبه. ورسم لوك صيغة العلاقة بين البناءين الفوقي والتحتي، من خلال مؤسسات تنفيذية وتشريعية ودستورية. وقد تناول مونتيسكيو موضوع القانون، وأهمية أن تكون دولة المستقبل دولة العدل والقانون[2].

أسهم عصر الأنوار بفعل الثورتين الفرنسية والإنكليزية في وضع الأسس والمعايير التي تحكم قواعده وتنظم مساره وتضبط مآلاته ضمن مخطط التصنيع إلى بلورة الأفكار والرؤى بخصوص الاتجاه نحو المادي/ العقلي استنادًا إلى أن القطن كان قد مهد الطريق إلى الآلة في الحالة الثانية لتتطور من ثم قوة النقل في اتجاه التصدير عبر القطارات ليعمّ البعد الاقتصادي في حركيته المجتمعية من خلال انتهاج طرق وميكانيزمات تسهم في التطور التدريجي للعقل البشري. أما في الحالة الثانية أي الثورة الإنكليزية فإنها بادرت عبر التأثير في الدستور الأمريكي إلى إنشاء قواعد لعبة الحكم لكي تتأثر مواده في سياق قوة الحكم لإخراجه من هشاشته وتحويلها إلى مبادئ تأخذ في الحسبان الشق المؤسساتي الضامن لخدمة الشأن العام لكي تتأثر به أمريكا الشمالية ليشيع نطاق عصر الأنوار ويمتد صيته ويتسع نطاقه أرجاء العالم.

ثالثًا: كيف فشل المشروع التنويري العربي؟

اختلفت الرؤى حول تفسير وفهم غياب العصر النوراني العربي وتقاطعت المواقف من دون إرساء معالم داعمة لإحداث نقلة نوعية في هذا السياق. لكن السؤال المطروح هو: ما طبيعة الفشل ودواعي الانتكاسة في غياب نقلة نوعية في هذا المضمار؟ من جهة أخرى، فإن الواقع العربي يوم

(2) يوسف مكي، «المثقف العربي في مواجهة التحديات،» **المستقبل العربي**، السنة 42، العدد 429 (شباط/ فبراير 2020)، ص 146.

ذاك، وعبر مثقفيه، لم يكن يعرف سياقًا متفاعلًا يقوم على انتهاج أفكار وطرح خيارات وتبني بدائل في ضوء ما كان الاستناد إليه من خارجه بل عبر الثورة الفرنسية التي غطت على النهضويين العرب مآلات التنوير في تبني مشروع النهضة العربية كما فعلت الثورة الفرنسية.

لكن يبقى السؤال: لماذا تم الاستناد إلى التجربة الأوروبية؟ **أولًا**، مشروع الاستعمار التدميري للذات في المنطقة العربية؛ **ثانيًا**، إحداث ثورات فكرية واجتماعية كانت هي المرآة العاكسة للتحول العربي ومن جانب مفكريه الأوائل، الأمر الذي فوّت الفرصة التاريخية على الذات العربية في التموضع الحضاري والتاريخي والعلمي والاستراتيجي كنظيرتها ليس كثورة عالمية فحسب، بل في رصد أول التطورات والمقومات للذات العربية. لذا كان الانشغال من خلال التأثير بعصر الأنوار الأوروبي دون سواه في وقت تعززت فيه الصناعة والنقل والتسلح لكي تكون المنطقة العربية من بين حواضرها بامتياز لكن من دون أن تكون في المقابل أرضًا خصبة في إنتاج الأفكار والمشروعات والسياسات الهادفة لخدمة مجتمعاتها تحت نير الاستعمار.

لا يمكن أن يكون الاستعمار أنموذجًا ناجحًا، وبخاصة ذلك الذي انفردت به أوروبا – فرنسا وإنكلترا ـ على وجه التحديد كنبراس يحتذى به كونه استغل عصر الأنوار في قهر الشعوب واستغلال الثروات وطمس الثورات لكي يعطي دروسًا ناجحة للآخرين، ما أوشك بأن لا يسمح في خلق الأطر والمرجعيات ذات الصلة حيث المستوى التعليمي في مدارسه ومعاهده كان بأقل الدرجات، لأنه كان متخوفًا من بروز كتل مثقفة تناصبه العداء على ترابها. وهو بالفعل ما فوّت الفرصة التاريخية على جيل النهضة بالرغم من تعدد الأسماء على جيل نهضة لتدشين عصر الأنوار مماثل. كما تعد التجربة الأوروبية شاذة ولا يمكن تعميمها بالرغم من حضورها وتعميمها في تاريخ البشرية عدا في دراستها من الزاوية الثورية بعيدًا من الاستعمار أو تطور فكرة الاستغلال ومشروعه التدميري لغيره من المجتمعات ما جعله يحمل وجهين لعملة واحدة، بحيث كان التطور الداخلي في البنى والبنية لديه، بينما كان الاكتساح الخارجي في الحواضر والقلاع لدى الأجانب لاستغلال الثروة وانتهاك السيادة حتى تكون أسواقًا تابعة له في ما أحدثته الثورة الصناعية.

رابعًا: صورة المثقف العربي المغيبَّة

هل للمثقف من صورة نمطية تُصنع له أم هو الذي يصنعها لوجوده؟ لماذا الكل يحذر منه والكل يطلب عبره التغيير في المجتمعات العربية؟ هذا في الوقت الذي ظل فيه منسوب القراءة يتراجع عندنا، بينما المكتبات الكبرى تغلق والكِتاب العربي لا يسهم في الجدالات والسجالات الفكرية والعلمية والنظرية التي واكبت تطورات العالم. لا أحد يشكك في أن المجتمعات تتوافر على ديناميات عبر المثقف الذي لا يختزل مساحة التاريخ في ما يقبل عليه من أفكار، بل كيف يقيم صرحًا في مجتمعه لبلوغ درجات العلا. ما يقودنا إلى السؤال التالي هل تم الترويج له من منطلق أفكار اليقظة العربية التي صنعت مجدًا للوطن العربي أم مجرد شعارات فضفاضة وخطابات شعبوية لا تمت بصلة بما أحدثه عصر الأنوار في أوروبا؟ وهل هناك مجال للمقارنة بينهما؟ ما رسالة المثقف في المجتمع؟ ثمة رسالة تاريخية يؤديها بعدما يصنعها لنفسه المثقف تجاه غيره

في المجتمع في دورة تاريخية مشهودة لبناء شروط القوة من مرحلة إلى أخرى في خضم ما تصنعه الأفكار وما تشقه التيارات الفكرية من مفاهيم ومضامين ومدلولات قد تؤثر إيجابًا في مسار بناء النظم وإعداد الأنساق وترشيد أساليب التفكير وبناء السياقات التاريخية.

بيد أن ما يقوم به المثقف العربي في جل الحالات يحبِّذ الفرجة المهرجانية ويتنصل من الدور التاريخي بل من المسؤولية الأخلاقية والقانونية والحضارية والاجتماعية التي تقوم على ثقافة المثقف من خلال الوعي الذي يسهم في نشره وبلورته كونه منوطًا به دون غيره بل ولصالحه خدمة للمجتمع الذي ينتمي إليه. فالمسألة حضارية بامتياز؛ إذ ينفرد بها المثقف على حساب غيره بل لمصلحة الآخرين في تطويع للآراء وتوليف للخيارات الإنسانية بما ينمي الهوية ويعزز المصداقية ويزيل الغشاوة عن العقول والقلوب تجاه العيش الكريم ضمن الأنظمة المجتمعية. حقًا هناك شرعية الثقافة ومشروعية المثقف من خلال ما يدعو إليه، شريطة أن يكون عند حسن ظن الآخرين به يثمن الأعمال ويعزز من الجهود التي يقوم بها ويحث عليها على أن يكون مرآة عاكسة حتى لا يصيب عمله بالشلل والإحباط والقصور عملًا بتعطيل مستلزمات كل من التقدم والإبداع والالتزام. فهو إذًا عمل يقوم به على الثقة بالذات والرضا عنها ونكرانها معًا لخدمة القضية بالأساس. بالفعل هناك صفات موضوعية ينفرد بها المثقف ربما أكثر مما يقوم به من إنتاجات فكرية لكي ينير الطريق لغيره باقتفاء أثره من خلال ما هو علمي ومعرفي وليس شخصيًا ونسبيًا في التأثير في الوسط الاجتماعي الضامن لإحداث الإقلاعة بما يضمن الاستمرارية وليس القطيعة في كنف الرقي والانبعاث الحضاري.

من يصنع المستقبل أو على الأقل من يرشد إليه في ظل هلاك السياسات بإنارة الطريق أمامه من خلال سد الفجوات والتحسيس بالمخاطر واستشعار الهمم؟ ما طبيعة التاريخ الذي يُشيد من أمامنا؟ وهل للمثقف دور فيه؟ وهل نحن داخل التاريخ أم خارجه؟ ومن يحرر هذا الواقع ويبعث فيه دينامية النمو والتنمية؟ وفي الحالة العكسية من المسؤول؟ ومن يقوم برفع هذا التحدي؟ ثمة أسئلة جمة وتداعيات كثيرة وكبيرة على مستوى المثقف بل منظومة الثقافة نفسها التي يرعاها المثقف في المجتمع الواحد دون سواها. في الوقت نفسه هناك قلة ممن تأثر في هذا المسار التاريخي من داخل اللعبة وليس خارجها، بما يضمن القدرة على تخطي الصعاب وتجاوز المحن من عمق الثقافة التي يتقاسمها الجميع وتصنعها الزمرة من المثقفين وإلا تعَدّ هشة وفارغة المحتوى من دون أن تضمن التأثير الذي لطالما كان عبئًا وعبثًا في المجتمع الواحد في غياب ما يدعو إلى استرشاد العقول وتطويع الأنفس وتوليف الذوات بما يخدم قضايا المجتمعية ويحل المشكلات ذات الاهتمام المشترك في المجتمع الواحد.

ما جدوى الثقافة التي هي بحوزة المثقف العربي؟ وهل أسهمت في تفكيك وتفتيت هذا الواقع للإسهام فيه بجدٍ وجدارة؟ إنه الواقع المندس تحت اسم العادات والتقاليد والأصالة والثوابت من جهة، وركام المعارف والعلوم والفنون والمعلومات المتوافرة بحوزة الآخر والعالم من جهة أخرى. لا شيء يضمن هذه النقلة النوعية في ضوء ما يتوافر عليه المثقف ويتقاسمه العالم الذي ننتمي إليه من حولنا من خلال ما حدث وما لم يحدث وما نطمح في الوصول إليه. إن صعوبة التوافق قد تكرس الاختزالية والأداتية التي لا تسمن ولا تغني من جوع في ضوء التحول المجتمعي الذي لطالما

كان يدور في فلكه مجال الآخر الذي سيطر على الثقافة والسياسة الاقتصاد والتكنولوجيا والمعرفة والإعلام والصناعة... إلخ، وذلك من خلال ضبط عملية المفاهيم وما مدى تأثير التعامل معها من جراء استصاغة الآليات والأدوات الفكرية في السيطرة على فهم واقعنا عن طريق ماضينا باستقراء مستقبلنا من خلال صوغ معادلات جديدة ومتجددة للإسهام بموجبها في حركية البشرية.

لا يمكن للمجازفة أو تمديد عمر اللايقظة، في ضوء الثقافة التاريخية السائدة على بناء جسور لعصر يقظة/نوراني عربي جديد، بل أكثر انفتاحية بعيدًا من دكتاتورية الذات أو سلطوية الحاكم فيما يعيد الأمل ويبني القدرة ويعزز الثقة بالذات من داخلها بل على أسس وضوابط جادة ومتجددة باستمرار بحيث لا يمكن أن تقاس قوانين التاريخ وسنن الحركات الاجتماعية في بلورة الكتل السياسية وأساليب تفاعلها وتناغمها بما يفضي إلى التحول المرهون بضبط حركية التاريخ التي يقيمها المثقف تجاه غيره من الأفراد والجماعات في مسار المجتمعات والأمم. ما مسؤولية المثقف العربي وما رسالته في الوجود؟ إذ لم يعد الأمر بنهل العلوم والفلسفات فحسب، بل يتمحور حول إنشاء آليات وأدوات حيال ما يقوم على التغير الاجتماعي والتفكير السياسي والبناء الاقتصادي من خلال إعداد الفرد العربي أيما إعداد لخلق عصر اليقظة وعهد الإقلاعة بدلًا من فترات التلاشي والإحباط واللامبالاة.

إلا أن الانخراط في العملية المجتمعية عبر المثقف هو رهان جيو ـ حيوي مرتبط بوجود الذات ضمن ما يتوافر لدى المثقف، عربيًا كان أم غربيًا أم شرقيًا، في تجاوز حالة الضعف والاستياء واسقاطاتها بما يضمن الكفاءة وتحمل كلفة التاريخ في تحديد المفاهيم عبر استصاغة الرؤى في ضوء التأثر بالماضي/القوي بالتغلب على الحاضر/الضعيف والمستقبل/الغائب أو المغيَّب والمجهول. وجدير بالذكر أنه لا يمكن التغلب على واقع تسيطر عليه القوى العالمية في كل شيء دونما فهم لماضينا بالتسلح بقيمه وأدواته التاريخية والحضارية بما يضمن لنا الإسهام في عالم الغد أيما إسهام. ضروري إذًا فهم الواقع ضمن أطر ومرجعيات وميكانيزمات نستقرئ بها حدود الواقع وتحدياتِه المدمرة للذات والتربة والتلاحم بل في كامل اتجاهاته وتوجهاته، من دون أن نعيش عبئًا على أنفسنا وعلى الآخرين لتجاوز ثغراه التي نعتقد أنها مفيدة لكنها مقيتة ومقيدة في تجديد ذلك الوعي المندس بما يضمن الانبعاث والتقدم والرقي من خلال التخلي عن ازدراء الذات وتهميشها من الوجود وإقصائها من السباق الحضاري بعيدًا من الخطاب الشعبوي والمصلحي على حساب المنفعة العامة.

كثيرة هي تلكم القضايا ذات الاهتمامات المشتركة التي لا يتعرض لها إلا المثقف/المفكر في تحليل مضامنيها وأبعادها وتحدياتها، من خلال تحليل الخطاب وتفتيت خططها وتقويم مسلكها بعيدًا من الغلو والتقاعد والتقاعس عن المهمات النبيلة عن طريق العلم والمعرفة العميقة وليس السطحية في دخول التاريخ وليس التباعد عن مركزيته باتجاه حوافيه ضمن ما يمكن أن تصنعه هذه الذات العربية من قدرات وطاقات وإمكانات كفيلة بالنهوض بواقعها عبر مثقفيها وعلمائها وخبرائها في ميادين شتى هي في أمسّ الحاجة إليها. تتأتى جدلية الثقافة عبر المثقف أيًا كانت صلته الوثيقة بالوسط الاجتماعي الذي ينتمي إليه وما هو قادر على نسجه من دعائم وصلات نظرية ومنطقية وعلمية تصب في الشخصية القومية من خلال توفير شروط القوة لا الضعف، وهو ما

يدعو إلى التقليص من الأخطار والمخاطر التي نراها لصيقة بالداخل تارة ومنحدرة من الخارج تارة أخرى. إن قدرة المثقف هي منح ما ينبغي التوقف حوله بإدراج هذه الرؤية ضمن تصوراته للإسهام في عملية البناء الوظيفية بعيدًا من التهميش والإقصاء والرضوخ للمظاهر التي هي من صنع عقولنا في حمأة الفساد والتبعية والتخلف والاختراق. يتزامن ذلك من خلال ما ضُرب من سياسات عشوائية لا تمُت بِصلةٍ إلى التحديات الحاضرة ولا الآفاق المستقبلية في غياب أطر وأطروحات للعمل العربي المشترك وما ينبغي طرحه من معادلات تنموية هادفة حول مصادر التفكير ومناهج التربية والتعليم قصد بناء وعي جديد ومتجدد من داخل الذات العربية عبر الفكر والممارسة وبإيعاز من لبابها عبر الحد من المشكلات والعوائق للإسهام في البناء المؤسساتي والقانوني والعلمي والتكنولوجي ضمن البيئة الدولية، في إطار النظام العالمي في رحاب أسس الحداثة وقواعد التنمية الحقة وأساليب الابتكار والإبداع كقيم حضارية.

كلمة أخيرة وبعد..

غني عن البيان بأن يحتل موضوع المثقف مكانة مرموقة في كنف تيار الأفكار من خلال ما يطرحه من تصورات هادفة، وربما لا تكون صالحة للمجتمع لمجرد أن يقال عنه كذلك في الحالة العربية عمومًا بحكم أن المثقف العربي ما زال يعيش ما قبل النخبوبة، نظرًا إلى ما لم يقدمه لحد اللحظة من أفكار ومبادئ وقيم تسهم في تطوير المجتمع العربي حيث الانقسامات والعقد والاتهامات فاقت الحدود. وقد يتعلق الأمر بما هو شخصي أو جماعي أو مناطقي أو أيديولوجي من دون أن تتوافق المسؤولية التاريخية مع نصابها القاضي بتعميق الروابط وإرساء الدعائم التي يسند إليها عمل الفكر من خلال ما ينير الطريق للعمل العربي. كثيرة هي الأسئلة التي من الواجب طرحها فيما يكون للبناء النظري أهميته الفكرية والمعرفية والعلمية ما يزيل الغشاوة ويذلل العقبات كباقي المجتمعات الأخرى التي عرفت كيف تطور من داخلها للإسهام في البناء الإنساني □

خطاب التطرف بين السلفية الجهادية واليمين المتطرف

محمود أحمد عبد الله(*)

أستاذ علم الاجتماع المساعد، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية – القاهرة.

حاول بعض الباحثين تأكيد التعارض بين التطرف والتحديث، على أساس أن عملية التحديث قادرة على بناء مجتمع حديث قادر على مواجهة التطرف، وأن التطرف هو في الحقيقة جزء أصيل من بنية الثقافة التقليدية، ونتاج طبيعي لأوضاع غير عادلة، وغير منصفة اقتصاديًا واجتماعيًا وسياسيًا. لكن المعطيات التاريخية تثبت أن التطرف هو بنية فكرية ملازمة لكل مجتمع، سواءٌ أكان تقليديًا أو قطع شوطًا في الحداثة أو تجاوزها.

وعند النظر في الحالة الراهنة، فإننا أمام اتجاهين أساسيين لإنتاج الفكر المتطرف، الأول هو تيار السلفية الجهادية المنبثق من الحركة الإسلامية، وبالتحديد من التيار السلفي، والثاني هو اليمين المتطرف الأوروبي. نشأ تيار السلفية الجهادية في مجتمعات شرقية تقليدية في طور ما يسمى «الحداثة المشوهة»، ونشأ الثاني (اليمين المتطرف الأوروبي) نتاج مجتمعات تجاوزت الحداثة إلى ما بعدها. والسؤال هنا هل التطرف واحد أم تراه، كما سبق الإشارة، متعدد، رهين بطبيعة التكوين الاجتماعي وحركة المجتمعات، بحيث يستديم.

وبناء على ما تقدم تحاول المقالة الحالية أن تدرس خطابين للتطرف، وذلك بتحليل مصدرين من مصادرهما: الأول هو كتاب أبو بكر الناجي المعنون: **صناعة التوحش**، والثاني هو بيان برينتون تارانت: **الاستبدال العظيم**.

أولًا: التركيب الشكلي للخطاب

1 ـ ماهية المؤلف

يختلف الباحثون والمعلقون والمهتمون بالحركات الإسلامية بشأن مؤلف كتاب **إدارة التوحش**. فمنهم من ينسب الكتاب إلى شخص يدعى أبو مصعب السوري، أو عمر عبد الحكيم أو مصطفى

(*) البريد الإلكتروني: mandourway@yahoo.com

عبد القادر، بينما ينسبه آخرون إلى محمد خليل الحكايمة. والأول محتجز في السجون السورية، وكان واحدًا من ضمن 35 شخصًا تضمنتهم لائحة اتهام أصدرها قاضٍ إسباني. بينما الثاني هو مسؤول الدعاية لتنظيم القاعدة، عاش في بريطانيا لمدة قصيرة وقتل في إحدى الغارات[2] بينما يرى فريق ثالث أن الكتاب تأليف جماعي وليس من عمل فرد واحد. وفي الواقع إن غياب المؤلف هنا هو نتاج طبيعي لسمة أساسية في خطاب السلفية بوجه عام والسلفية الجهادية بوجه خاص، وهي إضفاء الطابع التراثي على النص المكتوب.

في المقابل، يرسم مؤلف **الاستبدال العظيم** صورة واضحة لنفسه، فهو شاب في العشرينيات، ينتمي إلى أسرة عادية من أصول أوروبية متعددة، لم يكمل تعليمه الجامعي، واشتغل عاملًا لمدة من حياته، وانتمى إلى تيارات فكرية متنوعة، منها التيار الماركسي، وأصبح بتعبيره فاشيًا بيئيًا[3]. وعلى الرغم من تأكيد المؤلف انقطاع صلاته التنظيمية بأي حركة يمينية، يشير أحد التقارير إلى وجود ارتباط بين المؤلف وحركة «هوية الجيل»[4].

2 ـ البنية النصية

يتألف كتاب **إدارة التوحش** من عدة محاضرات تم تجميعها، ولا يبدو أنه قد كتب بتصميم مسبق. ومع ذلك فموضوعه الرئيس واضح، وهو التكنيكات التي ينبغي القيام بها للوصول إلى دولة الخلافة ومراحل تطورها. وبذلك يختلف أسلوبيًا عن النصوص السلفية المعتادة التي تعتمد كثيرًا على اللغة التراثية، حيث يقوم المؤلف الضمني بدمج اللغة الحديثة بلغة تراثية راسخة. ما يشير من ناحية إلى أن المؤلف أو المؤلفين لهذا الكتاب لم يتلق أو يتلقوا تعليمًا دينيًا فحسب بل تعلموا تعليمًا مدنيًا حديثًا، وأن صاحبه قد عمل في السلك الأمني.

أما كتاب **الاستبدال العظيم** فهو بمثابة نص حواري، على الأكثر، ويتألف من عدة مسارات للحوار: حوار مباشر مع خصومه، حوار مع أنصاره،... إلخ. كما أن المؤلف يدمج عبارات ساخرة من خصومه، ويضع في قمة النص وفي ذيله نصين شعريين، يعبران عن موقفه الفكري، لشاعرين مختلفين.

3 ـ اللغة المستعملة

على غير العادة، يقدم خطاب السلفية الجهادية في كتاب **إدارة التوحش** لغة جديدة غير معتادة على الخطاب السلفي في مجمله. فالخطاب يجمع بين اللغة العربية القديمة واللغة العلمية الحديثة، مستفيدًا من المعجم المتداول في دراسات الإعلام والأمن، وإن كان الغالب هو استعمال

(2) علاء عزمي، «إدارة التوحش في زمن ذئاب داعش المنفردة،» موقع مبتدأ، 3 تشرين الثاني/نوفمبر 2016، <https://bit.ly/3Tm39sG > (accessed on 9 September 2019).

(3) «برينتون تارانت: الاستبدال العظيم،» المعهد المصري للدراسات، 1 نيسان/أبريل 2019، ص 10.

(4) Jacob Davey and Julia Ebner, *The Great Replacement: The Violent Consequences of Mainstreamed Extremism* (London: Institute for Strategic Dialogue, 2019), p. 9.

المصطلحات المستعملة في حقل الدراسات الاستراتيجية والأمنية للطبيعة التي يتميز بها الكتاب كدليل إرشادي للعمل في التنظيمات القتالية الإسلامية. والمؤلف حريص على إثبات هذا الدمج بين اللغة الحديثة واللغة الكلاسيكية من خلال حرصه على الإشارة إلى ضرورة الاستعانة بالعلم الحديث مرهونًا بالعودة للأصول الشرعية ومراعاتها[5]، وهو بذلك لا يختلف عن مجمل الرؤية المتبناة في أي خطاب سلفي، سواء أكان خطابًا إصلاحيًا، أو راديكاليًا يستعمل العنف في فرض رؤيته. ولقد كان الطابع العملي الذي وسم الكتاب ككل هو الذي غلَّب لغة أقرب إلى أن تكون محايدة خالية من المجازات اللغوية.

ولم يكن الحال مختلفًا في الكتاب الثاني، حيث لا تزال اللغة محايدة، وإن كانت حديثة، ولكنها تجمع بين راقات نصية متعددة، بالعودة لنصوص أخرى غير سياسية، كما هي الحال بالبدء بنص شعري والانتهاء به، أو باقتطاف مقطع كامل يستعمل في منتديات اليمين المتطرف. لكن النص لم يخلُ من بعض العبارات المجازية وهي قليلة جدًا. ودلاليًا، يبدو أن الكلمة المحورية هي «الغزو» التي تتشابك مع كلمات ديمغرافية تغير من المعنى المعتاد للكلمة. فالكلمة في معناها المباشر تعني انتقال جماعة من الناس لقتال جماعة أخرى، ولكنها في النص المدروس هي انتقال من دون قتال، احتلال ناعم إذا صح التعبير.

4 ـ بنية الفاعلين

يرتكز أي خطاب على رسم صورة للمجتمع موضوع الاهتمام. هذه الصورة توضح جيدًا العناصر الأساسية للمجتمع وفاعليه الرئيسيين.

ففي نص السلفية الجهادية، يتم تقديم العالم في صورة شبكة من العلاقات المتفاعلة، ينقسم فيها العالم إلى عدة عناصر: العنصر **الأول** هم الكفار، ويشار عادة بهذا المصطلح إلى الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفياتي. أما العنصر **الثاني** فهم المرتدون، ويطلق الخطاب هذا الاصطلاح على النخبة الحاكمة سواء أكانوا ضباط جيش أو مدنيين، وهم برأي الخطاب مرتدون لعدم تطبيقهم للشريعة الإسلامية، وخضوعهم للغرب الكافر، ونهبهم لأموال الشعوب التي يحكمونها. بينما العنصر **الثالث** هم المجاورون، ويقصد بهم الحركات الإسلامية التي تتبنى تطبيق الشريعة الإسلامية.

في المقابل يقسم خطاب اليمين المتطرف المجتمع إلى قسمين رئيسيين: البيض في مقابل المهاجرين. ويعرض الخطاب لعدد من الجماعات الاجتماعية التي يتخذ منها موقفًا. أولى هذه الجماعات جماعة المحافظين التي يراها الخطاب لم تحافظ على البيئة الطبيعية والثقافة والتقاليد ولا العرق الأبيض ولا خصوصية الدولة الثقافية. و**ثانيتها** الجماعة المسيحية، ويقصد بها مجمل المسيحيين في أوروبا الذين لا يجدون كنائس تعبر عن رؤيتهم كبيض، بل إن وجود الكنائس هو وجود هامشي. و**ثالثتها** هي الجماعة التركية، كأكبر تجمع للمهاجرين ودولتهم أكثر

(5) عزمي، «إدارة التوحش في زمن ذئاب داعش المنفردة،» ص 28.

الدول تهديدًا للوجود الأبيض في أوروبا. و**رابعها**: جماعة المهاجرين، وهؤلاء يقسمهم الخطاب إلى عدة أقسام: مهاجرون غير مسلمين، والمسلمون الوافدون من بلدان أخرى، والأوروبيون المتحولون إلى الإسلام.

5 ـ المرجعيات الفكرية والنصية

إن أي خطاب يتخذ لنفسه مرجعية فكرية، تتمثل بجملة المقولات الفكرية التي يتخذها منطلقًا له في تحليل العالم والمجتمع، في حين يغذي هذه المرجعية بالعودة إلى نصوص بعينها بوصفها المصادر الأساسية للتفكير. وقد تختلف مرجعيات الخطابين السلفي واليميني، ولكن الرؤية واحدة في نهاية المطاف.

ينطلق كتاب **إدارة التوحش** من المعطيات نفسها التي قدمتها مدرسة التبعية عند فالرشتاين وسمير أمين وغيرهما من المنظرين؛ إذ تنطلق هذه المدرسة من تصور للعالم على أساس أنه مكون من مركز وتوابع، وأن التوابع تتأثر بما يحدث في المركز، وأن الثروات تتحرك من التوابع المحلية وتفيد منها المراكز. التصور ذاته لدى السلفية الجهادية، فالعالم مكون من قوى مركزية هي الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفياتي، وأن دول العالم هي بمثابة دول تابعة، تأتمر بأمر المركز، بينما المركز يدعمها بالمال والسلاح، استرضاء لها، وتستولى النخبة المهيمنة على هذا الدعم. هذا التشابه في تصور العالم لا يقف عند هذا الحد بل يمتد إلى قضايا التوزيع العادل للثروة، والاعتبار بمبدأ أهل الثقة، والرهان على الأعضاء الأصليين للتنظيم دون سواهم، والملتزمين بأفكاره. وليس ذلك بجديد، فالرهان على الطروحات النظرية للراديكالية اليسارية ليس جديدًا على السلفية الجهادية. فالناظر مثلًا في واحد من المراجع الرئيسية لهذا الخطاب الإسلاموي وهو **معالم في الطريق**، سوف يقع على مواضع متعددة تبين تأثير الفكر الماركسي على صاحبه.

في المقابل يعتمد الكتاب الثاني على نظرية **الاستبدال العظيم** التي تمتد إلى الفرنسي رينو كامو في كتابه الذي حمل اسم النظرية نفسه. وقد قدم أفكاره في الاجتماع السنوي حول الهجرة في باريس عام 2014. وأصبح فيما بعد واحدًا من أشهر مفكري اليمين الجديد الأوروبي وجناحه الشاب، أي حركة الهوية[6] هذه النظرية التي انتشرت كالنار في الهشيم؛ كما تؤكد إحدى الدراسات[7].

أما على مستوى النصوص المرجعية، فهناك إشارات داخل كتاب **إدارة التوحش** لنصوص متعددة مرجعية[8]، بينما يذهب البعض إلى ادعاء أن هذا الكتاب متأثر إلى حد كبير بكتاب **الجهاد**

(6) Davey and Ebner, Ibid., p. 8.

(7) Ibid., p. 5.

(8) عزمي، المصدر نفسه، ص 15، 24 و106.

والاجتهاد: تأملات في المنهج، لأبي قتادة الفلسطيني، وما الكتاب سوى ترجمة عملية لما طرح في هذا الكتاب من تنظيرات وصياغات فكرية[9].

6 ـ المتلقي

إن المتلقي الرئيس لنص السلفية الجهادية هو جمهور الحركة الإسلامية بصورة عامة، وشبابها بوجه خاص. يستدل على ذلك أن النص لا يخلو من مناطق فراغ، تتطلب الملء، مناطق معرفية يستطيع أبناء الحركة الإسلامية ملأها ووضع العبارات المفسرة لها. والواضح أن النص برمّته محاولة أساسية لإقناع أبناء هذه الحركات بالخصوص للانضمام إلى التنظيم. ويبدو ذلك واضحًا بالمقارنات الكثيرة التي يجريها الكتاب بين خيار القبول بالاستقرار والقبول بالقتال، سواء بصيغة مباشرة أو عبر صيغ بلاغية.

في المقابل، يحدد نص اليمين المتطرف جملة المتلقين المحتملين لنصه، وهو ما يشي بالفارق بين النصين. وفي كل الأحوال، فإن المتلقين الأساسيين هم أبناء اليمين المتطرف بمختلف مشاربهم، الذين يتوجه إليهم الخطاب. ويمكن تبرير ذلك بطبيعة النص، كمنوفستو، على خلاف نص السلفية الجهادية الذي يبدو أقرب إلى مخاطبة أعضاء التنظيم ومن هم مرشحون للانضمام. إذ يتوجه الخطاب كله إلى كثيرين من المتلقين: عموم الأوروبيين، والمهاجرين، والمسلمين بوجه خاص، والمعارضين وخصوم اليمين المتطرف.

ثانيًا: البنية التصورية للخطاب المتطرف

يحدد أحد الباحثين المعنيين بالتطرف في كتاب حديث له عددًا مما يسميه سرديات الأزمة، ويقصد بها التصورات التي يقدمها المتطرفون في رسم صورة العالم الذي يعيشونه. والواقع أن هذه التصورات تمثل في مجموعها أهم القضايا التي يدور حولها الخيال المتطرف. على أنه يمكن إجمال هذه القضايا وصوغها على النحو التالي:

1 ـ الاعتقاد بقذارة الخصوم وطهارة الذات

ويقصد بها أن مظاهر التلوث والانحراف وعدم الطهارة هي سمة ملازمة للأشخاص والأماكن التي يحيا بها خصوم المتطرف. يتصف هؤلاء الخصوم بكل الصفات غير النقية التي يمكن أن يوصفوا بها.

ولعل جوهر ما تعبر عنه السلفية الجهادية هو معنى «الأصالة»، وهو مفهوم دارج أيضًا في أيديولوجيا اليمين المتطرف، وإنْ بصيغة مغايرة. ويمثل هذا المفهوم أحد الأعمدة الأساسية للتبرير الأيديولوجي، وهي فكرة طاغية في معظم أدبيات التيار السلفي، وقاعدة للحكم والإدارة، ومقياس

(9) وردت في الهامش، انظر: عزمي بشارة، **تنظيم الدولة المكنّى «داعش»**، 2 ج (بيروت: المركز العربي لأبحاث ودراسة السياسات، 2018)، ص 234.

للتمييز بين «الإسلام القويم» وما عداه. وبمقتضى ذلك فكل ما تقوم به الجماعة صحيح طالما ساير أفعال «السلف الصالح»، الذين ينحصر حضورهم التاريخي في ثلاثة أجيال تمتد من النبي وصحبه، ومن جاء بعدهم حتى وفاة الإمام أحمد بن حنبل، أي الحقبة من 610 ميلادية وقت نزول الوحي وانتهاءً بعام 855م[10].

في المقابل، يشدِّد مؤيدو نظرية الاستبدال العظيم على قذارة المهاجرين ـ وبخاصة من الدول الإسلامية – بوصفهم منبع انحطاط أوروبا. فيركزون على أوجه القصور الاجتماعية والثقافية والعرقية التي يعانيها المهاجرون المسلمون ويقرونها بالأوروبيين البيض. وفي عدد من المواقف، يتأولون التدهور الملحوظ لمناطق سكنى المجموعات السكانية المتنوعه عبر تحريف إحصاءات الجريمة والتفاوت الاقتصادي، للإشارة إلى أن مجتمعات المهاجرين مسؤولة مباشرة عن هذا التدمير بسبب بعض الاختلافات الفطرية وغير القابلة للتغيير. ويستخدمون هذه الحجة للإشارة صراحة أو ضمنًا إلى أن مجتمعات المهاجرين غير نقية ولها تأثير ملوث في المجتمع المضيف[11].

إن الاعتقاد بنقاء الذات وقذارة الآخر، يرتبط به أيضًا الرفض التام للتعددية. وهو ما يصر على تأكيده خطاب اليمين المتطرف. ويتكرر الإلحاح على أن أحد مصادر الفساد والانحطاط العام ناجم عن التعددية الثقافية ونظرية «الصهر الثقافي» الأمريكية[12].

يشار هنا إلى أن رفض التعددية الثقافية ليس مقتصرًا على اليمين المتطرف فحسب، فـ«عقيدة الولاء والبراء» تجعل المسلم الحق طبقًا لشروطها لا يندمج في مجتمع «العدو» البعيد أو القريب أو يحاكي أيًا من عاداته حتى أتفهها، بما فيها تلك التي «تتصل بالحديث واللباس أو الأكل والشرب»[13].

إن كل خطاب يؤسس لأولوية العنصر الذي ينهض لأجله. لذلك ليس غريبًا أن يدعو المؤلف الضمني لنص «إدارة التوحش» إلى عدم الخروج عن الحاكم المسلم الذي يحتكم للشرع ولو كان ظالمًا، وهو ما يحمل ضمنًا رفض الخروج عن التنظيم إن وصل إلى الحكم، في حين يجوز ذلك على غيره من الحكام الطغاة[14].

---

(10) يورد محمد الحاج سالم هذا التحديد الدقيق للأجيال الثلاثة في هامش دراسته، انظر: «من أجل مقاربة نفسية اجتماعية للظاهرة السلفية في تونس،» في: **السلفية الجهادية في تونس: الواقع والمآلات**، مراجعة وتحرير محمد الحاج سالم (تونس: المعهد التونسي للدراسات الاستراتيجية، 2014)، ص 159.

(11) Davey and Ebner, *The Great Replacement: The Violent Consequences of Mainstreamed Extremism*, pp. 12-13.

(12) «برينتون تارانت: الاستبدال العظيم،» المعهد المصري للدراسات، ص 41.

(13) الحاج سالم «من أجل مقاربة نفسية اجتماعية للظاهرة السلفية في تونس،» ص 162.

(14) عزمي، «إدارة التوحش في زمن ذئاب داعش المنفردة،» ص 108.

أما الخطاب اليميني فلا يهتم إلا بكل ما هو أبيض، وليس لديه مشكلة في الاندماج الحاصل بين عنصرين من بلدين مختلفين، ما داما من الجنس الأبيض، في حين غير ذلك مرفوض وغير مقبول.

2 ـ الإيمان بنظريات المؤامرة

إذ يؤمن المتطرفون بنظرية أو أكثر، يرون بها أن خصومهم يخططون سرًا تخطيطًا يوقف أي محاولات من جانب جماعتهم للنهوض.

وكثيرًا ما يتحدث الإسلاميون عن المؤامرة العالمية ضد الإسلام والمسلمين، وربما لا نجد حرصًا على سرد هذه السردية في **إدارة التوحش**، لكنها في الواقع سردية حاضرة وبقوة في خطاب الحركة الإسلامية بوجه عام، ويمكن التدليل عليها بسهولة. وتغزل السردية على كثير من العناصر المتآمرة على الإسلام: الولايات المتحدة والغرب المسيحي، واليهود، ومؤسسات الإعلام، والحكام العرب المتآمرين... إلخ.

كذلك لا يخلو خطاب اليمين المتطرف من نظريات المؤامرة، وأبرزها في هذا الصدد نظرية الاستبدال العظيم؛ فيحرص الخطاب في النص المدروس على النظر إلى حوادث الاعتداء الجنسي المزعومة التي يقوم بها المسلمون في أرجاء الغرب الأبيض على أنها مخططة عن عمد، ولا يبرر المؤلف لماذا يتم تدبير هذه الاعتداءات الجنسية على التوالي وعلى نحوٍ مكرر على حد وصفه[15].

إن تصور وجود مؤامرة يحيكها المسلمون، هي نتاج طبيعي لما يروّج على وسائط الاتصال من جانب اليمينيين. فيتم تقديم تصور عن نظام هرمي من المتآمرين. ويقع في قمة الهرم نخبة منحطة قوية وسرية تسعى لتقويض الدول القومية (العرق الأبيض، ونموذج العائلة التقليدي... إلخ). ومن المفترض بحسب هذه النظرية أن يؤدي ذلك إلى تحويل الناس إلى كتلة جماهيرية فارغة مختلطة الأنساب وتحمل قيمًا مربكة، كتلة غير قادرة على التفكير بحرية وعاجزة عن مقاومة النخبة الشريرة. كما أن النخبة تقوم بضبط إيقاع أعمال المنظمات الدولية وهيئات الدولة، ومؤسسات الإعلام السائدة والمنظمات الإسلامية المسؤولة عن تنسيق عمليات الهجرة إلى الدول الأوروبية[16].

ومثلما نجد في الخطاب الإسلاموي في عمومه إشارات إلى دور اليهود في المخطط العالمي المصاغ ضد الإسلام والمسلمين، يقوم مؤيدو نظرية الإحلال العظيم بنظريات معادية لليهود، حيث يلقون باللوم على «النخبة اليهودية العالمية» في ما قامت به من هجرة جماعية إلى الولايات

(15) «برينتون تارانت: الاستبدال العظيم،» المعهد المصري للدراسات، ص 34.

(16) Andres Kasekamp, Louis Wierenga and Mari-Liis Madisson, «Discursive Opportunities for the Estonian Populist Radical Right in a Digital Society,» *Problems of Post-Communism Journal*, vol. 66, (2019), p. 9.

المتحدة. كذلك ربط عدد كبير من شبكات اليمين المتطرف فكرة «الاستبدال العظيم» بما يسمى «خطة كاليرجي»، التي توحي بأن الأكاديميين والسياسيين اليهود يتآمرون عمدًا لتغيير التركيبة العرقية لأوروبا وأمريكا كجزء من مناهضة واسعة لأجندة عمل البيض[17].

وفي المجمل، عند النظر في النصين موضع التحليل، نجدهما يتبنيان نظريتين للمؤامرة يقومان على احتكار المكان. فمن جهة يرى الخطاب السلفي أن العالم ينقسم إلى كتلتين، واحدة منهما تمثل مركز العالم، والأخرى هي التوابع. من جهة أخرى يستعمل الخطاب اليميني ذات المكنة من رسم صورة مكانية عن العالم، يستبدل فيها طرف طرفًا آخر من خلال تحركه عبر المكان من موضع ولادته إلى موضع آخر، على نحو يسميه أحد الباحثين «الاحتلال المضاد»، أو بالأدق «الاحتلال/الغزو الناعم».

3 ـ الوصف الديستوبي للمجتمع

لعل الخطاب الإسلاموي قد بدأ الإشارة إلى ذلك الوصف باكرًا بترشيحه لاصطلاح «المجتمع الجاهلي»، تعبيرًا عن تصوره عن العالم المعاصر كعالم منغمسة أفراده في الملذة، وتحت سيطرة أجهزة الدولة التنفيذية والتشريعية[18].

وتبدو ملامح المجتمع الديستوبي في خطاب اليمين المتطرف في قول المؤلف: «الغوغاء أنفسهم يحكمهم أعداؤنا، تسيطر عليهم الصحافة العالمية والشركات، ونظام التعليم (لمدة طويلة سقط في يد مؤسسات أسسها الماركسيون) يسيطر عليهم، وتسيطر عليهم الدولة (منذ مدة طويلة مسيَطر عليها بشدة من أنصار الشركات). وماكينة إعلام أعداء البِيض تسيطر عليهم»[19].

إن الوصف الديستوبي للمجتمع الغربي، يحدد السمات المنحطة من وجهة نظر المؤلف التي أصبح عليها مجتمعًا عدميًا، فالأسرة نظام متحطم مع ارتفاع معدلات الطلاق وقلة عدد المواليد، وزيادة معدلات الانتحار، وتعاطي المخدرات بين أبناء المجتمع كافة، توسع المدن على حساب الغابات، الاستغلال الجنسي للأطفال من جانب فنانين وكهنة وسياسيين، وحلول أشكال جديدة من الفن المزيف محل الفنون الحقيقية، وتدني ذوق الأسلوب المعماري في بناء المدن، وشخصيات فنية عدمية (مايكل جاكسون ومادونا... إلخ)[20]. ويرى المؤلف أن هذا الخراب، وهذه العدمية المنظورة

---

(17) Davey and Ebner, *The Great Replacement: The Violent Consequences of Mainstreamed Extremism*, p. 12.

ولقد قدّم عالم الاجتماع الألماني ليو لوفنتال مع نوربرت غوترمان تحليلًا لخطاب اليمين المتطرف ودوره في التمييز ضد اليهود في أمريكا، وذلك في كتابهما المعنون بـ**أنبياء الخداع: دراسة لأساليب المحرضين الأمريكيين**، انظر: Leo Lowenthal and Norbert Guterman, *Prophets of Deceit: A Study of the Techniques of the American Agitator* (New York: Happer and Brothers Press, 1948).

(18) عزمي، «إدارة التوحش في زمن ذئاب داعش المنفردة،» ص 76.

(19) «برينتون تارانت: الاستبدال العظيم،» المعهد المصري للدراسات، ص 28.

(20) المصدر نفسه، ص 38.

ليست موضع احتقار لأهلها من البيض فحسب، لكنها لا تجذب إليها المهاجرين، فيفضلون في المقابل الحفاظ على ثقافاتهم وعاداتهم غير الأوروبية[21].

4 ـ النزعة التنبؤية

يتخلل الخطاب نزوع للاعتقاد بالقدرة على التنبؤ بالمستقبل ورسم معالمه، انطلاقًا من الإيمان بنظريات نهاية العالم. ولسوف نجد كثيرًا من النظريات التي يعمل المتطرفون على نشرها وتأويلها على نحو ينبئ بانتصار فريقه على خصومه.

إن القدرة على التنبؤ جزء لا يتجزأ من الخطاب، حيث يميل صانعه إلى إبراز قدرته على تخيل المستقبل وتحسس مواضعه، بل إن الشخصيات التي تمتلك هذه القدرة الخارقة للعادة هم موضع احترام عادة. وهو ما نجده في خطاب السلفية الجهادية لإضفاء ملامح نبوية على شخصياته وزعاماته[22].

وما نجده كذلك في خطاب اليمين المتطرف فهو يرسم لحظة التحول الفارقة، ويحدد مكانها وشخصياتها بدقة، كما يرد على النحو التالي: «قريبًا سيصل استبدال البِيض داخل (تكساس) إلى ذروته، السيطرة السياسية والاجتماعية غير البيضاء على (تكساس)، سيكون المجمع الانتخابي مكدسًا بشدة لصالح فوز ديمقراطي... إلخ»[23].

5 ـ عدم الإيمان بالنظام الديمقراطي

يقدم الخطاب الإسلاموي عمومًا تشكيكًا في النظم الديمقراطية، ويراها نظمًا شكلية، وخارجة عن المرسوم شرعًا. ولا يقدم خطاب كتاب **إدارة التوحش** صورة واضحة عن النظام السياسي بعد الوصول إلى دولة الخلافة. ربما لانشغال النص بالوصول إلى التمكين وحدوثه، فهو كتاب حول ما قبل الوصول إلى الحكم، استنادًا إلى أن دولة الخلافة قد تم التنظير لها سلفًا، بينما المشكلات العملية لعملية الوصول ذاتها وتحققها، هو غير المنظور.

ومع ذلك، توجد إشارات تبين الانتظام في عدم الاهتمام بقوة الشعب، ويتم وصفها بالضعف والرسوخ في اللذات، أو التقليل بالنظام الديمقراطي لشكليته[24]. فالشعوب بهذا المعنى قوة مغفلة بلا وعي وملهية في اللذات، ولا يعول عليها[25]. لذا يتردد داخل الخطاب سخرية من النظام الديمقراطي المبني على منطق المصلحة، لا على منطق إيماني[26]. وبدلًا من قدرة الشعب على التغيير، يتم الاحتكام إلى الطليعة الشابة المؤمنة، أو بتعبير المؤلف «القلة الممتازة»[27].

---

(21) المصدر نفسه، ص 39.
(22) عزمي، «إدارة التوحش في زمن ذئاب داعش المنفردة،» ص 8.
(23) المصدر نفسه، ص 58.
(24) أبو بكر الناجي، **إدارة التوحش**، ص 6.
(25) المصدر نفسه، ص 21.
(26) المصدر نفسه، ص 78.
(27) المصدر نفسه، ص 75.

في المقابل يتحرى اليمين المتطرف الأسباب العرقية. فما دام هذا النظام يقوم على أساس الغلبة للأكثرية، فهو يقضي بذلك بسيطرة الأجانب من المهاجرين، وبخاصة المسلمين. ومن ثم فلا جدوى من الاعتماد على هذا النظام الذي يحكم فيه الغوغاء[28].

6 ـ النزعة الاستراتيجية

يسعى المتطرفون لرسم الخطوات الاستراتيجية اللازمة للعمل في المستقبل لتحقيق الأهداف المنشودة للتنظيم. ففي خطاب السلفية الجهادية، يوجد وصف لمراحل التطور حتى الوصول إلى دولة الخلافة المأمولة، وينضوي تحت كل مرحلة عدد من الخطوات والاستراتيجيات التي يجب القيام بها: أولى المراحل مرحلة النكاية والإنهاك، وثانيتها مرحلة إدارة التوحش، وثالثتها مرحلة التمكين.

في المقابل، يحدد خطاب اليمين المتطرف عددًا من الاستراتيجيات التي ينبغي تنفيذها لتحقيق الهدف المنشود وهو غلبة البيض، حيث يتم التشديد على الدفع نحو خلخلة الوضع المستقر وزعزعته، والوصول به إلى مرحلة من الاستقطاب الذي يصب في النهاية لمصلحة اليمين المتطرف. وذلك من خلال التصويت للشخصيات الراديكالية والمتحدية لما يسميه الخطاب الدولة العميقة، أو الشخصيات الراديكالية بعامة، وإشعال غضب البيض ضد المهاجرين. كذلك العمل اقتصاديًا على حظر المنتجات الأجنبية، وتضييق الخناق على العمالة الأجنبية؛ باللجوء إلى آليات متنوعة ومتعارضة، من قبيل فرض الحد الأدنى للأجور لتعجيز الطبقة الرأسمالية، أو الوقوف وراء النقابات العمالية، أو المطالبة بحقوق العمال، أو بدعم اعتماد الطبقة الرأسمالية على التكنولوجيا محل العمال، ثم أخيرًا اللجوء إلى تكنيك عدم دفع الضرائب.

والملاحظ غلبة مفهوم التصعيد على الجانبين، وكل من الخطابين يقدم معناه بدلالة مختلفة: فالخطاب السلفي المتشدد يسميه التدافع، ويذكرها في موضعين مهمين، تارة لتبرير العنف[29] وتارة أخرى يصفها بالسنّة [30].

ويصفها خطاب اليمين المتطرف بالاستقطاب، أي الدفع في اتجاه شق الصف، وهو ما يؤكده في مواضع كثيرة، وبخاصة حين يوجه الأنظار إلى الولايات المتحدة كهدف للعمليات، حيث يتم دفع الصفوف نحو الفتنة الطائفية بين البيض والسود في أمريكا، وهو ما يمهد الطريق أمام البيض للتخلص من الأجانب. ولعل أصل هذا التوجه نظرية مفادها أنه ينبغي الإسراع في التقدم التكنولوجي والاجتماعي لزيادة عدم الاستقرار وتحقيق تغيير سياسي ثوري. النظرية هذه صاغها في الأصل الفيلسوف نيك لاند[31].

---

(28) «برينتون تارانت: الاستبدال العظيم،» المعهد المصري للدراسات، ص 51.

(29) أبو ناجي، **إدارة التوحش**، ص 95.

(30) المصدر نفسه، ص 97.

(31) Davey and Ebner, *The Great Replacement: The Violent Consequences of Mainstreamed Extremism*, p. 13.

خاتمة

إن نقاط الاتفاق والمشتركات الفكرية بين السلفية الجهادية واليمين المتطرف ليست بالأمر المستجد؛ فقد جرت محاولات لباحثين كثر، حاولوا بناء ارتباطات بين التصورات الإسلاموية في عمومها من ناحية والتصورات القارة في الأيديولوجيات الشمولية، كالفاشية والشيوعية.

بدأت هذه المحاولات باكرًا بالربط بين الدين الإسلامي نفسه والأيديولوجيات الشمولية، أو بالتدشين للحديث عن الفاشية والنازية والشيوعية بوصفها أديانًا علمانية، على الرغم مما في ذلك من غياب للدقة. ولا شك في أن خطاب اليمين المتطرف يحمل في طياته بعض التصورات الفكرية الشمولية، وهو ما يجعل هذا الترابط الممكن بينه وبين خطاب السلفية الجهادية تحصيل حاصل، هذا على الرغم من الاختلاف القائم في الغاية وأسلوب الممارسة، والسياق المنتج.

ولعل أبرز هذه المحاولات التي هدفت إلى بيان نقاط الاتفاق بين الشمولية والحركات الأصولية الإسلامية، ما قام به ستيفن أولف من مقارنة، حين حدد عددًا من السمات الأساسية الملازمة للفاشية والأصولية الإسلامية، شملت: كمون الحقيقة في الأصالة والموروث؛ الدعوة إلى الثورة الإنسانية؛ البطل المنخرط في الصراع؛ وتقديس الجماعة على حساب الفرد[32].

وفي هذا الإطار الذي تتشابه فيه الأيديولوجيا الأصولية مع نظم الفكر الشمولي، يشير شريف يونس إلى أن النقد الحاد الذي قدمه سيد قطب للمجتمع الغربي كمجتمع يعاني الاغتراب إنما يستند إلى ما قدمته بعض الاتجاهات الفكرية الأوروبية – الفاشية بخاصة ـ من نقد. ويؤكد ذلك بالإشارة إلى أحد الباحثين الغربيين الذي كشف عن التشابه بين فكر سيد قطب وفكر ألكسيس كاريل، الفاشي الفرنسي الذي استشهد به سيد قطب مطولًا في كتابه **الإسلام ومشكلات الحضارة**[33].

يشار كذلك إلى تأثر كثير من القادة والمفكرين الإسلاميين بشدة بالأيديولوجيات والحركات السياسية الغربية الحديثة مثل الحركات القومية والشيوعية والفاشية، ولا سيما أساليب تنظيمها (إنشاء مجموعات الجبهة والتسلسلات الهرمية الموازية)، وطرقها في الدعاية، والتلقين العقائدي والتعبئة الجماهيرية. بل ادعى أبو الأعلى المودودي أن الإسلام هو بمنزلة حزب ثوري مشابه للشيوعية والفاشية. كذلك تأثر حسن البنا بوضوح بالأفكار الفاشية وطرق التنظيم. بينما كرس سيد قطب قدرًا كبيرًا من اهتمامه بالتشديد على الدور الحيوي لـ«الطليعة» المسلمة في تنظيم المسلمين وتجنيدهم و«التثقيف» على النحو الصحيح. هذا على الرغم من أن إصطلاح الطليعة غير قائم في التراث والأصول الإسلامية وهو أقرب إلى مفهوم فلاديمير لينين عن «الحزب الطليعي» الثوري[34].

---

(32) ستيفن أولف، «تقديس السياسة أم تسييس المقدس،» ترجمة جهاد الحاج سالم، **الحوار اليوم**، <http://www.alhiwartoday.net/node/11183>.

(33) شريف يونس، **سيد قطب والأصولية الإسلامية** (القاهرة: دار طيبة، 1995)، ص 208.

(34) Jeffrey M. Bale, «Islamism and Totalitarianism,» *Totalitarian Movements and Political Religions*, vol. 10, no. 2 (June 2009), p. 82.

ويذهب تقرير بعنوان «محبة الكراهية: التطرف المعادي للمسلمين والإسلاموية الراديكالية ومنحنى الاستقطاب»، إلى أن هناك تفاعلًا بين اليمين المتطرف والحركات الإسلاموية المتطرفة سواء على مستوى المضمون الفكري أو على مستوى الاستراتيجيات المفعلة. فقد أظهر التقرير التشابه في رؤى العالم وأسلوب المحاجَّة على ثلاثة مستويات: شيطنة الأعداء بالتمييز بين الأصدقاء والأعداء، وتمثيل الجماعة كضحية، والإيمان بالمؤامرة. كما يكشف تحليل محتوى مادة ما ينشر على حسابات الإسلاميين واليمينيين المتطرفين حيث يستخدمان معًا الكلمات والاصطلاحات نفسها، وإن كان اليمينيون هم الأكثر استعمالًا لمفردات الإسلاميين، ومن ذلك استعمال تراكيب اصطلاحية إسلاموية مثل «الجهاد الأبيض»، و«الشريعة البيضاء»[35] □

يرد مفهوم «الطليعة» في كتاب **معالم في الطريق**، حيث يقول سيد قطب: «إنه لا بد من طليعة تعزم هذه العزيمة، وتمضي في الطريق، معالم تعرف منها طبيعة دورها، وحقيقة وظيفتها، وصلب غايتها». انظر: سيد قطب، **معالم في الطريق** (القاهرة: دار الشروق، 1979)، ص 11.

(35) Maik Fielitz [et al.], «Hassliebe: Muslimfeindlichkeit, Islamismus Und Die Spirale Gesellschaftlicher Polarisierung (Deutsch),» <https://bit.ly/3fTsfl1>.

يوسف الرويسي والاتجاه القومي العربي في الحركة الوطنية التونسية (1945 – 1955)

هاني الشهيدي(*)

باحث من تونس.

تمهيد

يعَدّ يوسف الرويسي من رجال الحركة الوطنيّة التونسيّة الذين فرضوا أنفسهم على الساحة السياسية، فهو عروبيّ التوجه زيتوني التكوين والثقافة، كان قد ترجم ذلك منذ الأربعينيات من خلال تضامنه مع القضية الفلسطينية وتفاعله مع آلام شعبها. وكان قد أبدى تحمّسًا كبيرًا مع «الأطروحات الوحدويّة» لمصلحة بن يوسف أثناء «صراعه» مع الحبيب بورقيبة. وفي الخارج، لم يكن ناطقًا باسم الحزب الدستوري الجديد بقدر ما كان ناطقًا باسم القضية المغاربيّة، إذ أسّس رفقة مجموعة من المناضلين المغاربة هيكلًا سياسيًّا ومنبرًا دعائيًا لقضية المغرب العربي، وأصدروا جريدة ناطقة باسمه في برلين استعملت فيها لأوّل مرة كلمة المغرب العربي عوضًا من «الشمال الأفريقي».

فمن هو يوسف الرويسي؟ وما مدى تأثيره في الحزب الدستوري الجديد؟ وكيف ترجم أطروحاته المغاربيّة والوحدويّة؟ وما موقفه من الصراع الذي دار بين الحبيب بورقيبة وصالح بن يوسف؟

أولًا: يوسف الرويسي: النشأة والتكوين وتأثيره في الحزب الحر الدستوري

ولد يوسف الرويسي في مدينة «دقاش» في منطقة الجريد يوم 20 تشرين الأول/أكتوبر 1907 من عائلة ذات منزع ديني «صوفي»[1]، تلقى في بادئ الأمر تعليمًا تقليديًا قوامه حفظ القرآن وتعلم اللغة العربية، ثم انتقل إلى العاصمة تونس ليلتحق بالخلدونية وبجامع الزيتونة ليتتلمذ على يدي أهم الشيوخ آنذاك.

(*) البريد الإكتروني: hanichhidi1985@gmail.com

(1) عبد الجليل التميمي، «مذكرات يوسف الرويسي السياسية،» **المجلة التاريخية المغاربيّة** (تونس)، العددان 35ـ36 (1984)، ص 159.

ولقد كان لجامع الزيتونة دور بارز في تكييف رصيد ثقافته وارتباطاته القومية ذات الطابع العروبي ـ الإسلامي[2]، وبذلك يكون قد مزج بين تعليم تقليدي مرجعه جامع الزيتونة وآخر عصري أساسه الخلدونيّة. هذا التكوين سيكون له الأثر البارز في نحت شخصية الرويسي في ما بعد من خلال المراوحة بين الحداثة والأصالة.

في سنة 1926 انخرط الرويسي في الحزب الحرّ الدستوري التونسي[3] وهو لم يبلغ سن العشرين، الأمر الذي يدلّ على نضجه السياسي المبكر. وفي سنة 1932 انخرط في حركة سياسية في منطقة الجريد تهدف أساسًا إلى الكشف عن تجاوزات «أعوان الدولة» في حق الأهالي بتلك المنطقة.

وخلال الحقبة نفسها التي شهدت أحداثًا دامية في إثر صدور قانون التجنيس، عبّر الرويسي في أكثر من مناسبة عن رفضه لهذا الإجراء من خلال تصدّيه لهذه الظاهرة في منطقة الجريد[4]. كما شارك في الاجتماعات التي عقدها الدستوريّون والزيتونيّون ضد احتفالات «خمسينية الاحتلال» حيث ورد اسمه ولأوّل مرة لدى تقارير السلطات الأمنية الفرنسية في 5 كانون الأول/ديسمبر 1930[5].

وفي سنة 1933، قدّم مذكرة سياسية إلى لجنة التحقيق البرلمانية التي كان يترأسها «كرينيت»، ومثل شعبة «دقاش» في مؤتمر نهج الجبل وانتخب كاتبًا عامًا للجنة السياسية التي كلفت بوضع ميثاق للحزب[6]، كما انتخب رئيسًا للجامعة الدستورية في منطقة الجريد سنة 1935.

وخلال وجوده في المجلس الملّي، منح الرويسي لهذا الحزب مضمونًا جديدًا وحركية كبرى قوامها الاتصال المباشر بالجماهير، حيث ركز على تكوين قاعدة وطنية شعبيّة باستطاعتها الدفاع عن المطالب الوطنية وترجم ذلك بتأسيس منظمة تدافع عن مصالح الجريد لتشمل بعد ذلك منطقة الوسط التونسي.

وخلال سنوات 1926ـ 1934 نشر الكثير من المقالات الصحافية باللغة العربيّة نقد فيها وبشدة السياسة الاستعمارية بمناطق الجنوب التونسي، وهو ما أثار حفيظة الدوائر الفرنسية من جهة وإعجاب بعض الشخصيات الوطنية به من جهة أخرى[7]. وفي سنة 1934، مثل الرجل شعبة

(2) المصدر نفسه، ص 106.

(3) علي المحجوبي، **الحركة الوطنية التونسية بين الحربين** (تونس: منشورات الجامعة التونسية، 1986)، ص 104.

(4) *I.S.H.M.N,* Q 638, C 227, D1: «Notices Biographique,» pp. 82-84ff.

(5) أ.و.ت: مل. حركة. وط: ص 15، مل 2، صن 25: مذكرة أمنية.

(6) علي الزيدي، **الزيتونيون ودورهم في الحركة الوطنية التونسية من 1904 إلى 1945**، تقديم عبد الجليل التميمي (صفاقس: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2007)، ص 214.

(7) عبد الجليل التميمي، «في ذكرى المرحوم يوسف الرويسي،» **المجلة التاريخية المغاربية**، العددان 21ـ22 (نيسان/أبريل 1980)، ص 5 – 6.

«دقاش» في مؤتمر قصر هلال الذي سيشكل منعرجًا حاسمًا لا في حياته وفي تاريخه النضالي فحسب، بل في تاريخ الحركة الوطنية التونسية.

انطلق الرويسي بعد هذا المؤتمر في جولات كثيرة رفقة الحبيب بورقيبة لنشر مبادئ الحزب الجديد وتنظيم شعبه، لتقوم السلطات الاستعمارية بنفيهما إلى «تطاوين» ثم إلى «برج لوبوف» في 3 أيلول/سبتمبر 1934 لتعاظم نشاطهما[8]. وفي سنة 1936 أُطلق سراحه وانتُخب رئيسًا لجامعة شعبة الجريد الدستورية وأوكل إليه الحزب مهمة الدعاية لجامعة عموم العملة التونسيين في أوساط عمال مناجم الفسفاط في الجنوب التونسي. وفي سنة 1937، تولى يوسف الرويسي مهمّة الدعاية الحزبيّة في الوطن القبلي والشمال الغربي[9]. وخلال مؤتمر الحزب الجديد بنهج «التريبينال»، أعيد انتخابه عضوًا في المجلس الملّي لدوره الفعال في بناء الحزب والتعريف به في مختلف الأوساط السياسية والنقابية ولجميع الشرائح الاجتماعية.

وقبيل أحداث 9 نيسان/أبريل 1938، وتحديدًا يوم 4 نيسان/أبريل من تلك السنة اعتُقل رفقة أعضاء الديوان السياسي (صالح بن يوسف والهادي نويرة) حيث بقي قابعًا في السجون الفرنسية إلى حدود عام 1940 عندما قامت السلطات الاستعمارية بنقله مع بقية أعضاء الديوان السياسي إلى مرسيليا لتفرج عنهم قوات المحور أثناء احتلالها لفرنسا كإجراء يصبّ في خانة كسب ودّ زعماء حركات التحرر ولا سيما تلك التي كانت مستعمرة من طرف فرنسا وبريطانيا. وأثناء الحرب العالمية الثانية، وتحديدًا بعد عودة القوات الفرنسية إلى تونس، هرب نحو أوروبا (روما) رفقة مجموعة من الوطنيين على غرار الحبيب ثامر وحسين التريكي، اللذين أسّسا رفقة ممدوح الميداني والرشيد إدريس وأمين الحسيني أول نواة للنضال المغاربي المشترك في المهجر، فكان مكتب المغرب العربي ببرلين في يوم 21 تموز/يوليو 1943 الذي كانت الغاية من تأسيسه التعريف بالقضية الوطنية التونسية والمغاربية بالخارج والعمل على جمع كل القوى المغاربية[10].

وبعد انتهاء الحرب العالمية، تحوّل نحو المشرق العربي أين ساهم في تأسيس مكتب المغرب العربي في القاهرة عام 1947، ومكتب المغرب العربي في دمشق عام 1946. وخلال وجوده في سورية ساهم مساهمة كبيرة في التعريف بالمغرب العربي وبقضاياه لدى الأوساط السوريّة. كما شارك في التحضير لمؤتمر المغرب العربي الذي انعقد في القاهرة في شباط/فبراير 1947 وعيّن ممثلًا للمغرب العربي لدى الجامعة العربية[11]. وخلال الحرب العربية – الإسرائيلية الأولى،

---

(8) المصدر نفسه، ص 82.

(9) *I.S.H.M.N*: Q638, D1 «Notices Biographique» pp. 85-86 ff.

(10) الحبيب ثامر، **هذه تونس** (القاهرة: مكتب المغرب العربي، 1948)، ص 164.

(11) خالد عبيد، «من معوقات البحث: مكتب المغرب العربي بالقاهرة مثالًا، 1947ـ1949،» في: **منهجية كتابة تاريخ الحركات الوطنية في المغرب العربي أعمال المؤتمر الأول لمنتدى التاريخ المعاصر [الذي انعقد بزغوان من 27 إلى 29 نونبر 1997]** (زغوان: مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، 1998)، ص 49.

عيّنه الديوان السياسي للحزب الجديد مسؤولًا عن المقاتلين من أبناء المغرب العربي في حرب فلسطين[12].

هذا السجل النضالي للرجل سيتدعّم أكثر وبتصور أعمق وأشمل من المنظور «القطري الضيّق» ليتخذ منحى مغاربيًا وعروبيًا يسعى إلى ربط المغرب بالمشرق العربي من خلال الدفاع عن قضاياه وعن وحدته.

ثانيًا: التصوّر القومي العربي لدى يوسف الرويسي

1 ـ الرويسي والمشرق العربي

بعد خسارة ألمانيا في الحرب العالمية الثانية وفشل مشروع مكتب المغرب العربي ببرلين في أداء ما كان مرجوًا منه، وبعد استقلال الكثير من البلدان العربية في المشرق وتأسيس جامعة الدول العربية في آذار/مارس 1945، التجأ الرويسي نحو سورية لتحسيس حكومتها وشعبها بقضية المغرب العربي. ويأتي توجهه نحو المشرق العربي في إطار التعريف بالقضية الوطنية التونسية والمغاربيّة، وهو توجّه جديد لزعماء الحركات الوطنية في كل من المغرب الأقصى والجزائر وتونس، وعند وصوله دمشق التقى بالرئيس السّوري شكري القوتلي وتطرق إلى أوضاع المغرب العربي وإلى المساعدة التي يمكن أن تقدّمها سورية المستقلة حديثًا إلى هذه البلدان[13].

ومنذ حلوله بدمشق بدأ بالدعاية للقضية الوطنية التونسية والمغاربية، إذ صرّح لجريدة **المنار**، وهي جريدة ناطقة باسم حركة الإخوان المسلمين، بأنه جاء لطلب المساعدة من الشعب والحكومة السورية بقوله: «أنا لم آتِ لسوريا تاجرًا ولا سائحًا وإنما جئتها داعية لقضية بلادي، أعرّف بها وأكسب لها الأنصار...»[14].

ومن المواقف المسجلة للرجل في مذكراته إعجابه بسورية وبعدم تأثير المستعمر الفرنسي فيها وفي ثقافتها، «فالمستعمر رحل ولم يترك شيئًا وراءه في سوريا، وحتى اللغة الفرنسية لا يوجد ما يدل على وجودها وكأنها لم تستعمل بهذه البلاد مدة تزيد عن ربع قرن»[15].

وبما أنه كان يؤمن بالاتصال المباشر بالجماهير منذ أن كان في تونس في مرحلة التعبئة للحزب الحر الجديد متأثّرًا في ذلك بالزعيم الحبيب بورقيبة، فقد واصل نهجه حتى في المشرق. فكان أوّل اتصال يقوم به بالجماهير في سورية عند ما دُعي إلى إلقاء محاضرة حول «وضع

---

(12) عبد الجليل التميمي، «المسألة الفلسطينية وعلاقات الحبيب بورقيبة بالمؤتمر اليهودي العالمي،» ورقة قدمت إلى: **الحبيب بورقيبة وإنشاء الدولة الوطنية؛ قراءات علمية للبورقيبية: أعمال المؤتمر العالمي الأول المنعقد بتاريخ 1ـ3 كانون الأول/ديسمبر 1999** (زغوان: مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، 2000)، ص 42 ـ 43.

(13) عبد الجليل التميمي، **كتابات ومذكرات المناضل يوسف الرويسي مع وثائق جديدة تنشر لأول مرة** (زغوان: منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، 1995)، ص 129.

(14) «المناضل يوسف الرويسي بدمشق،» **الزهرة** (12 آب/أغسطس 1946)، ص 1.

(15) المصدر نفسه، ص 1 ـ 2.

المغرب العربي تحت الهيمنة الاستعمارية الفرنسية» وكان ذلك في نادي الإخوان المسلمين[16]. وكانت قضية المغرب العربي موجودة في أذهان ووجدان السوريّين فكان الحضور حاشدًا واستُقبل الرويسي بالتصفيق والهتاف بحياة المغرب العربي[17].

كما بسط قضية المغرب العربي من عدة جوانب، وأكد أن الاستعمار الفرنسي يختلف عن أي استعمار في أي مكان آخر، فهو لا يعدو أن يكون مجرّد استعمار لفتح أسواق، بل «هو استعمار ثقافي بالأساس يهدف إلى طمس مقوّمات الهويّة العربية لدى شعوب المنطقة»[18]. كما نبّه خلال تلك المحاضرة إلى خطورة الاستعمار الفرنسي على شعوب المغرب العربي بدءًا بطمس لغته العربية وجعل الفرنسية بديلًا منها وختم محاضرته بقوله: «لعله يكون من قبيل المعجزات أن يقف أمامكم الآن مغربي يحدّثكم بلغة عربيّة خالية من الأخطاء»[19].

وتواصل سعي الرويسي للتعريف بالقضية المغاربية وتوضيح أبعاد الاستعمار الفرنسي وخطورته على عروبة المغرب العربي من خلال إلقائه محاضرة في مكتب حزب البعث العربي الاشتراكي بدمشق[20] في ذكرى إحياء المولد النبوي. وقد ألقى الرويسي كلمة مباشرة بعد إلقاء عميد الحزب ميشيل عفلق كلمته، وتحدث خلال تلك المحاضرة عن الأصول العربية لشعوب المغرب العربي وعن وزنهم الديمغرافي وكيف استطاعوا أن يحافظوا على عروبتهم لقرون متعددة أمام الغزاة. كما تحدث عن نضالهم «الجبّار» ضد المستعمر الفرنسي الذي لم يدّخر جهدًا لطمس الهوية العربية – الإسلامية لهذا الشعب. كما تطرق إلى التعتيم الذي مورس على نضالات شعوب المغرب العربي. وبعد هذه المحاضرة، بعث حزب البعث بنصّ احتجاج إلى الجامعة العربية وللحكومات العربية يطالبهم فيها «بالاهتمام الجدّي بمصير عشرات الملايين من عرب المغرب الذين يفتك بهم الاستعمار الفرنسي ويهدّدهم بالفرنسة وبفصلهم عن العروبة».

كما بعث الحزب ببرقية مساندة لشعوب المغرب العربي أكد فيها مساندته المطلقة لنضالاتهم، وقد تناقلت الصحف التونسيّة نص برقية المساندة التي بعث بها الرويسي وحزب البعث[21].

2 ـ مكتب المغرب العربي في دمشق: أداة الرويسي لربط المغرب بالمشرق العربي

تعود الجذور الأولى لفكرة تأسيس مكتب سياسي ودعائي تعبوي في سورية إلى أواخر 1944 لكلّ من يوسف الرويسي والحبيب ثامر عندما كانا ينشطان في مكتب برلين. وتم الاتفاق بين الرجلين على «تأسيس مكتب يعنى بالقضية المغاربية من خلال جلب أعداد من الطلاب

---

(16) *I.S.H.M.N*: Q595. C27, Dossier unique «Activités des nationalistes Nord-Africain hors de la Tunisie, notamment dans les pays arabes,». ff 182 – 183.

(17) التميمي، **كتابات ومذكرات المناضل يوسف الرويسي مع وثائق جديدة تنشر لأول مرة**، ص 139.

(18) التميمي، «مذكرات يوسف الرويسي السياسية،» ص 164.

(19) المصدر نفسه، ص 167.

(20) «محاضرة المناضل العربي يوسف الرويسي في مكتب حزب البعث العربي الاشتراكي الجمعة الماضية،» **الزهرة** (8 شباط/فبراير 1948)، ص 1.

(21) انظر: **الزهرة** (11 شباط/فبراير 1948)، و**البلاغ** (14 شباط/فبراير 1948).

المغاربة إلى المشرق بعضهم يلتحق بالكليات العلمية لإتمام دراستهم الجامعية فتتكون منهم عناصر الثورة الثقافية، والبعض الآخر يرسلون إلى الكليات الحربية فيتخرّج منهم ضبّاط يكونون ركائز الثورة التحريرية المسلحة أيام الكفاح الوطني وإطارات للجيوش الوطنية بعد الاستقلال»[22]. وكانت الغاية من ذلك – بحسب تصورات يوسف الرويسي في مذكراته السياسيّة – تحقيق خطوة كبيرة نحو الوحدة العربية الشاملة من خلال ثورة مسلحة تشمل جميع أقطار المغرب العربي تواكبها ثورة ثقافية تقضي على الاستعمار الثقافي وتعيد للمغرب انطلاقة شخصيته العربية التي ظلت حبيسة الاحتواء الفرنسي لعشرات السنين. وبذلك – بحسب تصوّره – تتفجّر طاقات أبناء المغرب العربي وتنطلق مواهبهم في الخلق والإبداع ويساهمون في بناء المجتمع العربي الموحّد. وعمليًا تمّ رسم أهداف المكتب واستراتيجيته ونشرها عندما كان الرويسي وثامر في ألمانيا، هذه الاستراتيجية نشرت في مجلة **المغرب العربي** التي كانت تصدر في برلين. وتتلخص أهداف المكتب في:

ـ فكّ الحصار الذي أقامه الاستعمار الفرنسي على أقطار المغرب العربي ليحول دون تفاعلها الطبيعي مع بقيّة أجزاء الوطن العربي في المشرق.

ـ إيجاد سبل التعاون وإحكام أواصر الصداقة بين المغاربة والمشارقة والتعريف بالمغرب لدى المشرق وبالمشرق لدى المغرب.

ـ نقل صدى الكفاح التحريري في المغرب العربي إلى الخارج وتهيئة الوسائل الكفيلة بدعمه ماديًا ومعنويًا.

ـ جلب أعداد من الطلاب المغاربة إلى المشرق للدراسة في الكليات الجامعية والمعاهد الحربية[23].

ـ كما اهتم مكتب المغرب العربي بدمشق بعد تأسيسه في 1946، بحدثين مهمين يدخلان في الإطار العام لنشاطات المكتب آنذاك:

ـ قضية الجنود المغاربة الذين فرّوا من الجيش الفرنسي أيام العدوان على دمشق سنة 1945 وانضمّوا إلى المقاومين السوريين.

ـ رعاية شؤون المتطوّعين الذين التحقوا بالجيشين السوري واللبناني وجيش التحرير في حرب فلسطين سنة 1948.

ـ وامتد نشاط المكتب بدمشق ليشمل جميع بلاد الشام والأردن والعراق والكويت، وخلال سنوات 1946 – 1949 ركّز المكتب في نشاطه على:

ـ عقد مؤتمر المغرب العربي بالقاهرة.

---

(22) التميمي، **كتابات ومذكرات المناضل يوسف الرويسي مع وثائق جديدة تنشر لأول مرة**، ص 142.

(23) يوسف الرويسي، «نشاط مكتب المغرب العربي ببرلين من أواخر شهر أكتوبر 1943 إلى مارس 1945،» **المجلة التاريخة المغاربية**، العددان 7ـ8 (1977)، ص 20 – 21.

ـ معادلة شهادات الطلبة المغاربة للالتحاق بالجامعات السورية.

ـ تسوية أوضاع المغاربة المتطوّعين في حرب فلسطين[24].

وفي صائفة 1946 عقد مكتب المغرب العربي بدمشق مؤتمرًا برئاسة «العروسي الحدّاد» وبمساهمة الأحزاب والمنظمات الشعبية والشخصيات الوطنية البارزة، وأعلن المؤتمر «أن نظام الحماية هو نظام اقتصادي وسياسي لا يتفق مع السيادة القومية ولا مع المصالح الحيوية للشعب التونسي، وإنه لم يحقق مهمته المزعومة في نشر الحضارة... ويتأكد بعد تجربة دامت أكثر من خمس وستّين سنة أن هذا النظام هو استعماري بحت. ويقرر المؤتمر أمام العالم انتهاءه وزواله ويعلن أن الاستقلال التام العاجل بلا قيد ولا شرط هو النظام الوحيد الذي يمكّن من إزالة أخطاء الماضي ويكفل مصير الشعب التونسي الرشيد مع مصائر بقية بلدان المغرب العربي وتوحّدها – مستقبلًا – مع الأقطار المشرقية»[25].

وقد مثل هذا المؤتمر انعكاسًا وصدًى لـ«مؤتمر الاستقلال» بتونس في 23 آب/أغسطس 1946 الذي أجمع فيه الحاضرون من جميع القوى السياسية والنقابية على مطلب الاستقلال التام.

في تلك الحقبة هيّأ الرويسي الأجواء لزيارة الحبيب بورقيبة دمشق لعرض القضية التونسية والمغاربية على الشعب السوري لإدراجها ضمن جدول أعمال الجامعة العربية، فتم عقد أول اجتماع للزعيم بورقيبة بالجماهير السورية في مدينة حلب[26]. وخلال تلك المناسبة حضر الكثير من الأحزاب السياسية السورية ذلك «الاجتماع الشعبي» على غرار ميشيل عفلق الأمين العام لحزب البعث العربي الاشتراكي وظافر الرفاعي الأمين العام للحزب العربي القومي الذي عبّر عن نقده للحكومات والجامعة العربية لعدم اهتمامها بقضية المغرب من خلال قوله: «إن الاستعمار الفرنسي حاول اليوم أن يقتطع المغرب العربي من جسم الأمّة العربية وأن يرتكب جريمة لم يسبق لها مثيل في التاريخ... تقوم فرنسا بهذه المهمّة بينما حكومتنا منشغلة بأعمالها الخاصة وجامعتنا العربية منغرسة في معاملاتها القرطاسيّة التي لا طائل من ورائها». وطالب الرفاعي «بجعل قضية المغرب العربي جزءًا من قضايانا كما أنها جزء من وطننا العربي الغالي».

وخلال تلك الاجتماعات الشعبية كان بورقيبة يتحدّث بنبرة عروبيّة بحتة، ففي الخطاب الذي ألقاه في حلب قال: «إن فاجعة المغرب تشبه فاجعة الأندلس التي ضاعت من العرب ولم يفكر أحد من العرب في استرجاعها»[27]. ويمكن أن نفسّر هذه النزعة الوحدوية لدى الحبيب بورقيبة خلال

(24) التميمي، المصدر نفسه، ص 147.

(25) *I.S.H.M.N*: Q595. C 27, Dossier unique «Activités des nationalistes Nord-Africain hors de la Tunisie, notamment dans les pays arabes,» ff 188 – 190.

(26) الحبيب بورقيبة، **خطب** (تونس: وزارة الإعلام، 1981)، ص 97.

(27) المصدر نفسه، ص 99.

تلك الحقبة برغبة الرجل في كسب الرأي العام العربي لدعم القضية الوطنية التونسية والمغاربية لأن المتتبّع لسيرة الرجل يلاحظ قطيعة تامة له مع «الوحدة»[28] فيما بعد.

وفي إثر تلك الاجتماعات اقترح الأمناء العامّون للأحزاب الحاضرة إرسال برقيات استنكار و«تنديد» للدول الأوروبية على ما تقترفه فرنسا بحق دول المغرب العربي وشعوبها، وقد نشرت الصحف السورية في تلك الحقبة خبرًا مفاده أن وزير الخارجية السّوري استدعى الوزير المفوّض في دمشق وأبلغه استنكار الحكومة السورية من سياسة فرنسا.

بذلك أدى النشاط المكثف لمكتب دمشق خلال تلك الحقبة إلى تفعيل قضية المغرب العربي في المشرق وإنارة الرأي العام والسلط الرسمية بخطورة الاستعمار الفرنسي على تلك المنطقة، وهو ما ساعد على كسب تأييد الشعب السوري وحكومته وبلدان المشرق العربي بعامة، وقد تجسّد ذلك التأييد في التضامن المادي والمعنوي مع القضية المغاربية.

لم يقتصر نشاط الرويسي في دمشق على الاجتماعات الشعبية وإلقاء الخطب والمحاضرات بل رافقه عمل على الصعيد الإقليمي من خلال اللجوء إلى الجامعة العربية التي تأسست حديثًا، حيث أرسل برقية إلى الأمين العام آنذاك عبد الرحمن عزّام ذكّره فيها بقضية المغرب العربي وبضرورة عرضها على مداولات المجلس. وجاء في هذه البرقيّة: «إن ما يجري في المغرب العربي ليس موضوع عرب مضطهدين بل هو موضوع خطير يهدّد ثلث العرب بالزوال»[29]. وبهذه البرقية نجح الرويسي في لفت أنظار الجامعة التي تبنّت أثناء انعقاد دورتها في أيلول/سبتمبر 1946 بنحو كامل قضية المغرب العربي[30]. من هنا، يتَّضح لنا الدور الذي مارسه مكتب المغرب العربي في دمشق في التعريف بقضية المغرب العربي وبربط المشرق بالمغرب من خلال توجّه قومي عربي واضح وجليّ، فيوسف الرويسي آمن في نضاله بضرورة توحيد المغرب العربي أولًا وتوحيده مع المشرق ثانيًا حتى يتسنى تحرير كل الشعوب المغاربية الرازحة تحت وطأة استعمار اقتصادي وثقافي ممنهج يهدف إلى طمس هويّة المغرب العربي وإلحاقه بالحضارة الغربية واقتطاعه من فضائه الطبيعي.

3 ـ يوسف الرويسي ودوره في انعقاد المؤتمر المغاربي في القاهرة 1947

وصل صدى نشاط مكتب دمشق إلى الأوساط المغاربية في القاهرة، فتوجهت أنظارهم نحو سورية وترسّخت لديهم قناعة بالدور الإيجابي الذي يمكن أن تؤديه في نصرة قضايا المغرب. فكان

---

(28) عبد اللطيف الحناشي، «موقف الحبيب بورقيبة من قضايا الوحدة العربية والمغاربية (1956ـ1974)،» ورقة قدمت إلى: **الحبيب بورقيبة وإنشاء الدولة الوطنية؛ قراءات علمية للبورقيبية: أعمال المؤتمر العالمي الأول المنعقد بتاريخ 1ـ3 كانون الأول/ديسمبر 1999**، ص 87 – 99.

(29) التميمي، «مذكرات يوسف الرويسي السياسية،» ص 167.

(30) للاطلاع على نص البرقية الكامل الذي بعث بها الرويسي إلى الجامعة العربية، انظر: «مذكرات يوسف الرويسي السياسية»، **المجلة التاريخية المغاربية**، العدد 2 (1978)، ص 207 – 223.

أن أصبحت دمشق قبلة لرموز النضال الوطني المغاربي، فكان محمد بن عبّود، مندوب خليفة ملك مراكش، أول مسؤول مغربي يزور سورية. وقبل وصوله إلى دمشق، راسل الحبيب ثامر يوسف الرويسي وطلب منه مساعدته على توحيد المكاتب المغاربية في القاهرة ضمن مكتب مغاربي واحد شأنه في ذلك شأن مكتب دمشق[31].

كان محمد بن عبود عند التقائه بالرويسي قد فوّض لهذا الأخير اختيار السبل التي يراها صالحة للتعريف بالقضايا المغاربية. وقد تولى مكتب دمشق ترتيب مقابلات بين مندوب الملك المراكشي والرئيس السوري والوزراء والصحافة والنوادي الثقافية. وعقدت في دمشق ندوة صحافية بين محمد بن عبود ويوسف الرويسي مع وكالات الأنباء المحلية والعالمية.

وخلال لقاءات الرجلين تطرّق الرويسي إلى ضرورة توحيد جهود النضال في المغرب العربي والنظر إليها من منطلق قومي يؤمن بوحدة المصير والنضال. كما أكد الرويسي لمحمد بن عبود بأن نضال المغرب العربي يجب أن يكون من منظور عربي سليم يندرج ضمن عمل عربي واحد، لأن المغرب جزء لا يتجزأ من الوطن العربي الكبير، فتوحيد الجهود هو الكفيل بالقضاء على الاستعمار الفرنسي وإنهاء مشروعه في المنطقة[32].

وقد أبدى ابن عبّود تجاوبًا كبيرًا مع الفكرة وعبّر عن استعداده لعقد مؤتمر يضمّ كل ممثلي الحركات التحررية لأقطار المغرب العربي الموجودين في الخارج لدراسة قضايا بلاد المغرب حال عودته إلى القاهرة ويكون إما الحبيب ثامر وإما الرويسي موجودًا لحضور ذلك المؤتمر[33]. وفي إثر ذلك التحق الرويسي بمصر للمساهمة في الإعداد لمؤتمر المغرب العربي المزمع انعقاده، وفي 15 شباط/فبراير 1947 بدأت أعمال المؤتمر تحت إشراف الأمين العام للجامعة العربية، وبحضور حزب الاستقلال المراكشي وحزب الشعب الجزائري والحزب الدستوري الجديد[34]. افتتح المؤتمرون أشغالهم بتأليف أربع لجان: هي لجنة المكاتب المغربية والدعاية في الشرق، ولجنة التنسيق ولجنة السياسة الاستعمارية ولجنة المغرب العربي والجامعة العربية.

وبذلك نجح الرويسي في ترجمة جهوده الرامية إلى توحيد نضالات أبناء المغرب العربي، وكانت إسهاماته الوطنية والعربية واضحة في دفع العمل نحو التوحّد من أجل قضية التحرّر. وعُدَّ مؤتمر المغرب العربي الذي انعقد بالقاهرة بين 15 و22 شباط/فبراير 1947 بإشراف ثلة من الوطنيين المغاربة ناجحًا بكل المقاييس من حيث:

ـ **الحضور:** حضر هذا المؤتمر عدد كبير من الشخصيات العربية أمثال اللواء صالح حرب ومنصور فهمي وأحمد أمين وسيّد قطب وعبد القادر المغربي، والوفد اليمني في الجامعة العربية والوفد السوداني.

---

(31) محمد بن عبّود، «وثائق عن بداية نشاط مكتب المغرب العربي بالقاهرة،» **المجلة التاريخية المغاربية** السنة 9، العددان 25ـ26 (حزيران/يونيو 1982)، ص 124 – 126.

(32) التميمي، **كتابات ومذكرات المناضل يوسف الرويسي مع وثائق جديدة تنشر لأول مرة**، ص 181.

(33) عبود، المصدر نفسه، ص 37 – 38.

(34) عبيد، «من معوقات البحث: مكتب المغرب العربي بالقاهرة مثالًا، 1947ـ1949،» ص 81.

ـ **القرارات**: اتخذ أعضاؤه عدّة قرارات مصيرية تتعلق بالمغرب العربي أهمها:

ـ بطلان معاهدتي الحماية الفرنسية المفروضتين على تونس ومراكش وعدم الاعتراف بأي حق لفرنسا في الجزائر.

ـ مطالبة الحكومات المغاربية والهيئات الوطنية بإعلان استقلال البلاد.

ـ المطالبة بجلاء القوات الأجنبية عن بلاد المغرب.

ـ رفض الانضمام إلى الاتحاد الفرنسي في أي شكل من أشكاله.

ـ حسبان أيام احتلال الجزائر وفرض الحماية على تونس ومراكش أيام حداد وطنية.

ـ تعزيز الكفاح في الداخل والخارج لتحقيق الاستقلال والجلاء[35].

كما أقرّ المؤتمرون ضرورة التنسيق بين الحركات الوطنية في بلاد المغرب وذلك بـ:

- ضرورة إدماج الأحزاب الوطنية في حزب واحد وتكوين جبهة وطنية.
- الاتفاق على غاية واحدة هي الاستقلال التام والجلاء.
- تأليف لجنة دائمة من رجال الحركات الوطنية مهمتها توحيد الخطط والتنسيق لكفاح مشترك.
- توحيد عمل المنظمات العمالية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية في المغرب العربي وتوجيهها توجيهًا قوميًا[36].

أما في العلاقة بالجامعة العربية فلقد قرّر المؤتمر:

ـ مطالبة الجامعة العربية بإعلان بطلان معاهدتي الحماية على تونس ومراكش وإعلان عدم شرعية احتلال الجزائر.

ـ مساعدة الجامعة لأقطار المغرب العربي بعرض قضيتها على الهيئات الدولية.

ـ إرسال الجامعة العربية لجنة تحقيق إلى أقطار المغرب العربي.

ـ مساعدة الجامعة العربية لدول أقطار المغرب على نشر الثقافة العربية[37].

ولعل أهم القرارات التي اتخذها المؤتمرون في مصر إنشاء مكتب موحّد للمغاربة يتكوّن من رابطة الدفاع عن مراكش ومكتب حزب الشعب الجزائري ومكتب الحزب الدستوري الجديد، للقيام بالدعاية للقضية المغاربية وبتأطير المناضلين والاتصال بالحكومات والهيئات العربية.

---

(35) انظر: **مؤتمر المغرب العربي المنعقد بالقاهرة من 15 إلى 22 فبراير سنة 1947** (القاهرة: مكتب المغرب العربي، [1948]).

(36) المصدر نفسه.

(37) المصدر نفسه.

4 ـ موقف يوسف الرويسي من الصّراع اليوسفي – البورقيبي

كان الرويسي على يقين بأن الجهود المضنية التي بذلها الوطنيّون للتعريف بالقضية المغاربية بدأت تعطي نتائجها على أرض الواقع من خلال كسر الطوق الإعلامي الذي فرضته فرنسا على كامل أقطار المغرب العربي، لذلك رفض المفاوضات بين الجانب التونسي والسّلط الاستعمارية في سنة 1955 ورأى فيها تنكرًا لنضال شعب دام أكثر من 74 سنة ونسفًا لمشروع تحرر المنطقة. فالاستقلال التدريجي لم يكن في نظره النتيجة المرجوّة لسنوات طويلة من النضال الشعبي والسياسي بل هو انقلاب واضح على مقررات مؤتمر المغرب العربي (شباط/فبراير 1947) وميثاق لجنة تحرير المغرب العربي (1948)، لأنها أخلّت في مبدأ «عدم الدخول في مفاوضات مع المستعمر على غير مبدأ الاستقلال التام». كما عدّها أيضًا انقلابًا على قرارات المؤتمرات القومية للحزب الدستوري الجديد وأوّلها المؤتمر الوطني المنعقد في تونس في 23 آب/أغسطس 1946 الذي نصّ صراحة على الاستقلال التام لتونس وجلاء المستعمر وإلغاء نظام الحماية[38].

نستنتج من كل ذلك صرامة الرويسي في التقيّد بقرارات المؤتمرات الوطنية أو المغاربية، وتبعًا لذلك رفض الرجل فكرة الدخول في مفاوضات مع المستعمر وعدّها «شطحات لبعض رموز الديوان السياسي للحزبّ الذين اعتقدوا أن شعبيّتهم تخوّل لهم فعل ما يريدون من دون الرجوع إلى الأصل، وحوّلوا بذلك الحزب إلى حركة إصلاحية». وهو ما تبيناه من خلال قوله: وبذلك قلبوا الحزب عمليًا من حركة معارضة استقلالية إلى حزب إصلاحي تعاوني مع الاستعمار الفرنسي[39].

أما في ما يخص موقفه من اتفاقيات 3 حزيران/يونيو 1955 فقد كان أكثر حزمًا وصلابة، وعبّر عن دعمه للأمين العام للحزب صالح بن يوسف الرافض لاتفاقيات الاستقلال الداخلي، عبر بيان أصدره في دمشق مؤرخ في 11 حزيران/يونيو 1955 ورد فيه: «إن الاتفاقيات الجديدة هي مؤامرة استعمارية انحرفت بها الحكومة التونسية والوفد المفاوض... والذين يدعون إلى إلقاء السلاح واللجوء إلى المفاوضات... إنهم بذلك يتنكرون لأهداف شعبهم ووطنهم ولأرواح الشهداء»[40]. وقد دعا الرويسي الشعب التونسي من دمشق إلى مقاومة هذه الاتفاقيات ورفض جميع ما ورد فيها وهو ما تناقلته الصحف التونسية حينها[41]. كما انتقد مواقف الحبيب بورقيبة وتنكره للثوابت الوطنية وارتمائه في أحضان فرنسا والغرب[42]. كما عدّ أيضًا هذه المفاوضات إعادة لاتفاقيات باردو وصكًّا جديدًا لمصلحة الاستعمار[43].

---

(38) المصدر نفسه، ص 2.

(39) المصدر نفسه، ص 2.

(40) «بيان من مدير مكتب المغرب العربي بدمشق يوسف الرويسي،» **الصباح**، 1955/6/11. أيضًا انظر: الطاهر عبد الله، **الحركة الوطنية التونسية: رؤية شعبية قومية جديدة، 1830ـ1956** (تونس: المطبعة الوطنية، 1978)، ص 148 – 150.

(41) الصباح، 1955/11/12، ص 1 ـ 2.

(42) المصدر نفسه، ص 2.

(43) المصدر نفسه، ص 2.

هذا الموقف المعارض لاتفاقيات الحكم الذاتي كلّف الرجل كما هي الحال بالنسبة إلى صالح بن يوسف الطرد من الحزب الدستوري الجديد أثناء مؤتمر صفاقس الذي انعقد وسط احتداد الصراع واشتداد الخلاف بين جناحي الحزب.

خاتمة

أدت شخصية يوسف الرويسي دورًا أساسيًّا في رسم الملامح الأولى لاتّجاه عروبي- وحدوي صلب الحركة الوطنيّة التونسيّة يتبنّى رعيله الأوّل مبدأ العروبة والانتماء إلى الأمّة العربيّة كحقل ثقافي وإطار حضاري. ولقد استفاد هذا الاتّجاه من بلدان المشرق العربي وتحديدًا سورية التي غذّت أطروحاته وتصوّراته ورؤاه السياسيّة والثقافيّة على حدّ سواء. وخلال الحقبة الزمنيّة 1945ـ1955 حاول هذا «التيّار» وعلى رأسه يوسف الرويسي تفعيل تصوّراته وقناعاته الفكريّة والسياسيّة ضدّ المستعمر الفرنسي من جهة وضدّ أطروحات المجاهد الأكبر «الحبيب بورقيبة» إلّا أنّه اصطدم بعراقيل متعددة حالت دون بلورة أهدافه الوحدويّة، لكن رغم ذلك فهو نجح في وضع اللّبنات الأولى للتيّار القومي العربي صلب المجتمع التونسي بعيد الاستقلال في 20 آذار/مارس 1956 □

هانس كوكلر

تشنج العلاقة بين الغرب والمسلمين: الأسباب والحلول ـ دراسة

طبعة جديدة. ترجمة حميد لشهب
(عمّان: دار خطوط وظلال للنشر والتوزيع، 2021).

محمد وحدو(*)

باحث حاصل على الدكتوراه تخصص علم الاجتماع، جامعة ابن طفيل – المغرب.

أولًا: لمحة مختصرة من سيرة الكاتب

ولد هانس كوكلر، مؤلف هذا الكتاب، يوم 18 تشرين الأول/أكتوبر 1948 وحصل على شهادة الدكتوراه بامتياز، وكان رئيس كلية الفلسفة في جامعة إنزبروك النمسوية، وأستاذ كرسي فيها، تخصص في فلسفة القانون والفلسفة والأنثروبولوجيا والفينومينولوجيا، وحصل على دكتوراه شرفية من جامعة ميندانو الفيليبينية، ومن الجامعة الأرمينية، وهو أستاذ شرف في جامعة باموكالا التركية، ومحاضر زائر في جامعات كثيرة، ويعَدّ من المتخصصين الكبار في فلسفة هايدغر التي ألّف فيها الكثير. والظاهر أن فلسفة هايدغر هي التي قادت كوكلر إلى ما يسميه هو نفسه «الفلسفة التطبيقية وفلسفة القانون وفلسفة السياسة»، ذلك بأنه يعَد من المتخصصين القلائل في هذا الحقل، وقد قادته اهتماماته الفلسفية إلى بناء وعي نقدي خاص لمفهوم العدالة، وهو الوعي النقدي الذي قاده إلى الالتزام بقضايا عالمية عادلة، منها القضايا العربية، وبالخصوص القضية الفلسطينية (ص 113).

ثانيًا: هيكلية الكتاب

يضم الكتاب بعد الإهداء وتصدير المترجم ومقدمة المؤلف قسمين أساسيين، وكل قسم يضم عناوين رئيسية. يتحدث في القسم **الأول** عن «الديمقراطية والنظام العالمي الجديد»، ثم «سياسة الأمم المتحدة في فرض العقوبات والقانون الدولي». أما القسم **الثاني** فيتحدث فيه الكاتب عن «مواطن التشنج العلاقة بين المسلمين والغرب وبعض الحلول المقترحة للتعايش السلمي بينهما»، ثم «التدخل الإنساني المشروعية والأبعاد»، و«العلاقة بين الإسلام

(*) البريد الإلكتروني: medouhaddou1988@gmail.com

والمسيحية في أوروبا»، ثم «الماضي، الحاضر والمستقبل».

ثالثًا: منهجية الكتاب

إن المتصفح لكتاب هانس كوكلر **تشنج العلاقة بين الغرب والمسلمين، الأسباب والحلول**، سيجد أن الفيلسوف بنى خطة منهجية محكمة سمحت له بتأليف هذا الكتاب. فعلى مستوى المنهج؛ نجد أن الباحث اعتمد على المنهج التاريخي، حيث الرجوع إلى ماضي الأحداث، وأسباب ظهورها، قصد فهمها ومن ثم الوصول إلى حقائق تساعدنا على فهم الحاضر بناء على أحداث الماضي وللتنبؤ بالمستقبل. ثم المنهج الوصفي التحليلي حيث العمل على وصف الأحداث التاريخية وتمييزها وفحصها، وذلك من خلال التشخيص والتحليل والربط والتفسير لهذه الأحداث مع بيان نوعية العلاقة بين الغرب والمسلمين. أما بالنسبة إلى التقنيات المستعملة في بناء هذا الكتاب فنجد أن الفيلسوف اعتمد على أداة تحليل المضمون، أي البحث والتنقيب الببليوغرافي للدراسات والوثائق التي توثق الأحداث واللقاءات والمؤتمرات التي انعقدت لإثراء البحث حول تشخيص وضع التشنج العلائقي بين الغرب والمسلمين.

رابعًا: خلفية الكتاب

اعتمد الكاتب في تشخيصه لهذا الكتاب على خلفية مرجعية ساعدته على تأليف هذا الكتاب حيث اعتمد مقاربتين أساسيتين: (1) لمقاربة الفلسفية القانونية: بحسبان القانون «السنّة التي تحدد العلاقات بين الناس في شأن من الشؤون والتي يلتزم باتباعها الناس في المجتمع، ويترتب على عدم الالتزام بها عقوبات»[1]. (2) المقاربة الفلسفية التطبيقية: حيث إنها «تمكننا في الوقت المعاصر لما لها حاجة الإنسان لتعميق بحثه حول قضايا ترتبط بوجوده وسط متغيرات سياسية واجتماعية وعلمية عديدة»[2]، وهو ما يمكننا القول إن «الدراسات الفلسفية التطبيقية المعاصرة تتجاوز النظرة المطلقة لمستقبل البشرية بعيدًا عن التفاؤل والتشاؤم، وتبحث في ممكنات المستقبل في ميادين بعينها مثل السياسة، والاقتصاد، والبيئة، وعلوم الفيزياء، وموقع الفن في الحياة المعاصرة، ونظرية المعرفة، والعلوم السلوكية»[3].

خامسًا: مضمون الكتاب ومناقشته ونقده

تعَدّ الدراسة التي أجراها الفيلسوف هانس كوكلر «من الدراسات النقدية والفلسفية التي تشخّص واقع المجتمعات العربية والغربية في ظل النظام العالمي الجديد»، اعتقادًا بأن هذا النظام تتحكم فيه قوى سياسية كبرى في العالم تعَدّ في نظر تشومسكي «الحكومة التي تسيّر العالم فعليًا»[4]، وتستغله من أجل التحكم في الدول النامية والسيطرة عليها، وهو ما زاد في توتر العلاقة بين الدول، وهذا ما

(1) عبد الرحمن بدوي، **فلسفة القانون والسياسة عند هيجل** (بيروت: منشورات دار الشرق، 1996)، ص 7.

(2) مصطفى النشار، **العلاج بالفلسفة: بحوث ومقالات في الفلسفة التطبيقية وفلسفة الفعل** (القاهرة: منشورات الدار المصرية السعودية للطباعة والنشر والتوزيع، 2010)، ص 159.

(3) المصدر نفسه، ص 159.

(4) نعوم تشومسكي، **النظام العالمي.. القديم والجديد**، ترجمة عاطف معتمد عبد الحميد (القاهرة: منشورات نهضة مصر، 2007)، ص 236.

دفع تشومسكي إلى القول بأننا نعيش اليوم في «عصر الإمبريالية الجديدة»[5].

على هذا الأساس يعرض الكتاب مجموعة من الأفكار حاول كوكلر من خلالها أن يشخّص وضع تشنج العلاقة بين الغرب والمسلمين والأسباب التي ساهمت في ذلك، مقترحًا مجموعة من الآليات لتحقيق السلام الأمني والتعايش بين الدول والثقافات، وذلك من خلال تقسيمه للكتاب إلى قسمين أساسيين:

القسم الأول: يحاول الفيلسوف كوكلر أن يشخص وضع النظام العالمي الجديد في خدمة الإمبريالية الجديدة، وكيفية استغلال الإمبريالية الغربية منظمة الأمم المتحدة أداة للهيمنة، فالفيلسوف يعمّق النقاش ويوسع دائرة التحليل والتفسير، واصفًا تحقيق الديمقراطية والعدالة الاجتماعية بأنه رهين باحترام الدول حدودها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، ولا يحق لدولة ما أن تغزو دولة أخرى بدعوى التبادل والتعايش السلمي وتعزيز الأمن والسلام بين الدول. ويسعى كوكلر من خلال ذلك إلى «فضح التجبر والتكبر الحضاري الغربي وبالخصوص من جانب السلطات الغربية اتجاه العالم المسلم» (ص 13).

وفي هذا الصدد يبرر صموئيل هنتنغتون، هذه السياسية التي تتبناها القوى العظمى وخلقت نوعًا من الصراع بين الحضارات وتفككها. وفي توتر الصراع بين المسلمين والغرب، يقول هنتنغتون «على المستوى الكوني أو الكبير، تحدث صراعات دول المركز بين الدول الرئيسية في الحضارات المختلفة، والقضايا في هذه الصراعات هي القضايا الكلاسيكية في الصراعات الدولية وتتضمن؛ 1. النفوذ النسبي في تشكيل التطورات الكونية وأداء المنظمات العالمية مثل الأمم المتحدة وصندوق النقد الدولي والبنك الدولي، 2. القوة النسبية التي تتجلى في الخلاف حول سياسات عدم الانتشار والتحكم في التسليح وسباقات التسلح»[6].

وللتفصيل في ذلك، ينتقد هانس كوكلر «سياسة جورج بوش التي كانت تنادي بشعارات العدالة والإنصاف والحرية واحترام حقوق الإنسان كقاعدة لنظام عالمي جديد، ومن جهة أخرى تشرعن ممارسة القوة بما في ذلك القوة العسكرية، فالديمقراطية مثلًا في نظره، ما هي إلا «شعار لضمانة الهيمنة الدولية وتختزل الشروط الفعلية لتحقيق الديمقراطية في العلاقات بين الدول عن عمد» (ص 25).

ويعتقد هانس كوكلر أن هذه الادعاءات هي جزء من السياسة التي تتبناها الأمم المتحدة، الدافع الأساس الذي فرض قوة عالمية أدّى بها إلى فرض عقوبات كأداة للهيمنة تقليدية لسياسة الاستعمار الجديد. وارتأى كوكلر «أن العقوبات التي تمس بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية الأساسية للسكان وفي كثير من الحالات حتى حق الحياة نفسه، غير مقبولة من وجهة نظر حقوق الإنسان، وهي الحق الطبيعي للقانون الدولي»[7].

(5) المصدر نفسه، ص 236.

(6) صامويل هنتنغتون، **صدام الحضارات وإعادة صنع النظام العالمي**، ترجمة طلعت الشايب، ط 2 (بغداد: سطور للتوزيع والنشر، 1999)، ص 336.

(7) المصدر نفسه، ص 59.

يرى كوكلر أن كل هذه الأسباب ساهمت في إساءة وتشنج العلاقة بين الغرب والمسلمين من حيث الديانة والثقافة والاجتماع، وهذا ما حاول أن يفسره من خلال **القسم الثاني** من هذا الكتاب، وقد اقترح كوكلر مجموعة من الحلول للحد من هذه الأمور: «أننا في حاجة ماسة إلى نقد فلسفي أخلاقي لميثاق الأمم المتحدة» (ص 74)؛ «ضرورة إجراء نقد فلسفي للمفاهيم السائدة عن الديمقراطية إذا أراد أن يتجنب مزالق الوقوع في مجرد وصف الأعراض» (ص 22).

من خلال ما سبق يمكن القول، إن دراسة الفيلسوف المعنونة **تشجنع العلاقة بين الغرب والمسلمين** من بين المساهمات النقدية والفكرية التي حاولت أن تصور الوضع المتأزم الذي تعانيه الشعوب والمجتمعات التي تعيش تحت رحمة الرأسمالية الغربية في ظل النظام العالمي الجديد، وذلك من خلال الرجوع إلى مجموعة من الأحداث التاريخية التي كان لها أثر واضح في تشنج العلاقات الاجتماعية والدبلوماسية بين الغرب والمسلمين بخاصة، وهو ما انعكس سلبًا على مجموعة من القيم مثل العدالة الاجتماعية والديمقراطية والحرية والكرامة الإنسانية التي تعَدّ من ركائز ودعائم حقوق الإنسان. ولا يتأتى ذلك إلا من خلال تبنّي فلسفة سياسية محكمة، حيث «إن الفلسفة السياسية تزدهر عندما ينتاب الدولة سقم أو أمراض، فيأتي الفلاسفة ويحمّلون أنفسهم مهمة الأطباء من حيث التشخيص ووصف العلاج»[8]، «فالفسلفة هي السلم الذي ارتقته الحضارة المعاصرة صعودًا متدرجًا نحو تحسين قدرة الإنسان المعاصر على التفكير في مواجهة الأوهام، وتحسين قدرته على العيش في مواجهة الشقاء، وتحسين قدرته على التعايش في مواجهة عنف الإنسان ضد أخيه الإنسان»[9]، «ووظيفة الفيلسوف هي تشخيص أمراض الحضارة، ومن ثمة اقتراح وسائل العلاج التي قد تشمل على الأرجح كل مناحي الحضارة»[10] □

(8) أميرة حلمي مطر، **الفلسفة السياسية من أفلاطون إلى ماركس**، ط 5 (القاهرة: منشورات دار المعارف، 1995)، ص 5.

(9) سعيد ناشيد، **التداوي بالفلسفة** (بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر، 2018)، ص 18.

(10) المصدر نفسه، ص 34.

كتب عربية وأجنبية وتقارير بحثية

كابي الخوري

أولًا: كتب عربية
ـ 1 ـ

مصطفى عبد العزيز مرسي. **تدمير سورية وتشريد شعبها: من المسؤول؟**. تقديم أحمد يوسف أحمد. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2022. 368 ص.

شهدت المنطقة العربية في بدايات عام 2011 انتفاضات شعبية عارمة عُرفت بـ «ثوارات الربيع العربي»، وشملت على وجه الخصوص، وبدرجات مختلفة من الاهتزاز، أنظمة الحكم في كل من تونس ومصر وليبيا واليمن والأردن والمغرب وعُمان وسورية. وكانت تطمح هذه الانتفاضات إلى تحقيق مطالب سياسية واجتماعية تعيد الأمل إلى شعوب المنطقة باستعادة حقوقها التي استُلبت على مدى عقود؛ لكن سرعان ما تحولت تلك الانتفاضات في بعض هذه الدول، وفي مقدمها سورية، إلى صراعات داخلية دموية مدمرة، عملت القوى الإقليمية والدولية ـ من خلال تدخلاتها المباشرة وغير المباشرة، إلى جانب التنظيمات التكفيرية والإرهابية والمرتزقة، والتضليل الإعلامي ـ على تأجيجها لإسقاط الأنظمة الحاكمة – تحت شعار حماية شعوب دول المنطقة من بطش الأنظمة الدكتاتورية ـ والتأثير في مجمل أوضاع النظام الإقليمي العربي، وتحقيق التسويات التي ما زالت عالقة في المنطقة، ولا سيما بقايا الصراع العربي-الإسرائيلي، وبما يضمن إلغاء دور سورية الإقليمي المناهض لشروط التسوية الإسرائيلية المنافية للحقوق العربية، وذلك في محاولة شبيهة بتلك المحاولات التي هدفت إلى إنهاء الدور الإقليمي للعراق بعد الاحتلال الأمريكي له عام 2003.

من هنا يعرض هذا الكتاب لتفاصيل النكبة السورية، ويسعى للإجابة عن التساؤلات حول خلفية هذا التكالب والاستهداف لسورية، وتحديد المسؤولين عن تدميرها وتحويلها إلى ساحة قتال مفتوحة أمام قوى إقليمية ودولية ومرتزقة تمعن في التدخل في شؤونها وتمزيقها تحت شعارات مختلفة – مثل حث النظام على إجراء إصلاحات سياسية واجتماعية، وحماية الشعب السوري، وغير ذلك من الشعارات الرنانة التي يُراد بها باطل.

يضم الكتاب ثمانية فصول، يتناول **الفصل الأول** مسيرة الرئيس السوري بشار الأسد وتعامله مع الانتفاضة السورية. ويتحدث الكاتب في هذا الفصل عن مسألة

توريث السلطة ومأزقها وتعثر الرئيس السوري في معالجة ثغرة منح الحريات التي وعد بها نتيجة المبالغة في المحافظة على النظام. كما يتناول الحركات الاحتجاجية ورد فعل النظام في مقابل عسكرة الانتفاضة التي أمسكت بها التنظيمات الإرهابية.

ويتناول **الفصل الثاني** الدور الأمريكي، من أوباما إلى ترامب، في تأزيم الوضع السوري، بهدف إطالة الأزمة لإنهاك النظام السوري ومقوماته كي يسقط من الداخل؛ بينما يركز **الفصل الثالث**، على دور الأطراف الإقليمية في الأزمة السورية، وفي مقدمها الدور التركي الخطير في عسكرة الانتفاضة، وعلاقة تركيا بالتنظيمات التكفيرية الإرهابية، وتأمين الدعم المالي لها من الخليج العربي لضمان استمرارها.

ويعرض **الفصل الرابع** للدور الإسرائيلي في مسار الأزمة السورية، وسعي الإسرائيليين إلى استخدام التنظيمات الإرهابية لإطالة أمد الصراع في سورية واستهداف مقوماتها وفك الارتباط بينها وبين إيران.

أما **الفصل الخامس** فيخصصه الكاتب للبحث في الدور الروسي الدقيق في سورية في ظل صعوبة سعي روسيا للتوصل إلى توافق بين مختلف القوى المتصارعة على الأرض السورية وتضارب مصالحها. ويتناول الموقف الروسي من بدايات الأزمة السورية وخلفيات الاستجابة الروسية لدعوة القيادة السورية للتدخل عسكريًا في سورية والموقف الأمريكي من هذا التدخل، ونتائج التدخل الروسي الذي ساهم بشكل كبير في ترجيح كفة النظام في سورية عسكريًا، وتعزيز دور روسيا في المنطقة وفي مواجهة الموقف الأمريكي والغربي عمومًا الرافض ضم روسيا لجزيرة القرم.

ويتوقف **الفصل السادس** عند الدور الإيراني في مسار الأزمة السورية، مستعيدًا علاقة التحالف بين البلدين ودوافع التقارب بينهما منذ حقبة حكم الرئيس الراحل حافظ الأسد، وصولًا إلى التحالف المصيري بين البلدين في مرحلة حكم الرئيس بشار الأسد. ويعرض هذا الفصل للتمدد الإيراني في المنطقة وما حققته إيران من تدخلها في سورية وما أخفقت في تحقيقه.

أما **الفصل السابع**، فيتناول المواقف العربية من تطورات الأزمة السورية، ولا سيما مواقف كل من السعودية وقطر ومصر، إضافة إلى الموقف العربي الجماعي على مستوى جامعة الدول العربية، وتجميد عضوية سورية في جامعة الدول العربية. ويقدم الكاتب في **الفصل الثامن** والأخير ما يصفه بـ»أدلة الاتهام « و»وقائع الإدانة» التي تم استخلاصها من حصيلة أدوار مختلف الأطراف المعادية لسورية، ولا سيما الولايات المتحدة وإسرائيل وتركيا.

لا يعفي الكاتب أحدًا من مسؤولية ما حصل ويحصل في سورية، بدءًا بتعثر القيادة السورية في الإصلاح السياسي، وصولًا إلى ارتهان قوى المعارضة لإرادة القوى الخارجية المعادية لسورية التي لديها أجندات مختلفة ومتضاربة لا تتوافق ومصالح الشعب السوري. ويصل الكاتب في حصيلة البحث إلى قناعة مفادها أن ما حصل من قتل وتدمير وتشريد للشعب السوري كان مخططًا له، وجاء في إطار مؤامرة ممنهجة شاركت فيها أطراف إقليمية ودولية، وبخاصة الولايات المتحدة وإسرائيل وتركيا، تحت شعار إسقاط النظام

السلطوي في سورية وإحلال نظام ديمقراطي مكانه. وقد أظهرت الوقائع أن تلك الأطراف لم تكن مهتمة في حماية الشعب السوري أو في تحقيق الديمقراطية، بل في استباحة سورية وتدميرها وإنهاء دورها الإقليمي، بعدما تم استهداف الدور العراقي، وذلك من أجل تكوين شرق أوسط جديد يخدم مصالح الأطراف المشاركة في المؤامرة، وفي مقدمها الولايات المتحدة وربيبتها إسرائيل.

ـ 2 ـ

أندرو مارش. **الإسلام والمواطنة الليبرالية بحثًا عن إجماع متشابك.** ترجمة يمنى طريف الخولي؛ تقديم حمو النقاري. بيروت: المؤسسة العربية للفكر والإبداع، 2022. 496 ص.

يسعى هذا الكتاب إلى إيجاد هامش من التقاطع بين المواطنة الليبرالية والمواقف المنبثقة من العقيدة والتشريع الإسلاميين، وذلك بعيدًا من الأحكام النمطية، التي لا تساعد على البحث عن القواسم المشتركة التي يمكن التوافق عليها في المجتمعات التعددية التي غالبًا ما تسودها الانقسامات والخلافات في الرأي. وهكذا يشدد الكتاب على أدبيات العقد الاجتماعي لمعالجة أزمات المجتمعات التعددية، ولا سيما على «نظرية في العدالة» لـ جون روز بهدف إيجاد الإجماع المتشابك بين الإسلام، والمواطنة الليبرالية، من طريق المواءمة بين تطلعات المكونات الاجتماعية المختلفة التي تريد الحفاظ على كامل حرياتها ومعتقداتها بينما تسعى في الوقت نفسه إلى تحقيق أهداف شاملة، وتفضل تحقيقها بالمشاركة مع الآخرين وفق شروط يتم التوافق عليها، وتؤدي إلى القبول بمفهوم سياسي واحد يتم صوغه في نظام دستوري.

وفي سياق بحثه عن الإجماع المتشابك بين المواطنة الليبرالية والإسلام، يعرض الكاتب لحضور الإسلام في الغرب، فيرى أن المسلمين في الديمقراطيات الغربية يمثلون مجموعات ثقافية وعرقية ولغوية ويتمتعون بكل الحقوق المشتقة من قيمة الاستقلالية مثل حرية التعبير وحرية الاعتقاد لكون الديمقراطيات الليبرالية الغربية تلتزم الحياد إزاء مختلف مكونات المجتمع. لكن الحيادية الليبرالية تصبح عرضة للانتقاد عندما لا تتمكن من أن تضمن للمجتمعات المسلمة كل الحقوق التي تريدها، كالحماية من الكلام المسيء للإسلام على سبيل المثال. ومن التحديات التي تواجهها الديمقراطيات الليبرالية الغربية أيضًا ما يطرحه عدد من المسلمين حول قبول الشرع بالعيش والولاء لدولة غير مسلمة والتعاون مع غير المسلمين كمتساوين سياسيًا واجتماعيًا بحسب ما تقتضي متطلبات المواطنة في الديمقراطيات الليبرالية.

وهنا يرى الكاتب أن مثل هذه التحديات يمكن تجاوزها من خلال إجماع عابر للعقائد الشمولية، ولا سيما أن المواطنة الليبرالية لا تشترط على الفرد أن يتبنى مفهوم الليبرالية الشاملة، ولا تطالبه بالتصريح باعتقاد لا يؤمن به. كما أن الديمقراطيات الليبرالية تسمح بمدى واسع من الحقوق والحريات المدنية، والمتطلب الأساسي للمواطنة فيها هو أن تعترف الجماعات بحقوق الأفراد ضمنها؛ لكي تمثل استقلالية سياسية. ومن ناحيته، فالإسلام لا يتضمن رؤى سياسية متشددة وجامدة إزاء المتطلبات الاجتماعية والاقتصادية، وهو ما يساعد على البحث عن إجماع متشابك بين المجتمعات الإسلامية

والمواطنة الليبرالية ويمهد لعلاقة أخلاقية أكثر شمولية مع المجتمعات غير الإسلامية.

ـ 3 ـ

ديفيد فرومكين. **نهاية الدولة العثمانية وتشكيل الشرق الأوسط**. ترجمة وتحقيق وسيم حسن عبدو؛ تقديم منذر الحايك. دمشق: صفحات للدراسات والنشر، 2022. 424 ص.

يعرض هذا الكتاب للدور الاستعماري الذي قامت به بريطانيا والقوى الاستعمارية الأخرى مثل فرنسا وإيطاليا لتأسيس معظم دول الشرق الأوسط، وذلك عقب الحرب العالمية الأولى التي أدت إلى تفكيك الإمبراطورية العثمانية نتيجة وقوفها إلى جانب الخاسر في الحرب، وتوافق الحلفاء الذين انتصروا في الحرب على تقاسم الأراضي التي كانت تكوّن الإمبراطورية، في ما بينهم خلال فترة الحرب. وترجم ذلك في اتفاقية سايكس بيكو 1916 بين بريطانيا وفرنسا على تقاسم أراضي الهلال الخصيب، ناهيك بوعد بلفور 1917 لإقامة وطن لليهود في فلسطين.

وقد تواصلت هيمنة بريطانيا وفرنسا كقوتين استعماريتين على المنطقة بقرارات من عصبة الأمم التي صدرت عام 1920 والتي أجازت نظام الانتداب على الولايات العثمانية المتفككة. ومع نهاية الحرب العالمية الثانية كانت قوى الاستعمار قد عملت على تجزئة المنطقة بالكامل في سياق تكوين شرق أوسط جديد برزت ملامحه في فلسطين تحت الانتداب البريطاني الذي عمل على زرع الكيان الصهيوني في المنطقة. ولم تتوقف المشاريع الهادفة إلى تكوين شرق أوسط جديد مع تراجع الهيمنة البريطانية والفرنسية على المنطقة في حقبة الستينيات، بل استمرت على المنهج نفسه بعدما حلت الهيمنة الأمريكية مكانها لتنفرد بمشاريع جديدة من الاستعمار، كان آخرها الغزو الأمريكي للعراق 2003، وصولًا إلى الحروب والاضطرابات الدائرة في أكثر من بلد عربي منذ انتفاضات «الربيع العربي»، وبخاصة في سورية، حيث تسعى الولايات المتحدة إلى تفتيتها إن لم تتمكن من الهيمنة عليها.

وإذ يسعى مؤلف الكتاب إلى تقديم رؤية شاملة عن دور قوى الاستعمار ولا سيما بريطانيا في تكوين الكيانات الجغرافية في المنطقة عقب تفكيك الإمبراطورية العثمانية في إطار مشاريع إعادة تكوين الشرق الأوسط الجديد، يؤكد أن إنشاء مثل هذه الكيانات لم يكن ممكنًا لولا تواطؤ الكثير من الشخصيات والحكام العرب الذين تم اختيارهم بعناية من قبل الاستعمار لتنفيذ أجندات استعمارية ـ بما في ذلك الموافقة على زرع الكيان الصهيوني في المنطقة ـ مقابل تعزيز سلطاتهم ونفوذهم والتحكم بمصير شعوبهم. وقد استمر هذا الواقع مع هيمنة الولايات المتحدة على المنطقة.

والمؤسف أن قوى الاستعمار نظرت على الدوام إلى العرب كغنيمة حرب يُراد تقاسمها، وحسبتهم ضعفاء، وشتات قبائل وطوائف، غير قادرين على أن ينصهروا أو يتحدوا، واستخدموا هذه الأفكار ـ وبعضها نمطي ـ للتدخل في شؤون البلدان العربية والهيمنة على مقدراتها. لكن المؤلم أنهم غالبًا ما وجدوا في المنطقة مَن يتآمر معهم على أبناء جلدتهم.

ـ 4 ـ

صقر أبو فخر. **تحولات النخبة الفلسطينية: مراجعات في التاريخ والهوية**. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2022، 160 ص.

يتناول هذا الكتاب ـ كما يأتي في تعريفه ـ قضايا تاريخية وراهنة تتعلق بالهوية والمستقبل، ولا سيما موضوع الهويات الموروثة الشائكة، وتمثّلات الذاكرة الفلسطينية كالسِيَر والمذكرات، ويعالج مسألة ضمور الإنتليجنسيا الفلسطينية الحديثة، والتحولات الكبرى التي خضع لها المجتمع الفلسطيني منذ صدور قانون الأراضي العثماني 1858 حتى نهايات القرن العشرين. وفي هذا السياق يتوقف بطبيعة الحال عند النكبة (1948) التي مثلت انكسارًا في محاولات تأسيس هوية وطنية وكيانية سياسية طبيعية للفلسطينيين، إذ أدّت إلى تمزيق مجتمعهم، واغتصاب معظم أرضهم، وانهيار مؤسساتهم السياسية. لكنها في الوقت ذاته، كانت الحدث المؤسس لمسار تبلور مفاهيم الهوية والكيانية والمواطنة التي نص عليها «الميثاق الوطني الفلسطيني».

وإذ يبحث الكتاب موضوعات مترابطة كالهوية والثقافة والتراث والسِير الذاتية التي تعبر عن حضور الذات في المكان، فإنه يتناول بعض قضايا المجتمع الفلسطيني، ويعيد النظر في مسائل تعَدّ مستقرة وموروثة؛ فيراجع، على سبيل المثال، حكاية ظاهر العمر الزيداني (حاكم عكا) الذي يعَدّ أحد أبرز الحكام الفلسطينيين في حقبة الحكم العثماني، والذي يُؤخذ عليه تعاونه مع الأوروبيين ـ ومع الروس تحديدًا ـ لمد نفوذه إلى خارج فلسطين، ويضعها في سياقها التاريخي، بعيدًا من ملحقاتها الخرافية، وذلك في إطار السعي لتقديم قراءة نقدية للتاريخ الفلسطيني.

يتألف الكتاب من أربعة فصول ومقدمة عنوانها «مكر التاريخ والهوية الموشومة بالنار». أما الفصول الأربعة فحملت العناوين التالية: تحولات النخبة الفلسطينية: من الأعيان والأغوات إلى التبعثر وضمور الفاعلية؛ ظاهر العمر الزيداني: أبطل هو أم متمرد؟؛ الرموز والهوية: من الجماعة إلى المجتمع؛ السِّيَر والمذكرات: المكان والمحو.

ثانيًا: كتب أجنبية

ـ 1 ـ

Michael Mason, Munir Fakher Eldin and Muna Dajani (eds.).

The Untold Story of the Golan Heights: Occupation, Colonization and Jawlani Resistance

London: I. B. Tauris, 2022. 248 p.

في عام 1967، احتلت إسرائيل الجزء الغربي من مرتفعات الجولان السورية، ودمرت معظم قراها ومزارعها وهجّرت 130 ألفًا من أبنائها، ولم يتبق سوى بضعة آلاف من السكان العرب متجمعين في عدة قرى. وقد استولت قوات الاحتلال الإسرائيلي على موارد الأراضي والمياه وأقامت منشآت اقتصادية وعسكرية في هذه المرتفعات في سياق تغيير معالم الجولان السورية وعزلها والتغاضي عن ممارسات الاستعمار فيها حتى بات البعض يصف الاحتلال الإسرائيلي للجولان «احتلالاً منسيًا».

مع ذلك، يؤكد هذا الكتاب أن مقاومة الاحتلال في الجولان ومشاريعه الاستيطانية

لم تتوقف، وأن السكان الأصليين متمسكون بهويتهم العربية، وثوابتهم الثقافية على الرغم من استخدام سلطات الاحتلال الأساليب كافة، ولا سيما برامج التعليم لمحو ذاكرة السكان الجماعية. وقد أكدت المقاومة قدرتها على مواجهة الاحتلال في غير مناسبة، وبرز ذلك جليًا في شباط/فبراير 1982، عندما أعلن المواطنون العرب السوريون في الجولان المحتل إضرابًا عامًا مفتوحًا احتجاجًا على قانون «ضم الجولان» الذي أقره الكنيست الإسرائيلي عام 1981. وانتهى هذا الإضراب بعد نحو ستة أشهر، بعدما فشلت سلطات الاحتلال في فرض الهوية الإسرائيلية على السكان العرب. لقد أثبت أبناء الجولان أن لديهم القدرة على الحشد في وجه الاحتلال منذ احتلال أرضهم 1967، وفشل الاحتلال في فرض التجنيد العسكري عليهم. ولم يكن قرار مجلس الأمن الدولي 479 الذي طالب سلطات الاحتلال بإلغاء قانون ضم الجولان ليصدر (1981) لولا مقاومتهم للاحتلال بكل الوسائل الممكنة منذ عام 1967.

ـ 2 ـ

Benjamin Abelow

How the West Brought War to Ukraine: Understanding How U. S. and NATO Policies Led to Crisis, War, and the Risk of Nuclear Catastrophe

Washington, DC: Island Press, 2022. 88 p.

وفقًا للرواية الغربية السائدة، فإن الرئيس الروسي فلاديمير بوتين هو شخص نهم توسعي شبيه بهتلر غزا أوكرانيا في استيلاء غير مبرر على الأرض. هذه الرواية برأي مؤلف هذا الكتاب غير صحيحة، لا بل إن المسؤولين في الولايات المتحدة وحلف شمال الأطلسي (الناتو) هم الذين يتحملون المسؤولية الكبرى عن الأزمة الأوكرانية، بعدما اعتمدوا وروّجوا سلسلة من السياسات المضللة، ووضعوا روسيا في موقف لا يمكن تحمّله، حيث بدت الحرب بالنسبة إلى بوتين وكبار العسكريين الروس، الحل العملي الوحيد لمواجهة التهديدات الغربية. وبهذا جلب الغرب الحرب إلى أوكرانيا، وأخضع مواطنيه ـ وبقية العالم ـ لخطر الحرب النووية التي يمكن أن تقضي على الحضارة الإنسانية.

ويوضح الكاتب أن الغرب لم يتوقف عن سياسات تحجيم واستفزاز روسيا منذ انهيار الاتحاد السوفياتي السابق. لقد توسع الناتو بمقدار 1600 كيلومتر إلى حدود روسيا، على الرغم من التأكيدات على نقيض ذلك للزعيم السوفياتي الراحل ميخائيل غورباتشوف. وبلغت ذروة التهديدات الغربية لروسيا في البيان الصادر عن مؤتمر الناتو لعام 2008 في بوخارست الذي أعلن أن أوكرانيا وجورجيا في طريقهما للحصول على عضوية الناتو. كما أعلنت الولايات المتحدة من جانب واحد عن تخليها عن معاهدات الصواريخ المضادة للصواريخ الباليستية والقوات النووية الوسيطة. وتبع ذلك وضع أنظمة «دفاعية» ـ قادرة على التحول إلى الوضع الهجومي ـ في دول الناتو في أوروبا الشرقية، ناهيك بمناورات عسكرية عدوانية استفزازية مشتركة للناتو في البر والبحر الأسود. ومع تحذير روسيا من مغبة توسع الناتو على حدودها، تجاهلت الولايات المتحدة وحلفاؤها في الناتو مخاوف روسيا من التمدد الغربي على حدودها، ولا سيما في جورجيا وأوكرانيا.

ـ 3 ـ

Nicholas Mulder

The Economic Weapon: The Rise of Sanctions as a Tool of Modern War

New Haven, CT: Yale University Press, 2022. 448 p.

تهيمن العقوبات الاقتصادية على المشهد السياسي العالمي، منذ أن استخدمت في حقبة ما بين الحربين العالميتين كأداة لحفظ السلام من جانب عصبة الأمم، أو الحؤول دون اندلاع الحروب، أو لدوافع أخرى مثل الدفاع عن الأممية الليبرالية والحدّ من تمدد الفاشية. لكن هذه الدوافع غالبًا ما تجاهلت المفارقة المظلمة في جوهر العقوبات: فهي مصممة لمنع الحروب، في حين أنها قد تقود إلى نتائج عكسية مدمرة وكوارث إنسانية.

هذا ما يسعى مؤلف هذا الكتاب إلى توضيحه، مستندًا في ذلك إلى تجارب العقوبات على مدى العقود الثلاثة التي تلت الحرب العالمية الأولى، حيث أدت العقوبات والحصار خلال سنوات ما بين الحربين العالميتين، كأداة لفرض السلام، إلى تعزيز سياسات الاكتفاء الذاتي في كل من ألمانيا النازية والإمبراطورية اليابانية، وهو ما أدى في النهاية إلى زعزعة استقرار النظام الدولي بدلًا من تقويّته. كما يشير الكاتب إلى الحصار والعقوبات التي أدت إلى وفاة نحو 400 ألف شخص بسبب سوء التغذية الناجم عن الحصار في أوروبا الوسطى في الحرب العالمية الأولى، إضافة إلى 500 ألف نسمة في الولايات العثمانية في الشرق الأوسط.

ولا يخفى أن استخدام العقوبات الاقتصادية تصاعد مع تفرد الولايات المتحدة بإدارة الشؤون الدولية بعد انهيار الاتحاد السوفياتي السابق ورفع شعارات الدفاع عن الحريات ونشر الديمقراطية أو تغيير سلوك الأنظمة الدكتاتورية واحتوائها. واستخدمت هذه العقوبات في الواقع ضد الدول التي تناهض السياسات الأمريكية أو التي لا تقدم تسهيلات لتنفيذ الأجندات الأمريكية. ولعل الحصار والعقوبات الأطول والأقسى التي فرضتها الولايات المتحدة برعاية الأمم المتحدة كانت العقوبات التي فرضت على العراق على مدى 13 عامًا لقي خلالها أكثر من مليون ونصف المليون طفل عراقي حتفهم نتيجة حرمانهم من الغذاء والدواء، وافتقادهم أبسط وسائل الحياة.

ـ 4 ـ

Noam Chomsky and Vijay Prashad,

The Withdrawal: Iraq, Libya, Afghanistan, and the Fragility of U. S. Power

Foreward by Angela Y. Davis

New York; London: The New Press, 2022. 208 p.

يؤكد هذا الكتاب أهمية عدم التغاضي عن توجيه الانتقادات إلى الولايات المتحدة التي انهارت في أفغانستان وقررت الانسحاب منها، مفسحة المجال أمام حركة طالبان للسيطرة على البلاد وتسلم السلطة. ويرى مؤلفا الكتاب أن وسائل الإعلام مدعوّة إلى الاهتمام بالضرر الكارثي الذي لحق بأفغانستان على الحياة والأرض والموارد عقب الانسحاب الأمريكي، كما أنها مدعوة لنقد الحروب على العراق وليبيا التي كان بالإمكان تجنبها، والتي أدت بدورها إلى كوارث وفوضى لم يسبق لها مثيل. ويرى المؤلفان أنه منذ مغادرة القوات الأمريكية لفيتنام لم تشهد السياسة الخارجية الأمريكية ـعقب الانسحاب من أفغانستان ـ

مثل هذا الفراغ المفاجئ في آلية اتخاذ القرار وفي تفسيرات ما حدث، وما يخبئه المستقبل.

كما يؤكدان أنه لا يمكن تجاهل دوامة الانحدار الأمريكية: من حرب العراق الكارثية إلى التدخل الليبي الفاشل إلى الانزلاق إلى الفوضى في أفغانستان. ولذا لكي تستقيم الأمور لا بد من أخذ العبر مما تسببت به الولايات المتحدة من كوارث، وصوغ رؤية جديدة للعالم الجديد الذي يجب أن يشارك الجميع في بنائه.

ثالثًا: تقارير بحثية

ـ 1 ـ

Anna Borshchevskaya,

«**Why Israel Is Hesitant About Supplying Ukraine with Air Defense Systems,**»

Policy Analysis (Washington Institute for Near East Policy) (15 November 2022)

Also published in The Insider.

ترى الباحثة في معهد واشنطن لدراسات الشرق الأدنى آنا بورشفسكايا في هذا التحليل السياسي أن تردد إسرائيل في تزويد أوكرانيا بأنظمة دفاع جوي يعود إلى قلقها من أن تؤدي مثل هذه الخطوة إلى إغضاب الروس وبالتالي تعريض المصالح الأمنية الإسرائيلية البالغة الأهمية في سورية للخطر، على الرغم من أن بعض العناصر المحلية ومسؤولين أمريكيين يستمرون في الضغط عليها لفعل المزيد لمساعدة أوكرانيا.

وإذ يعود رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق بنيامين نتنياهو إلى السلطة، وهو يفتخر بعلاقته الطويلة الأمد مع بوتين، فمن المتوقع أن تستمر الضغوط الأمريكية على الحكومة الإسرائيلية لزيادة المساعدات لأوكرانيا، وسيمثل ذلك اختبارًا لموقف حكومة نتنياهو الاستراتيجي؛ إذ إنه منذ الأيام الأولى للحرب الروسية في أوكرانيا، تحاول الحكومة الإسرائيلية الموازنة بين مصالح الطرفين. وتمثل ذلك بإدانتها للحرب الروسية وتقديمها مساعدات إنسانية لأوكرانيا، بينما امتنعت مع ذلك عن تزويد كييف بأنظمة دفاع جوي.

ويؤكد مسؤولون إسرائيليون رفضهم إرسال أسلحة فتاكة بشكل أساسي إلى أوكرانيا، معتقدين أن الأمن القومي لبلادهم يرتبط بحرّية العمليات العسكرية في سورية. وتستفيد موسكو من هذا الظرف، بممارسة الضغط على إسرائيل من خلال الحدّ من عملياتها العسكرية في سورية. كما تهدد موسكو بكبح قدرة إسرائيل على استقبال المهاجرين من أصل يهودي وتعزز علاقاتها مع إيران. وفي ظل هذا الواقع، تعتقد الباحثة بورشفسكايا أن نتنياهو لن يتمكن من استغلال صداقته مع بوتين وسيضطر في النهاية إلى اختيار جانب محدد.

ـ 2 ـ

Jude Blanchette and Gerard DiPippo,

«**«Reunification» with Taiwan through Force Would Be a Pyrrhic Victory for China,**»

The Center for Strategic and International Studies (CSIS) (22 November 2022).

يتكهن الكثير من المعلقين والمسؤولين بوجود خطط لبكين لفرض «إعادة التوحيد» مع تايوان. ويركز الكثير من التعليقات الحالية على كيف ومتى يمكن أن يحدث هجوم صيني على تايوان. لكن هناك القليل من النقاش حول العواقب غير العسكرية لمثل هذا السيناريو

بالنسبة إلى الصين والعالم. من هنا يستكشف هذا التقرير الموجز تداعيات هجوم صيني على تايوان بناءً على افتراضات معقولة، وإن كانت تخمينية.

ويرى التقرير أنه عند النظر إلى أي هجوم صيني شامل على تايوان، فإن تداعياته ستكون قاتمة بالنسبة إلى بكين، حتى لو استولت القوات الصينية «بنجاح» على الجزيرة. ومن المحتمل حينها أن تصبح الصين معزولة دبلوماسيًا واقتصاديًا عن الاقتصادات المتقدمة الرئيسية، وسيتعين على الزعيم الصيني شي جين بينغ أن يسير في طريق ضيق لتجنب العواقب الوخيمة على الصين والحزب الشيوعي الصيني ككل. ولذا على العالم التحرك والعمل على ردع بكين عن التفكير في مثل هذا الهجوم على تايوان، لما له من تداعيات كارثية على المشهد السياسي والاقتصاد العالمي □

التجارة الخارجية للبلدان العربية: مؤشرات مختارة

كابي الخوري

المقدمة

يعرض هذا الملف الإحصائي لبيانات التجارة السلعية الخارجية للبلدان العربية التي تمثل أكثر من 80 بالمئة من اجمالي التجارة العربية السلعية والخدمية، وذلك نتيجة استئثار النفط والغاز بحصة كبيرة منها تجاوزت الـ 62 بالمئة عام 2020[1]. ويعود الاهتمام بالتجارة السلعية الخارجية بشكل عام إلى الدور الحيوي الذي تؤديه هذه التجارة على المستوى العالمي كمحرك رئيس للنشاط الاقتصادي الدولي، ومصدر رئيس للنقد الأجنبي ومؤشر أساسي لقياس التقدم الاقتصادي الذي تحرص عليه الدول لتغطية حاجاتها من السلع وزيادة حصتها في الأسواق العالمية، وذلك من خلال تحسين قدراتها التنافسية، ومواكبة المواصفات العالمية، ناهيك عن الدور المحوري الذي تؤديه التجارة الخارجية كمرتكز للعلاقات الدولية تبني عليها الدول موافقها تجاه بعضها البعض في الشؤون الاقتصادية وغيرها من الأمور التي تهم الدول ، استراتيجياً وأمنياً وسياسياً.

ولا يغفل هذا الملف التجارة العربية البينية التي تسعى إلى تحقيق درجة مناسبة من التكامل بين البلدان العربية، والتي سجلت تحسناً عام 2020، لكن حجمها الإجمالي لم يتجاوز الـ 12.65 بالمئة من إجمالي التجارة السلعية العربية[2]، مما يدفع إلى مزيد من النقاش حول سبل تفعيل إجراءات منطقة التجارة الحرة العربية الكبرى والاتحاد الجمركي العربي، وبرنامج تمويل التجارة العربية.

تؤكد البيانات حول التجارة السلعية الإجمالية العربية تراجع التبادلات التجارية خلال عام 2020 نتيجة انتشار جائحة كوفيد ـ19 والشلل الذي أصاب حركة التجارة العالمية، بسبب الإغلاق

(1) انظر: أحمد الشاذلي [وآخرون]، معدون، **التجارة العربية البينية: الواقع والتحديات والآفاق المستقبلية** (أبو ظبي: صندوق النقد العربي، 2022)، ص 33، <https://bit.ly/3Xv9SUy>.

(2) **المصدر**: جامعة الدول العربية، الأمانة العامة [وآخرون]، **التقرير الاقتصادي العربي الموحد، 2021** (القاهرة: الأمانة العامة، 2021)، ص 181.

الكلي أو الجزئي لغالبية النشاطات الاقتصادية والتجارية. وتراجعت بدورها قيمة التجارة العربية البينية (الصادرات+ الواردات/ 2). لكن حركة التجارة العالمية وبينها التجارة العربية بدأت بالانتعاش عام 2021 مع تراجع انتشار الجائحة.

يعرض الجدولان ذواتا الرقمين (1) و(2) على التوالي لبيانات وتقديرات صادرات البلدان العربية السلعية الإجمالية وارداتها، فيما يقدم الجدولان ذواتا الرقمين (3) و(4) بيانات حول الميزان التجاري السلعي للدول العربية لعام 2021 وتطور تجارة السلع العربية عامي 2020 و2021.

ويُعنى الجدول الرقم (5) ببيانات التجارة السلعية في الدول العربية لعامي 2020ـ2021، فيما يحدد الجدولان الرقمان (6) و(7) اتجاه الصادرات والواردات السلعية العربية (2016ـ2020). أما الجدولان الرقمان (8) و(9) فيقدما بيانات بأبرز دول العالم التي تصدر السلع إلى البلدان العربية وتستوردها منها. وتتمحور الجداول الأرقام (10) و(11) و(12) على التوالي حول صادرات الدول العربية البينية وارداتها وإجمالي التجارة العربية البينية لعامي 2020ـ2021.

الجدول الرقم (1)
الصادرات السلعية العربية الإجمالية (فوب)(*)
(2016ـ2021)

(مليون دولار أمريكي)

السنة	2016(أ)	2017(أ)	2018(أ)	2019(أ)	2020(أ)	2021(ب)
الأردن	6,201	6,353	6,593	7,046	7,115	9,400
الإمارات	295,031	313,547	321,028	313,781	273,099	425,000
البحرين	12,768	15,356	18,234	18,120	14,006	23,200
تونس	13,574	14,226	15,466	14,952	13,769	16,700
الجزائر	29,338	34,610	41,698	34,994	21,925	36,700
جيبوتي	1,732	3,162	3,522	3,996	2,837	3,300
السعودية	183,579	221,835	294,373	261,603	173,490	258,400
السودان	3,094	4,100	3,485	3,208	3,121	4,300
سورية	1,700	1,800	2,000	2,100	2,300	900
الصومال	418	450	490	520	410	500
العراق	41,298	57,559	86,360	81,585	46,829	62,300
عُمان	27,545	32,886	41,730	38,685	30,508	53,700
قطر	57,309	67,498	84,288	72,935	51,504	86,700
القُمر	31	38	42	52	26	...
الكويت	45,994	55,199	72,104	64,358	39,939	71,400
لبنان	2,978	2,844	2,953	4,839	3,926	4,300
ليبيا	9,938	19,521	29,998	27,674	6,008	25,700

مصر	22,502	26,278	29,304	30,505	24,815	36,400
المغرب	23,014	27,662	29,584	29,354	25,663	35,800
موريتانيا	1,646	2,091	2,484	2,968	2,810	3,500
اليمن	1,146	1,016	1,278	1,474	935	1,900
مجموع البلدان العربية(**)	780,836	908,031	1,087,014	1,014,749	745,035	1,160,100

(*) بموجب عقد البيع «فوب» FOB يتم تسليم البضاعة وتنتقل ملكيتها من البائع إلى المشتري منذ الوقت الذي توضع فيه على ظهر السفينة. وعند هذا الحد تنتهي التزامات البائع أمام المشتري.

(**) البيانات لا تشمل فلسطين.

(...) غير متوافر.

أرقام جداول الملف خاضعة للتدوير.

(أ) بيانات السنوات من 2016 إلى 2020، انظر: جامعة الدول العربية، الأمانة العامة [وآخرون]، التقرير الاقتصادي العربي الموحد، 2021 (القاهرة: الأمانة العامة، 2021)، الملحق (1/8)، ص 379.

(ب) وبالنسبة لبيانات عام 2021، انظر: موقع المؤسسة العربية لضمان الاستثمار وائتمان الصادرات (ضمان)، <https://www.dhaman.net/ar/statistics/>

الجدول الرقم (2)
الواردات السلعية العربية الإجمالية (سيف)(*)
(2016ـ2020) و 2021

(مليون دولار)

السنة	2016(أ)	2017(أ)	2018(أ)	2019(أ)	2020(أ)	2021(ب)
الأردن	19,352	20,527	20,339	19,197	17,035	21,700
الامارات	226,603	246,344	235,360	259,251	234,200	319,400
البحرين	13,570	16,055	19,085	17,263	12,683	14,200
تونس	19,442	20,669	22,673	21,578	18,307	22,500
الجزائر	49,287	48,813	49,012	43,241	35,358	36,000
جيبوتي	2,327	3,576	3,603	4,138	3,314	4,000
السعودية	140,170	134,519	137,065	153,163	132,754	155,000
السودان	8,311	9,134	7,065	8,035	7,736	9,000
سورية	4,500	4,900	4,900	4,900	4,800	5,600
الصومال	1,045	1,087	1,120	1,200	1,170	1,200
العراق	34,208	37,866	45,736	58,138	48,150	46,000
عُمان	23,784	26,951	26,289	22,857	21,107	22,100
قطر	31,972	29,814	31,609	29,098	25,764	27,900
القُمر	219	252	276	222	217	...
الكويت	26,690	29,505	31,096	33,478	27,931	33,200

لبنان	19,125	19,589	19,986	18,221	9,644	15,000
ليبيا	10,445	9,199	13,491	14,840	11,710	16,400
مصر	71,357	66,565	81,910	76,390	63,578	66,600
المغرب	41,874	45,189	51,308	51,053	44,449	58,000
موريتانيا	1,780	2,270	2,958	2,873	2,336	3,600
اليمن	7,433	6,516	8,844	10,700	8,462	10,900
مجموع البلدان العربية(**)	753,494	779,340	813,725	849,836	730,705	888,300

(*) بموجب عقد البيع «سيف» يشمل ثمن البضاعة قيمة التأمين عليها وأجرة السفينة. وفي هذا العقد تنتقل ملكية البضاعة إلى المشتري منذ وقت الشحن، غير أن البائع في عقد سيف –بخلاف عقد بيع «فوب» يبقى ملتزمًا بإبرام عقد النقل والتأمين على البضاعة.

(**) البيانات لا تشمل فلسطين.

(...) غير متوافر.

(ـ) تشير إلى انخفاض في قيمة الواردات.

(أ) بالنسبة لبيانات الفترة من 2016 إلى 2020، انظر: جامعة الدول العربية، الأمانة العامة [وآخرون]، **التقرير الاقتصادي العربي الموحد، 2021** (القاهرة: الأمانة العامة، 2021)، الملحق (1/8)، ص 379.

(ب) وبالنسبة لبيانات عام 2021، انظر موقع المؤسسة العربية لضمان الاستثمار وائتمان الصادرات (ضمان)، <https://www.dhaman.net/ar/statistics/> (تمت زيارة الموقع بتاريخ 8 تشرين الثاني/نوفمبر 2022).

الجدول الرقم (3)
الميزان التجاري السلعي للبلدان العربية لعام 2021(*)

(مليون دولار)

الدولة	الصادرات	الواردات	الفائض أو العجز
الأردن	9,400	21,700	ـ12,300
الإمارات	425,000	319,400	105,600
البحرين	23,200	14,200	9000
تونس	16,700	22,500	ـ5,800
الجزائر	36,700	36,000	700
جيبوتي	3,300	4,000	ـ700
السعودية	258,400	155,000	103,400
السودان	4,300	9,000	ـ4,700
سورية	900	5,600	ـ4,700
الصومال	500	1,200	ـ700
العراق	62,300	46,000	16,300
عُمان	53,700	22,100	31,600
قطر	86,700	27,900	58,800

القُمر	...	...	...
الكويت	71,400	33,200	38,200
لبنان	4,300	15,000	ـ10,700
ليبيا	25,700	16,400	9,300
مصر	36,400	66,600	ـ30,200
المغرب	35,800	58,000	ـ22,200
موريتانيا	3,500	3,600	ـ100
اليمن	1,900	10,900	ـ9000
مجموع البلدان العربية	1,160,100	888,300	271,800

(*) احتسبت بيانات الميزان التجاري استنادًا إلى بيانات الجدولين الرقمين (1) و(2) لعام 2021.

(ـ) قيمة العجز.

الجدول الرقم (4)
تطور تجارة السلع العربية 2020ـ2021

صادرات أبرز السلع العربية					
	2020 مليون دولار	2021 مليون دولار	التغيير مليون دولار	نسبة التغيير (بالمئة)	الحصة من العالم (بالمئة)
صادرات السلع الغذائية	46,500	56,200	9,700	20.9	3.0
صادرات المواد الزراعية الخام	2,900	3,700	800	28.4	1.2
صادرات السلع الصناعية	262,600	322,600	59,900	22.8	2.1
صادرات الوقود	390,200	655,300	265,100	67.9	25.8
حصة صادرات الوقود من إجمالي الصادرات السلعية العربية(بالمئة)	47.8	46.3	8.6	...	...
واردات أبرز السلع العربية					
واردات السلع الغذائية	113,400	127,700	14,300	12.6	6.8
واردات المواد الزراعية الخام	6,900	7,800	900	13.7	2.5
واردات السلع الصناعية	494,300	576,600	82,300	16.6	3.8
واردات الوقود	44,500	75,900	31,400	70.7	3.0
حصة واردات الوقود من إجمالي الواردات السلعية العربية (بالمئة)	5.9	8.5	2.5	...	...

(...) غير متوافر.

المصدر: بالنسبة لبيانات عام 2021، انظر موقع المؤسسة العربية لضمان الاستثمار وائتمان الصادرات (ضمان)، <https://www.dhaman.net/ar/statistics/> (تمت زيارة الموقع بتاريخ 8 تشرين الثاني/نوفمبر 2022).

الجدول الرقم (5)
إجمالي التجارة السلعية في البلدان العربية لعامي 2020ـ2021(*)

(مليون دولار)

المرتبة	الدولة	2020	2021	قيمة التغيير	نسبة التغيير (بالمئة)	الحصة من الإجمالي (بالمئة)
1	الإمارات	582,100	744,500	162,400	27.9	36.1
2	السعودية	311,900	413,400	101,600	32.6	20.1
3	قطر	77,300	114,600	37,200	48.1	5.6
4	العراق	87,700	108,300	20,600	23.4	5.3
5	الكويت	67,900	104,600	36,800	54.2	5.1
6	مصر	86,500	103,000	16,500	19.1	5.0
7	المغرب	71,000	93,900	22,900	32.2	4.6
8	عُمان	51,200	75,800	24,500	47.9	3.7
9	الجزائر	58,200	72,700	14,500	24.9	3.5
10	ليبيا	18,500	42,000	23,600	127.7	2.0
11	تونس	32,100	39,200	7,000	21.9	1.9
12	البحرين	26,700	37,400	10,700	39.9	1.8
13	الأردن	25,200	31,000	5,900	23.2	1.5
14	لبنان	15,400	19,300	3,800	24.7	0.9
15	السودان	13,600	13,300	300.0	(2.2)	0.6
16	اليمن	11,600	12,700	1,100	9.5	0.6
17	جيبوتي	5,700	7,200	1,600	27.3	0.4
18	موريتانيا	5,600	7,100	1,500	26.8	0.3
19	سورية	6,100	6,500	400.0	5.7	0.3
20	الصومال	1,500	1,700	200.0	9.9	0.1
	إجمالي الدول العربية	1,555,800	2,048,200	493,100	31,6	100

ملاحظات

(*) البيانات لا تشمل جزر القمر وفلسطين.

المصدر: بالنسبة لبيانات عام 2021، انظر موقع المؤسسة العربية لضمان الاستثمار وائتمان الصادرات (ضمان)، <https://www.dhaman.net/ar/statistics/> (تمت زيارة الموقع بتاريخ 8 تشرين الثاني/نوفمبر 2022).

الجدول الرقم (6)
اتجاه الصادرات السلعية العربية (2016ـ2020)

(مليون دولار)

السنة	2016	2017	2018	2019	2020	معدل التغيير السنوي (بالمئة)
البلدان العربية	99,955	108,080	112,511	112,264	96,372	ـ14.2
الاتحاد الأوروبي	98,623	104,962	169,584	189,034	93,327	ـ50.6
الولايات المتحدة الامريكية	37,148	41,451	60,030	58,558	25,157	ـ57.0
آسيا وبينها:	288,331	308,305	585,787	577,149	383,369	ـ33.6
اليابان	59,735	63,823	90,112	79,957	51,990	ـ35.0
الهند	35,879	45,927	106,843	108,225	80,532	ـ25.6
الصين	78,548	90,577	139,018	145,681	116,732	ـ19.9
باقي دول آسيا	114,169	107,979	249,794	243,287	134,114	ـ44.9
باقي دول العالم	258,486	347,162	160,969	79,491	148,583	86.9
العالم	782,543	909,960	1,088,861	1,016,497	746,808	ـ26,5

(ـ) تشير إلى انخفاض في قيمة الصادرات.

المصدر: جامعة الدول العربية، الأمانة العامة [وآخرون]، **التقرير الاقتصادي العربي الموحد، 2021** (القاهرة: الأمانة العامة، 2021)، الملحق (2/8)، ص 380.

الجدول الرقم (7)
اتجاه الواردات السلعية العربية (2016ـ2020)

(مليون دولار)

السنة	2016	2017	2018	2019	2020	معدل التغيير السنوي (بالمئة)
البلدان العربية	99,038	102,843	112,958	112,204	91,470	ـ18.5
الاتحاد الأوروبي	225,676	221,614	217,606	215,636	158,686	ـ26.4
الولايات المتحدة الأمريكية	69,213	67,275	61,674	60,910	45,652	ـ25.0
آسيا وبينها:	327,631	393,473	297,597	302,794	227,096	ـ25.0
اليابان	25,287	24,832	20,797	21,486	16,985	ـ20.9
الهند	34,577	37,639	49,909	47,243	37,952	ـ19.7
الصين	130,927	128,177	105,960	120,521	122,968	2.0

باقي دول آسيا	136,841	202,825	120,930	113,545	49,190	ـ56.7
باقي دول العالم	38,395	1,048	131,129	165,551	214,178	29,4
العالم	759,951	786,252	820,963	857,094	737,081	ـ14.0

(ـ) تشير إلى انخفاض في قيمة الصادرات.

المصدر: جامعة الدول العربية، الأمانة العامة [وآخرون]، **التقرير الاقتصادي العربي الموحد، 2021** (القاهرة: الأمانة العامة، 2021)، الملحق (8/2)، ص 380.

الجدول الرقم (8)

أبرز الدول المصدرة للسلع للبلدان العربية 2020ـ2021

(مليون دولار)

المرتبة	الدولة	2020	2021	نسبة التغيير (بالمئة)	الحصة من الإجمالي (بالمئة)
1	الصين	122,900	147,400	20.0	16.4
2	الامارات	92,500	108,300	17.1	12.1
3	الهند	38,000	51,900	36.8	5.8
4	الولايات المتحدة	45,700	49,800	9.1	5.5
5	تركيا	31,200	39,900	28.0	4.4
6	السعودية	28,800	39,200	36.1	4.4
7	ألمانيا	32,500	33,900	4.5	3.8
8	إيطاليا	24,900	28,200	13.1	3.1
9	فرنسا	26,000	27,400	5.5	3.1
10	إسبانيا	19,400	23,400	21.1	2.6
	دول أخرى	287,400	347,900	21.0	38.8
	الإجمالي	749,300	897,300	19.8	100

المصدر: بالنسبة لبيانات عام 2021، انظر موقع المؤسسة العربية لضمان الاستثمار وائتمان الصادرات (ضمان)، <https://www.dhaman.net/ar/statistics/> (تمت زيارة الموقع بتاريخ 8 تشرين الثاني/نوفمبر 2022).

الجدول الرقم (9)

أبرز الدول المستوردة للسلع من البلدان العربية 2020ـ2021

(مليون دولار)

المرتبة	الدولة	2020	2021	نسبة التغيير (بالمئة)	الحصة من الإجمالي (بالمئة)
1	الصين	116,500	182,900	56.9	15.7
2	الهند	72,000	129,100	79.3	11.1
3	اليابان	52,000	77,500	49.0	6.7
4	كوريا الجنوبية	43,600	63,900	46.4	5.5

5	الولايات المتحدة	26,500	43,100	62.8	3.7
6	الإمارات	29,300	39,300	34.2	3.4
7	إيطاليا	23,900	36,600	53.1	3.1
8	فرنسا	18,800	27,900	48.7	2.4
9	إسبانيا	17,300	27,800	60.4	2.4
10	سنغافورة	17,800	27,700	55.5	2.4
	دول أخرى	398,600	507,100	27.2	43.6
	الإجمالي	816,500	1162,900	42.4	100

المصدر: موقع المؤسسة العربية لضمان الاستثمار وائتمان الصادرات (ضمان)، <https://www.dhaman.net/ar/statistics/> (تمت زيارة الموقع بتاريخ 8 تشرين الثاني/نوفمبر 2022).

الجدول الرقم (10)
الصادرات البينية العربية (فوب)(*)
(2016ـ2021)

(مليون دولار أمريكي)

السنة	2016(أ)	2017(أ)	2018(أ)	2019(أ)	2020(أ)	2021(ب)
الأردن	3,021	2,926	2,864	2,932	2,843	3,600
الإمارات	22,531	24,235	26,640	26,338	24,313	108,300
البحرين	3,122	4,976	6,671	6,306	4,322	11,600
تونس	1,493	1,312	1,473	1,460	1,201	2,200
الجزائر	1,576	2,068	2,532	2,696	1,883	1,700
جيبوتي	97	99	144	140	95	1,100
السعودية	31,693	37,391	38,420	38,452	32,424	39,200
السودان	2,155	2,836	2,371	2,011	1,911	2,500
سورية	521	513	520	525	...	800
الصومال	388	328	405	407	254	0
العراق	1,836	1,529	1,369	1,858	1,616	1,900
عُمان	6,475	6,790	7,994	7,740	7,075	14,400
قطر	6,841	5,610	4,220	3,028	3,112	5,400
القُمر	4	3	3	4	3	...
الكويت	2,122	2,783	2,933	3,073	2.323	8,500
لبنان	1,297	1,397	1,573	1,531	1,879	1,800
ليبيا	2,928	1,793	945	1,621	352	1,800
مصر	9,805	9,786	9,517	10,080	8,836	9,500
المغرب	1,349	1,167	1,240	1,372	1,265	1,700

موريتانيا	5	5	8	8	8	0
اليمن	579	392	310	316	396	500
مجموع الدول العربية	99,838	107,939	112,152	111,898	93,790	216,000

(...) غير متوافر.

البيانات لا تشمل فلسطين وجزر القمر.

(0) قيمة تلامس الصفر.

(أ) بالنسبة لبيانات السنوات من 2016 إلى 2020، انظر: جامعة الدول العربية، الأمانة العامة [وآخرون]، **التقرير الاقتصادي العربي الموحد 2021** (القاهرة: الأمانة العامة، 2021)، الملحق (4/8)، ص 382.

(ب) بالنسبة إلى بيانات سنة 2021، **المصدر**: بالنسبة لبيانات عام 2021، انظر موقع المؤسسة العربية لضمان الاستثمار وائتمان الصادرات (ضمان)، <https://www.dhaman.net/ar/statistics/> (تمت زيارة الموقع بتاريخ 8 تشرين الثاني/نوفمبر 2022).

الجدول الرقم (11)
الواردات البينية العربية (سيف) (2016ـ2021)(*)

(مليون دولار)

السنة	2016(أ)	2017(أ)	2018(أ)	2019(أ)	2020(أ)	2021(ب)
الأردن	4,426	4,897	5,431	5,085	4,023	5,200
الإمارات	21,097	22,806	23,115	23,029	21,812	39,300
البحرين	4,739	5,033	4,828	4,762	1,672	6,600
تونس	1,513	1,719	2,056	2,610	1,733	2,700
الجزائر	2,514	2,042	2,376	2,236	2,039	4,100
جيبوتي	423	480	460	462	407	1,500
السعودية	15,844	16,884	19,025	19,659	17,524	24,300
السودان	2,137	2,619	2,178	2,749	2,100	2,000
سورية	785	1,010	1,045	1,064	...	900
الصومال	869	783	474	478	298	30
العراق	2,267	2,611	4,046	4,192	3,664	5,800
عُمان	12,669	13,056	13,698	14,482	11,866	13,500
قطر	5,778	4,240	2,049	1,795	1,319	1,500
القُمر	40	42	56	60	50	...
الكويت	5,688	6,223	7,114	6,569	5,630	6,800
لبنان	2,608	2,295	2,548	2,555	1,180	2,400
ليبيا	1,947	1,710	2,784	2,556	2,017	3,700
مصر	8,628	9,788	13,003	11,346	8,961	11,400

المغرب	2,922	2,871	3,918	3,844	2,908	3,800
موريتانيا	604	339	614	614	491	900
اليمن	1,220	1,039	1,704	1,623	1,398	3,900
مجموع الدول العربية	98,718	102,487	112,522	111,770	91,092	140,330

(...) غير متوافر.

البيانات لا تشمل فلسطين وجزر القمر.

(أ) بالنسبة لبيانات السنوات من 2016 إلى 2020، انظر: جامعة الدول العربية، الأمانة العامة [وآخرون]، **التقرير الاقتصادي العربي الموحد 2021** (القاهرة: الأمانة العامة، 2021)، الملحق (4/8)، ص 382.

(ب) بالنسبة إلى بيانات سنة 2021، **المصدر**: بالنسبة لبيانات عام 2021، انظر موقع المؤسسة العربية لضمان الاستثمار وائتمان الصادرات (ضمان)، <https://www.dhaman.net/ar/statistics/> (تمت زيارة الموقع بتاريخ 8 تشرين الثاني/نوفمبر 2022).

الجدول الرقم (12)

إجمالي التجارة العربية البينية لعامي 2020ـ2021(*)

(مليون دولار)

المرتبة	الدولة	2020	2021	قيمة التغيير	نسبة التغيير (بالمئة)	حصة الدول العربية من الإجمالي البيني (بالمئة)
1	الإمارات	121,800	147,600	25,800	21.2	41.3
2	السعودية	46,600	63,500	17,000	36.4	17.8
3	سلطنة عمان	20,900	27,900	7,100	33.7	7.8
4	مصر	17,200	21,000	3,700	21.7	5.9
5	البحرين	13,000	18,300	5,300	40.5	5.1
6	الكويت	10,700	15,300	4,600	42.9	4.3
7	الأردن	7,100	8,800	1,700	23.6	2.5
8	العراق	6,800	7,700	900	12.8	2.2
9	قطر	3,600	6,900	3,300	90.3	1.9
10	الجزائر	5,000	5,800	800	15.6	1.6
11	ليبيا	3,500	5,500	2,000	55.8	1.5
12	المغرب	4,000	5,400	1,400	35.0	1.5
13	تونس	4,000	4,900	900	21.9	1.4
14	السودان	4,500	4,500	0	1.1	1.3
15	اليمن	3,700	4,400	700	18.6	1.2

16	لبنان	3,800	4,200	500	12.1	1.2
17	جيبوتي	1,800	2,500	800	42.8	0.7
18	سورية	1,700	1,800	100	6.5	0.5
19	موريتانيا	600	900	300	41.5	0.2
20	الصومال	800	0	ـ800	ـ96.2	0

(*) البيانات لا تشمل فلسطين وجزر القمر.

المصدر: موقع المؤسسة العربية لضمان الاستثمار وائتمان الصادرات (ضمان)، <https://www.dhaman.net/ar/statistics> (تمت زيارة الموقع بتاريخ 8 تشرين الثاني/نوفمبر 2022).

Research reports: Why Israel Is Hesitant About Supplying Ukraine with Air Defense Systems; «Reunification» with Taiwan through Force Would Be a Pyrrhic Victory for China. ..... Gabby El Khoury 151

■ Statistical file

• *Foreign Trade of Arab Countries: Selected Indicators* ..... Gabby El Khoury 160

in favor of protecting the environmental common. Thus building an Arab approach that senses the inevitability of protecting common environmental rights by addressing the liberal foundations of Western capitalocene and its relationship to the dangers of the climate securitization crisis in the Arab world, and presenting a different thesis to protect the environmental common.

■ Articles and opinions

- *An open letter to Arab intellectuals*..... Miloud Amer Hajj 114
- *Extremist Discourse: between Salafi jihadism and the extreme right* ..... Mahmoud Ahmed Abdullah 123

■ Flags

- *Youssef Al-Ruwaisi and the Unionist Arab Nationalist Trend in the Tunisian National Movement* ..... Hani Al Shahidi 135

■ Books and readings

- *Tenuous relations between the West and Muslims: Causes and Solutions* (Hans Köckler)..... Mohamed Wahdo 147

■ Book Summaries

Arabic Books: The Destruction of Syria and the Displacement of Its People: Who is Responsible?; Islam and liberal citizenship in search of an overlapping consensus; The end of the Ottoman Empire and the formation of the Middle East; Transformations of the Palestinian Elite: Reviews in History and Identity.

Foreign Books: The Untold Story of the Golan Heights: Occupation, Colonization and Jawlani Resistance; How the West Brought War to Ukraine: Understanding How U. S. and NATO Policies Led to Crisis, War, and the Risk of Nuclear Catastrophe; The Economic Weapon: The Rise of Sanctions as a Tool of Modern War; The Withdrawal: Iraq, Libya, Afghanistan, and the Fragility of U. S. Power.

The study examines the manifestations of power and its features in the modern Mauritanian state in comparison to the old models of power in previous Mauritanian society that are dominated by alliances and disharmony. The study also dwells on the contradictions behind the concept of power and its implications, with emphasis on Khaldun's theory, from blood lineage to social cohesion, and examines the features of power transformations in Mauritanian society before and after the emergence of the state through examining traditional power and any functional conflicts associated to it.

□ *The Palestinian national discourse on social networking sites: Facebook as a model*.....Bassam Aweidah 79

Over the past sixty years, the Palestinian political field underwent various changes. Politics, like any other social phenomena, is subject to internal and external factors, influences, changes, and interventions. Perhaps the most prominent of these factors is the balance of power between both sides in the Palestinian-Israeli conflict, the shifting of national stakes and projects on the Palestinian arena especially after Oslo, the formation of the Palestinian Authority and the changes in the national project, opting to a peaceful "settlement" rather than resistance. This study seeks to reveal the transformations that occurred in the Palestinian national discourse on the Facebook platform, study the content of this transformation and measure its impact, and the content of the national discourse on the Facebook communication platform.

□ *Climate Securitization Crisis in the Arab World: A Critical Study of Liberal Theory* ..... Chougrani Elhoucine and Khalid Elkadaoui 98

The impact of climate change on the security of states and their peoples has become a reality, after having been a theoretical field. From this standpoint, the study aims to dismantle the concept of Western capitalocene and its applications, its relevance to the climate securitization crisis in the Arab world, with a focus on providing a critique Arab perspective of liberal theory, examining the security repercussions of climate shifts and criticizing liberal policies not

□ *Moroccan-Gulf relations in light of global changes*..... Rashid Baji 27

The Moroccan-Gulf relations seem to be among the most exciting inter-Arab relations. Morocco is the most geographically remote Arab country from the Arabian Gulf region. In terms of its population ethnicity, it is a mixture between Arabs and Berbers. Throughout history, the Maliki Doctrine was the dominant school of thought throughout the Moroccan kingdom. In contrast the Gulf region adopted the Hanbali Doctrine. However, the apparent factors of difference contributed to weaving distinct relations between the Moroccan Kingdom and the Arab Gulf countries. In general, the Moroccan policy coincided with the Gulf countries behavior, while Morocco retained political independence of its decision making and its positive neutrality, especially in internal Arab conflicts.

□ *The Algerian popular movement between street opposition and the authority: logic and implications*..... Mokhtar Maroufel 48

The Algerian popular movement phenomenon cannot be answered without examining the bilateral dimension in which the authority and people meet as two opposites suffering from lack of trust between them. The paper examines the details of the Algerian movement, and displays the spaces of difference between the authority and people, and indications emanating from speeches and actions accompanying the movement of both sides. The study attempts to answer a number of anthropological dilemmas that are hidden behind the convictions and tools of both conflicting sides in an attempt to gain support and momentum. The study examines testimonials, records of abuses, insults and insults, aiming to excavate the backgrounds that give the phenomenon of movement significance and meaning.

□ *Power shifts in Mauritania before and after the emergence of the state: a sociological reading*..... Bab Wild Sayed Ahmed Al 64

The issue of Power in Mauritanian society raises many questions and problems, whether at the superficial level, or at the hidden level of power that is often embodied in controlling and governing society.

AL MUSTAQBAL AL ARABI
[THE ARAB FUTURE]

Editor-in-Chief
Luna Abuswaireh

Editor
Fares Abi Saab

Vol. 45 **No. 526** **December 2022**

Abstracts

■ Editorial

□ *The Palestinian Authority Dilemma and the Emergence of Resistance in West Bank*..... Amro Allan 7

■ Studies

□ *The Geostrategic Positioning of Naval Forces in sites Bordering the Arab Region*..... Abdul Rahim Rahmouni 10

The Arab region is one of the most prominent regions characterized by internal and external conflict, this is reinforced by the emergence of external actors as key players in the war and peace equation in the region. The study examines the nature of the Arab region and its centrality as a strategic maritime course for these actors, which are increasingly repositioning themselves in the region, and to know to which extent is the Arab region seen as a geopolitical-maritime hub in the eyes of other naval powers (American, Russian, Iranian, and Turkish). Finally, the study aims to analyze the impact of this region on the military starting points of these powers, and also answer several questions related to the reality of the Arab region in light of the Maritime Military strategies of these powers.